حكم وأسرار الحج

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى

١٤٣٥هـ ٢٠١٤م

حسين صالح العايش

حكم وأسرار الحج

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لمناسك الحج حكم وأسرار وفوائد كثيرة أشار إليها الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨)، واستعرضت في الروايات بشيء من البيان والتفصيل، غير أنّ إدراك مغزاها والوصول إلى بعض أسرارها قد لا يحصل إلاّ لمن أدمن الحج وطبق ما ورد من إشارات في الروايات على الواقع، وساعده التوفيق الإلهي فوصل إلى إدراك بعض تلكم الحكم والأسرار وقد وفقني الله تعالى إلى حج البيت ما ينوف على العشرين واعتماره مرات متعددة، وفي كل مرة أجد معنى من المعاني لم أصل إليه في المرات السابقة، فأدركت حكمة التعميم في قوله تعالى: ﴿مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، وعزمت منذ البداية أنْ أسجل محاضرات الحج التي ذكرت في بعضها حكم وأسرار المناسك بشيء من الإيضاح، ومن ثم أحببت أن أعيد صياغتها وأبلور بعض الأفكار الواردة فيها لتكون كتاباً يستفيد منه الحاج، فجهدت في ذلك لإخراجها ناضجة لتكون زاداً للحاج والمعتمر، فتم ذلك وطُبع كتاب بعنوان (حكم وأسرار الحج) في عام ١٤٢٧هـ، وقد لمست التفاعل الإيجابي عند قراء تلك الحكم والأسرار من الحجاج والمعتمرين وغيرهم، فأحببت أن أضيف إليه حكماً وأسراراً

أخرى لتزداد الفائدة ويعم النفع، فتم ذلك بتوفيق من الله تعالى، فله الحمد والثناء.

أسأله تعالى أن يجعل عملي خالصاً لوجهه، موجباً للقرب من رسوله ﷺ وأهل بيته الأطهار، والحمد لله رب العالمين.

حسين صالح العايش

١٨/ ١/ ١٤٣٤ هـ

القسم الأول:

آداب ومقدمات الحج

الفصل الأول: آداب الحج

أبعاد الحج في الآخرة

قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٧) صدق الله العلي العظيم.

الدين الإسلامي يقوم على دعائم أشارت إليها الروايات تُشكّل كل واحدة منها رُكناً من أركان الإسلام، وقد أُوليت مزيداً من العناية شرحاً وإيضاحاً وتفصيلاً، لأحكامها تارة؛ ولبيان الأهمية الفائقة والكبيرة المترتبة عليها تارة أخرى، ولشرح وإيضاح الآثار الوضعية التي تعود على المكلف تارة ثالثة. وروايات النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل البيت عليهم السلام أبانت مفصحة هذه الأنحاء الثلاثة التي ذكرتها. والحج هو إحدى الدعائم التي قام عليها الدين، وتوافرت فيها الأنحاء الثلاثة المتقدمة.

أهمية الحج في الإسلام

الحج ركن من أركان الإسلام، وهذا ما أكدته طائفة من الروايات، منها ما ورد عن إمامنا الباقر عليه السلام قال: «بُنِيَ الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية»[1] أي: الولاية لأهل البيت عليهم السلام، إذن هذه الطائفة تولي الحج أهمية فائقة لكونه ركناً ودعامة بنيت عليه الشريعة. ويعني هذا أنّ الإخلال به أو تركه يؤدي إلى تهدم الأركان الأخرى، ويحسن بنا أن ننبه على أمر في غاية الأهمية، هو أنّ الله تعالى أمر بهذه العبادات وجعلها مترابطة مع بعضها، بمعنى أنّ الإتيان بواحدة منها لا يغني ولا يكفي عن الإتيان بالدعائم الأخرى، فإذا صلى المكلف طوال حياته ولم يُزكِّ لم تفده

(١) مستدرك وسائل الشيعة ج١ ص ٧٢.

صلاته، وإذا صام ولم يُصلّ أو لم يحج لم يفده صومه، فهناك ارتباط وثيق بين الصلاة والصوم والحج والزكاة والولاية لأهل البيت عليهم السلام.

الحكمة من الحج

أبان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث آخر العلّة والحكمة التي أمر الله تعالى بالصلاة والحج من أجلها، وتلك هي الحيثية الأخرى التي أوضحتها الروايات، فالطائفة الأولى منها ركّزت على أنّ الحج دعامة يترتب عليها مجموعة من الأمور، من أهمها أنّ الحاج يصل إلى إدراك معنى الذكر، وذلك هو الهدف من إقام الصلاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي﴾(طه:١٤) فمن كان ذكره لقلقة لسان ولم ينعكس على سلوكه من الناحية العملية، أي لم يؤثر فيه الذكر سلوكياً كمن صلى وعصى فاقترف الزنا أو تعامل بالربا أو كذب فإنّ صلاته لم تؤثر عليه سلوكياً ومعنوياً لأنّ الصلاة حقيقتها التأثير الإيجابي في سلوك الإنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾(العنكبوت:٤٥) وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «إنما فُرضت الصلاة وأُمر بالحج والطواف وأُشعرت المناسك لإقامة ذكر الله[١]»، أي، إنّ هذه العبادات توصل المصلي والحاج إلى إدراك معنى الذكر الحق لله تعالى، ويؤدي به ذلك إلى أن يكون عبداً لله لإقامة ذكره، وإذا كان القلب لا يستشعر عظمة الله تعالى، ولا يخافه، فما قيمة ذكره لله، وأدائه للفرائض؟!

آثار الحج في عالم الآخرة

هناك روايات متعددة تؤكد على أثر العبادات بعد موت الإنسان وفي عالم الآخرة، حيث تنكشف حقائق العبادة، التي هي دعائم بنيت عليها الشرائع المقدسة، خصوصاً عبادة الحج، روى محمد بن مسلم عن الإمام الصادق أو الباقر عليهما السلام -التردد من الراوي- قال: «ودَّ من في القبور لو أنّ له حَجَّة واحدة بالدنيا وما فيها[٢]» أي، أنّ

(١) عوالي اللئالي ج ١ ص ٣٢٣.
(٢) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١١٠.

الميت يود ويحب أن يُعطي جميع ما يملك في عالم الدنيا من أجل أن يحصل على الأثر الذي يترتب على الحَجّة الواحدة في عالم الآخرة. وأشارت الروايات أيضاً إلى الثواب الجزيل والأجر الجميل، الذي يحصل عليه الحاج منذ البداية الأولى التي يُبرمج فيها ذاته للوصول إلى أداء هذه الفريضة المقدسة، أي بمجرد أن ينوي الذهاب إلى الحج، وقد أكد ذلك النبي ﷺ في خطبته التي رويت من الفريقين، وأبكت جميع من استمع إليها، قال ﷺ في بعض فقراتها: «ومن خرج حاجّا أو معتمراً فله بكل خطوة حتى يرجع مائة ألف ألف حسنة، ويُمحى عنه ألف ألف سيئة، وتُرفع له ألف ألف درجة، وكان له عند الله بكل درهم ألف ألف درهم، وبكل دينار ألف ألف دينار، وبكل حسنة عملها في وجهه ذلك ألف ألف حسنة حتى يرجع، وكان في ضمان الله، إن توفاه الله أدخله الجنة، وإن رجع رجع مغفوراً له مستجاباً له، فاغتنموا دعوته فإن الله لا يرد دعاءه إذا قدم»[١]، إنّ الحاج أو المعتمر لا يحصل فقط على المغفرة بل دعوته مستجابة، فاغتنموا دعوة الحاج بعد رجوعه من أداء هذه المناسك. فهناك ارتباط خاص بين الحاج أو المعتمر وبين الله تعالى، وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى ذلك، فقال: «الحاجّ والمعتمر وفد الله، إن سألوه أعطاهم، وإن دعوه أجابهم، وإن شفعوا شفّعهم، وإن سكتوا ابتدأهم ويعوّضون بالدرهم ألف درهم»[٢]، هناك ضيوف تفد على الكرام في عالم الدنيا، ووفود يفدون على الكريم الغني المطلق الله تعالى، ومن ذهب إلى الحج فهو وافد وضيف على الله تصل درجته إلى مراتب عالية، حيث إنه حتى إذا لم يسأل الله تعالى يبتدئه بالعطية ويجزل له الموهبة، وذلك من كرمه الذي لا حد له، جاء في بعض الأدعية: «يا من يعطي من سأله، يا من يعطي من لم يسأله ومن لم يعرفه»[٣] فكيف إذا ذهب الإنسان وافداً وضيفاً على الله تعالى، «وإن شفّعوا شفعهم وإن سكتوا ابتدأهم».

(١) وسائل الشيعة ج١١ ص ١٠٤.
(٢) وسائل الشيعة ج١١ ص ٩٩.
(٣) إقبال الأعمال ج ٣ ص ٢١١.

الإنفاق في الحج وخدمة الحاج

في الختام نؤكد على نقطتين هامتين أشارت إليهما الروايات:

الأولى: الإنفاق في الحج

إنّ من مصاديق الإنفاق في الحج أن تنفق المال من أجل الترفيه والراحة التامة للحجيج الوفود على الله كي تحصل على الثواب الجزيل، وهذا ما أكدته الرواية – الآنفة الذكر – التي أوردت مقطعاً منها في قوله ع: «ويعوّضون بالدرهم ألف درهم» فمن أنفق أو استثمر لا يحصل في العادة على ألف، وهذا الألف لعله في الحياة الدنيا ولكن في الآخرة لا حد لعطاء الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(ق:٣٥) ففي عالم الدنيا أشار الإمام عليه السلام إلى أنّ المنفق في الحج يُعوض من الدرهم بألف.

الثانية: خدمة الحاج

خدمة الحاج يراد بها قيام الإنسان بنفسه لخدمة ضيوف الله، وقد أبانت الروايات عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام ذلك، ولم تقتصر على الجانب النظري فحسب بل أنّ الأئمة عليهم السلام طبّقوا عملياً خدمة ضيوف الله، ونلمس ذلك بوضوح من الإمام زين العابدين عليه السلام في خدمته للحجيج، كان عليه السلام يتعمد السفر إلى الحج مع رفقة لا يعرفونه، كي يتسنى له القيام بخدمتهم، وفي إحدى سفرات الإمام عليه السلام إلى الحج مع قافلة لا تعرفه تصدّى عليه السلام لغسل ملابس الحجيج فرآه بعض أصحابه، وتعجب من هذا الموقف، فخاطب الحجيج: هلّا عرفتم من هو الخادم لكم؟ قالوا: لا؛ إنما هو رجل صالح، فقال لهم: هذا هو الإمام زين العابدين ابن رسول الله صلى الله عليه وآله، فتأثر الجميع واضطربوا وانقلبت أحوالهم، وصار الجميع يخدم الجميع؛ تأثراً واقتداءً بالإمام عليه السلام، ثم ذهبوا إلى الإمام قائلين: ماذا تفعل بنا يا بن رسول الله؟ والمهم هنا السؤال الذي وجهه ذلك الشخص للإمام، فقال: كيف تفعل ذلك؟ أي تذهب مع من لا يعرفك، فأجاب الإمام عليه السلام: «تعمداً لذلك لئلا أُخدم في الحج وإنما أَخدِم الوفود والضيوف على الله».

الحج منطلق الإيمان وتهذيب السلوك

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(البقرة:١٩٧) صدق الله العلي العظيم.

التقوى مَعْلَمُ الحج

الحج مدرسة تهدف إلى تربية الإنسان وتعليمه القيم والمبادئ الإلهية، والسير بالإنسانية جمعاء إلى شاطئ الأمن والأمان، من هنا ركزت آيات القرآن الكريم على مبدأ الأمن والأمان في الحج، وقد استعرضنا بعضاً منها، ونُؤكد هنا على تقاطع الحج مع معلم الخلق الكريم الذي تنبثق منه الإنسانية في تعامل الإنسان مع أخيه الإنسان ومع الكون، وينبثق منه تقوى الله تعالى والارتباط به واستشعار إحاطته وعلمه، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ فهنا توكيد على أنّ التقوى تُوصل العاقل إلى خير الدنيا والآخرة باعتباره سعُدَ بتقوى الله تعالى فهذّب سلوكه، وفهم المقاصد من العبادة، فتحقق في شخصيته ما يريده الله تعالى من عباده، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦) فأصبح عابداً سلوكاً وعملاً لله تعالى، ومن أدّى هذه المناسك مستشعراً معانيها خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، إنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام رسخوا هذه المعالم في كل فئات المجتمع خصوصاً لدى طلائع الأمة انطلاقاً من القرآن الكريم، فهم عليهم السلام مفسرو شرائع أحكام الله تعالى.

الأئمة عليهم السلام وطلائع الأمة في الحج

هناك شخصيات لها تأثيرها في الأمة كالعلماء والمثقفين والكُتاب وأصحاب المواهب من المبدعين، هؤلاء لهم التأثير الكبير في كل عصر ومصر، من هنا ركّز الأئمة من أهل البيت عليهم السلام على قيم الحج لكل فئات الناس خصوصاً طلائع الأمة فجسدوا بسلوكهم العملي قيم الرسالة، والأنموذجان التاليان من سيرة الأئمة عليهم السلام شاهدان على ذلك:

الأول: الإمام الحسن عليه السلام

حج الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عشرين حجة ماشياً وكانت النجائب تُقاد بين يديه، وقد سُئل عن كثرة حجه ماشياً فأجاب عليه السلام إني استحي من ربي أن لا أمضي إلى بيته ماشياً على قدمي[1]، فهو عليه السلام يستحي من الله تعالى أن لا يكون حجه شعار التواضع لله، بل قمة التواضع له تعالى، فكون الإنسان في حالة من الخشوع والخضوع بمشيه على قدميه حاجاً، ليس من فاقة وفقر، لأنّ النجائب تُقاد بين يديه يظهر معنى العبودية.

الثاني: الإمام زين العابدين عليه السلام

لازم إمامنا زين العابدين عليه السلام الحج منذ صغر سنه وكان يدعو إلى تكريم الحجاج، فيذهب عليه السلام لزيارة الحاج عندما يرجع من حجه ويُوليه الإجلال والاحترام، وقد أبان عليه السلام بعض المعالم التي ألمحنا إليها، فقال عليه السلام: «استبشروا بالحجاج إذا قدموا،

(١) ينابيع المودة لذوي القربى – القندوزي ج ٢ ص ٢١١: عن محمد بن الحنفية قال: إن الحسن أخي يقول: إني لأستحي من ربي أن ألقاه و لم أمش إلى بيته. فسار عشرين مرة من المدينة على رجليه. انظر أيضا مناقب أهل البيت لإ للمولى حيدر الشيرواني و أسد الغابة لابن الأثير ج ٢.

وصافحوهم وعظموهم تشاركوهم في الأجر قبل أن تخالطهم الذنوب» فالحاج يرجع من الحج كيوم ولدته أمه، وذكر سعيد بن المسيب أنّ قُراء القرآن لا يخرجون إلى الحج إلا إذا خرج الإمام زين العابدين عليه السلام، فإذا خرج خرج معه أكثر من ألف قارئ من قُراء القرآن، وقُراء القرآن آنذاك هم طلائع الأمة، وهم بمثابة العلماء والشخصيات الكبيرة في زماننا يشكلون ثقلاً كبيراً في المجتمع الإسلامي، ولهم المهابة والاحترام، وإذا نظرنا إلى هذا العدد الكبير الذي يخرج مع الإمام زين العابدين عليه السلام تبين لنا المكانة المرموقة التي يتبوأها الإمام عليه السلام لدى شخصيات عصره، فالعدد كبير جداً حتى بالنسبة إلى عصرنا الحاضر الذي كثُرت فيه جامعات ومعاهد التعليم لا نكاد نرى خروج ألف من القراء مع أحدٍ.

الدور التوجيهي للأئمة عليهم السلام في الحج

كان الإمام زين العابدين عليه السلام يبين قيم الحج لكل المسلمين خصوصاً لمن يحج بحجه، ويوضح عليه السلام المعالم العرفانية في الحج لهم، وكان إذا أراد عقد نية الإحرام للحج، يصفر لونه ولا يستطيع أن يلبي من شدة خوفه وخشيته من الله تعالى، وعندما يُسأل ما لك لا تلبي، يقول عليه السلام: «أخشى أن يقول لي: لا لبيك ولا سعديك»[1]، فيخشى عليه السلام من الله أن يأتيه النداء لا لبيك، وكان عليه السلام يغشى عليه بعد التلبية من كثرة البكاء والخشية من الله تعالى، وهذا معلم يجعل الحاج يدرك عملياً ما يريده الله تعالى منه فيرى إحاطته تعالى بما يصدر منه من فعل أو قول.

ذكر الله تعالى في الحج

أعطى القرآن الكريم معنىً عظيماً ومضموناً كبيراً لذكر الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ

(١) عوالي اللئالي ج ٤ ص ٣٥.

فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَاسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾﴾(البقرة: ١٩٨-٢٠٠) الله هو المنعم المتفضل على الإنسان وينبغي له أن يذكر ربه كذكره لأبيه، وهذا جسر يوصل الإنسان إلى معنى الذكر الحقيقي لله تعالى، لذا عقّب القرآن على هذا المعنى بقوله: ﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾، أي أنّ الإنسان إذا لم يعي الذكر الحقيقي لله تعالى سيتجرد من إنسانيته، ومن أهداف الحج إرجاع الحاج إلى المعاني العظيمة للإنسانية ولا يكون ذلك إلاّ بالارتباط الوثيق بالباري تعالى.

الحج خير الدنيا والآخرة

يؤكد القرآن الكريم الارتباط الوثيق بالله تعالى مبيناً أنّ قسماً كبيراً من الناس همه الدنيا والارتباط بالمادة ولا يستشعر القيم المعنوية، التي ينبغي لها أن تتجذر في وجوده وترتحل معه إلى عالم الآخرة، ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ﴾(البقرة:٢٠٠) فمن ركّز كل جهوده على عالم المادة يمكنه بالحج أن يستشعر المعاني والقيم النبيلة بل يمكنه أن يجذرها في شخصيته، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾(البقرة:٢٠١) أي أنّ قسماً من الناس يرتبط بالدنيا كطريق يوصله إلى الآخرة، فيخاف من الله تعالى، فهو القادر على إعطائه الخير في عالمي الدنيا والآخرة.

الحج في فكر الأئمة عليهم السلام

بينت طائفة من الروايات أنّ الحاج يحصل على خير الدنيا والآخرة، فيوسع له

رزقه في الدنيا، ويُغدِق عليه من الخير في عالم الآخرة، ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ أي أنّ له خوف وخشية من العذاب في الآخرة، وهذا ما ظهر على أئمة أهل البيت عليهم السلام في أدائهم لنسك الحج، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾(البقرة:٢٠٢).

هذه معالم الحج التي أكّد الأئمة من أهل البيت عليهم السلام عليها تجسيداً لآي القرآن الكريم، ومشياً على سيرة جدهم المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

الجمعة: ١٢/ ١١/ ١٤٢٨ هـ

آداب الحج المبرور

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾(الحج: ٢٧) صدق الله العلي العظيم.

وقال نبينا ﷺ «الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة، قيل يا رسول الله وما بر الحج؟ قال طيب الكلام وإطعام الطعام»[١]

آداب الحج

الحج فريضة إلهية عظيمة، بين العلماء أحكامها الفقهية بنحو مسهب وكثيراً من أسرارها وآثارها الوضعية، وهناك كثير من الأسرار الأخرى، ونريد أن نوضح بعض آداب الحج قبل السفر وفي أثنائه كي يصبح مقبولاً مؤثراً.

إنّ الآداب لابد أن تراعى في كل العبادات بل في كل حركة وسكون للمرء كي يقترب من الله تعالى.

الأول: الإخلاص

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(البينة: ٥) ومعناه تجريد النية عن كل ما سوى الله تعالى بأن يكون الهدف من الإتيان بالعمل طلب رضا الحق تعالى والوصول إليه، وليس لديه محرك وباعث وغاية غير الله تعالى، فإنْ رأى أنه يحج لهدف

(١) مستدرك الوسائل ج٨ ص ٦٢.

آخر كقول الناس إنه كثير الحج أو كان هدفه الرفقة بحيث لو لم يحصل عليها لما أدى الحج، فالباعث والمحرك له غير طلب مرضاة الله تعالى، وبهذا الفارق يتبين المخلص من غيره، فالإخلاص حقيقته تجريد النية لله تعالى، وترك ما سواه، ولا يختص بالحج بل يشمل كل العبادات والأعمال التي يريد الإنسان أن تكون مقربة لله تعالى.

الثاني: التوبة

قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾(النور:٣١) ومعناها الرجوع إلى الله تعالى بالإقلاع عن الذنوب والمعاصي التي لا ترضي الحق تعالى كالكذب والغيبة والنميمة وأكل أموال الناس بغير حق، إنّ بعض الناس يصدر منه أكثر من ذنب، وبعضهم يصدر منه ذنب واحد أو اثنان وقد لا يستطيع الخلاص منها ويرى صعوبة ترك الذنب وإذا أراد أن يكون حجه مؤثراً مبروراً لابد أن يقلع عن الذنب أو عن الذنوب التي يصعب عليه الخلاص منها، وإذا أقلع عنها وتاب أقبل على الله تعالى، وعندئذ يقبل الله تعالى توبته، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾(الشورى:٢٥) ويوفق للأعمال الصالحة بنحو عام وللحج المبرور بنحو خاص، فتكون أعماله مقبولة إذا كانت توبته نصوحة، أما إذا أردف الطاعة بالمعصية فإنّ طاعته باهتة وقد لا تقبل، قال تعالى:﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٢٧) والتقي هو الذي لا يصدر الذنب عنه بعد أن تاب منه، فتكون أعماله مؤثرة على نفسه.

الثالث: معرفة عظمة العبادة التي يأتي بها

إنّ الحاج إذا أراد أن يؤدي الحج وأن يقبل بكله عليه أن يرى أهميته ليكون جاداً في أدائه، وكي تتضح هذه الفكرة نعطي مثالاً، إننا إذا رأينا شخصية كبيرة وتعرفنا عليها من ناحية علمية أو أدبية أو اجتماعية وأنّ صاحب الشخصية وجيه، عظيم بتأثيره محبوب في مجتمعه لأنه سخر كل ما لديه من إمكانات في خدمة المجتمع، عندئذ

نقدره ونحترمه لوجاهته أو لعلمه، ونقبل عليه لمعرفتنا به، والحج كذلك، فمن لم يعرف عظمة مناسكه فإنّ إقباله عليه بسيطاً وباهتاً، أما إذا تعرف عليه زاد إقباله منه، ويتحقق ذلك بنحوين:

الأول: بإدراك التأثير الكبير للعبادة الذي يجعل الإنسان يقبل بكله عليها فيأتي بها، إنّ الحاج إذا تعرف على عظمة الحج وشعائره التي يأتي بها وأدرك أنها محلاً لرضا الله تعالى، وأنها تختلف عن سائر العبادات رغم كونها مقربة إلى الله تعالى غير أنّ الحج له خصائص وحكم إذا التفت العبد إليها أدرك عظمتها وأقبل بكله عليها.

الثاني: إنه محل لرضا الله تعالى، وموئل أنبيائه وخاصته تعالى، وقد بينت الروايات حج إبراهيم وحج موسى وحج الأنبياء عليهم السلام عندما جاءوا إلى هذه الأماكن مقبلين على هذه المناسك بخضوع وخشوع إلى الله تعالى بكل وجودهم، ومن التفت إلى هذه الآداب وعرف عظمة تلكم الشعائر والمناسك التي يؤديها أقبل عليها بتوجه وإخلاص، أما من لم يعرف ذلك ولم يعرف عظمة ما يؤديه فإنّ إقباله عليه بسيطاً.

الرابع: الاهتمام والاشتغال بالحج

وذلك بجعل الهم واحداً بتلك الفريضة فحسب في أثناء أدائها، فلا يُشغل قلبه بغيرها، إنّ قلب الإنسان قد يشتغل بأشياء كثيرة في آنٍ واحد، وهناك فارق جوهري وأساسي بين من يشتغل بأمر واحد وبين من يشتغل بأمور كثيرة، وفي حديث المعراج: «يا أحمد اجعل همك هماً واحداً»[1] أي إذا كنت تريد شيئاً فرّغ قلبك عما سواه، واجعل توجهك إليه وحده كي يكون أداءك مميزاً، وتحرز قصب السبق فيه وتأتي بالرتبة العليا، إنّ الإنسان لا يأتي بالرتبة العليا في الشيء إلاّ إذا فرّغ قلبه عما سواه وجعل توجهه منحصراً به، وبهذا الاهتمام والتوجه الجم يأتي بالعمل بنحو أعظم، إذن لابد من إخلاء

(١) بحار الأنوار ج ٧٤ ص ٢٩.

القلب من الشواغل، فمن حج مشتغلاً بتجارته ولم يفرغ قلبه أو كان همه لأولاده وأمواله التي تركها فلن يستطيع أن يأتي بتلك المرتبة العالية في أدائه لتلك العبادة، فإنّ القلب إذا اشتغل بأمور متعددة صعب على المرء الإتيان بالعمل بالدرجة المثلى بل يكون إتيانه منخفض الرتبة، إنّ علينا أن نلتفت إلى هذا الأدب بجعل الهم هماً واحداً في أداء العبادة وإفراغ القلب من الشواغل التي تأخذ حيزاً فلا يتفرغ لتلك العبادة التي يريد أن يأتي بها.

الخامس: أن يكون زاده حلالاً

إنّ من واجب الإنسان أن يحصل على المال الحلال وأن ينفقه في الحل، أي يكسب ماله من حله وينفقه في حله، ليطيب مطعمه ومشربه، عندئذ يجد تأثيراً ملموساً على عبادته فتكون مؤثرة، والسبب يعود إلى حِلِّ أمواله، ولا ينبغي أن يصرف الأموال الحرام التي حصّلها في الحج، فإنّ حجه لا يقبل بسبب صرف مال الغير وأخذه اغتصاباً أو حيلة أو خدعة، فمن احتال على بعض البسطاء فأخذ أموالهم وذهب إلى الحج أو الزيارة وأنفق الأموال في أمور محللة، فعمله غير مقبول بل يظهر من الروايات أنه يحسب لصاحب المال أي يكون العمل بالمال الحرام في الحلال خسران للعمل ومشقة وعمله ليس له إنما لصاحب المال الذي اختلس منه أو الذي خُدع فأخذت أمواله، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من شرف الرجل أن يطيب زاده إذا خرج في سفره»[1] أي أنّ تميز الحاج في الرتبة يرتبط بطيب الزاد، فالشريف هو المميز في الرتبة له رتبة سنية تميزه عن غيره وارتفاع الرتبة شرف للمرء، فشريف القوم هو المقدم فيهم، ويتحقق التميز بصرف الأموال الطيبة في أداء هذه العبادة العظيمة غير أنّ بعض الناس يريد فعل الخير، غير ملتفت بأنّ أمواله جائية من الحرام أو فيها شبهة، والنتيجة بدل أن يرتفع رتبة ويكون شريفاً مميزاً في أدائه للعمل تنخفض رتبته، ويكون عمله على عكس ما أراد.

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٤٢٣.

السادس: الإنفاق في الحج

أكدت الروايات على الكرم والجود والإنفاق بنحو عام وفي الحج بنحو خاص، إنّ الكريم له ميزة عند الله تعالى وهناك رواية أمر النبي ﷺ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يضرب أعناق بعض المشركين الذين تعاهدوا على قتله بعد أن أسرهم ولما ضرب أعناق بعضهم أمره جبرائيل أن يقف فسأل الأسير النبي ﷺ عن السبب، فأجابه أنّ الله تعالى أمره بذلك لأنه كريم، والكريم لا يرضى الله تعالى بقتله ويقوده كرمه إلى الخير، وكرم الرجل هنا أحياه وأرشده إلى الإسلام، فالتفت إلى رسول الله ﷺ، وقال أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنك يا محمد رسول الله ﷺ، فأسلم، فالكرم والجود أوصلاه إلى دين الحق، وحفظ النفس والنجاة في الآخرة، إنّ البذل والإنفاق والعطاء في سبيل الله تعالى يوصل إلى الخير في عالمي الدنيا والآخرة وننبه هاهنا على أهمية الإنفاق على الأقارب والأرحام والجيران إذا رآهم فقراء يحتاجون، فإنّ إنفاقه عليهم سيكون تأثيره كبيراً، وكذا الإنفاق في الحج، فمن كان معه رفقة بادر للإنفاق عليهم، فإنْ نزلوا محلاً كان السابق في تقديم الطعام والشراب إليهم، فالدرهم بسبعمائة درهم في الحج، يتضاعف سبعمائة مرة.

السابع: الأخلاق الكريمة في سفر الحج

أوضح النبي ﷺ أنّ الحج المبرور يتحقق بأمرين:

الأول: إطعام الطعام.

الثاني: الخلق الكريم بالكلمة الطيبة.

وذلك أنّ سفر الحج فيه مشقة وعنت إذْ أنّ السفر بنحو عام كذلك، والسفر في الحج فيه عنت ومشقة تفوق السفر في غيره، فقد يغلق الطريق ويحتاج الحاج إلى الانتظار طويلاً أو قد يُتعدى على شيء للحاج فإن تأثر سريعاً وبدت ردود أفعاله غير متناسبة

مع الحج، والتعبير الطيب لمن صادف مشقة هو الدعاء بالخير لمن أساء إليه أو ضايقه، وبذلك ينسجم فعله مع أدائه لمناسك الحج، قال رسول الله ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلاّ الجنة» ولما سُئل عن بر الحج؟ أجاب ﷺ: «طيب الكلام وإطعام الطعام» أي أن تكـون الكلمـة طيبة، لما لها من التأثير الكبير على كل شيء، وأكّد ﷺ على طيب الكلام في الحج، وعلى إطعام الطعام -أي الكرم- فحسن الخلق ولقاء الناس ببشاشة في المحيا عند لقاء الآخرين، غير أن بعض الناس إذا أصابته مشكلة بدا عبوساً قمطريراً على عكس ما أراده النبي ﷺ، إنّ الحاج حري به أن يكون على خلق كريم طلق المحيا - أي بشره في وجهه- وإنْ أصابته مشكلة فحزنه في قلبه.

الجمعة ٦- ١١ - ١٤٣١ هـ

أسرار الحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ (الصافات:١٠٣-١٠٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ (الذاريات:٥٦-٥٨) صدق الله العلي العظيم.

غريزة المعرفة :

خلق الله الإنسان وفطره على حب المعرفة، فهو بطبيعته يريد أن يتعرف على أسرار الأشياء، لا يقنع دون أن يتعرف على السبب في كل مفردة من المفردات؛ لأنّ الله تعالى أودع هذه الفطرة فيه منذ أن كان فطيماً إلى آخر مرحلة في عمره.. يحاول جاداً ويكدح جاهداً للتعرف على أسرار الأشياء، إلاّ أنّ هذه الغريزة وحب الإطلاع والمعرفة التي أُودعت في كنه وجوده، جعلته يبحث عن كل شيءٍ للتعرف عليه وإدراك أسراره، غير أنّ قدراته المحدودة لا تُتيح له الوصول إلى كل ما يريده، إنّ الله تعالى فتح له نافذة للتعرف على بعض الحكم والمصالح المودعة في الأشياء، وباباً للوصول إلى أسرار وعلل بعضها الآخر، وأُخفي عنه الكثير منها، فالكثير لا يستطيع عقل الإنسان إدراكه، حتى مع بحثه العلمي الواسع والكبير كما أشار إلى ذلك الذكر الحكيم ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾﴾ (الإسراء:٨٥) ومهما تمتع به من علم فإنّه يبقى قليلا، لذا فإنّ العلماء كلما ازدادوا علماً أحسوا بجهلهم.

والحق تعالى أمر المصطفى ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾(طه:١١٤)، وفي الدعاء «اللهم أرنا الحقائق كما هي»[1] وإذا كان النبي ﷺ يريد أن يتعرف على الأشياء كما هي- اعتقادنا أنّ النبي ﷺ في إحاطته بالعلم والمعرفة لا يدانيه أحد وكذلك الأئمة من أهل البيت عليهم السلام - فقد أوجب الله على الإنسان أن يكون عابداً ليصل إلى معرفته، ودعاه إلى البحث للتعرف عليه وإدراك أنه المنعم الحقيقي لينصاع لأوامره ويطيعه.

عجز العقل البشري عن التعرف على أسرار العبادات

بيد أن عقل الإنسان حتى بعد أن يتعرف على الله يبقى على فطرته يريد أن يتعرف على أسرار الأشياء، حتى بعد وضوح بعض المفردات له لن يرتوي ولن يصل إلى درجة الاطمئنان، إلا بالوصول إلى مرتبة عالية من العلم أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾(الأنعام:٧٥).

إنّ عقولنا قد تتعرف على أسرار بعض الأشياء كالصلاة نُدرك بعض أسرارها، وليس كل الأسرار والحكم المترتبة على تشريعها، مع أن الله تعالى قد أبان بعض أسرارها ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾(العنكبوت:٤٥) إنها تجعل الإنسان سائراً في صراط عبودية الله، وتعطيه ثواباً جزيلاً؛ لأنّه خضع فيها لله وعبّر عن عبوديته له، غير أنّ هناك كثيراً من المفردات لا نعرف أسراره، كعدد الصلوات -خمس صلوات كتبهن الله في اليوم والليلة- ولا نعرف لماذا جعل الله الصلاة بهذه الأعداد المحددة؟ -الصبح ركعتان، الظهر أربع، العصر، المغرب ثلاث والعشاء أربع- مهما بلغ بنا الفكر، وحاولنا أن نتعرف على أسرار هذه الأعداد، لن نعرف ذلك، وأمره تعالى لنا بالحج من هذا القبيل ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾(آل عمران:٩٧)، فمع وجود منافع وحكم ومصالح

(١) عوالي اللآلي ج٤ ص ١٣٢.

مترتبة على الحج في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾(الحج:٢٧-٢٨) لكن الكثير من المفردات لن نعرف أسرارها؛ بل نتعرف على بعض الحكم والمصالح ولا نستطيع أن نُدرك كُنه العلل والأسرار التي رتّب الله عليها أحكام هذه الفريضة.

أسرار الأمر بالحج

أشار أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة رائعة في نهج البلاغة بأنّ إيجاب الحج وحضّ الناس عليه لتعبد العقل فالحق تعالى يُريد أن يعبد الإنسان في مناحٍ متعددةٍ، هناك عبادة للجسد؛ أن تخضع بجسدك لله، وهناك عبادة للنفس أن تكون نفسك خاضعة لعبادته تعالى، وهناك عبادة للعقل الذي هو من أعظم ما أودع في الإنسان، إنه الطاقة الهائلة والخلاقة العظيمة يتعرف به الإنسان على الأشياء، هذه القدرة الهائلة الكبيرة للإنسان يُريد الله تعالى أن تكون عابدة له، وعبادة العقل لله لا تتم إلا بالوصول إلى رتبة كمالية، أشارت طائفة من الروايات في أصول الكافي إلى أنّ الله تعالى يُريد من عقل الإنسان أن يكون عابداً له، وأن ذلك هو منتهى الكمال إلاّ أنّ عبادة العقل تحتاج إلى معرفة، ولا تتم العبادة للعقل دون المعرفة التراتبية؛ أي بالبناء على الأُسس الموصلة إلى المعرفة ومن ثمّ الإيمان بأن العقل لن يستطيع أن يدرك كُنه الأشياء، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾(البقرة:١١١) في البدء لابد أن يكون لك دليل حجة على ما تؤمن به، وبعد أن تتم لديك الحجة ويثبت إليك الحق بالبرهان، لا تحتاج إلى دليل للعقائد والأمور الغيبية الواردة في الشريعة. هذه مرتبة أخرى مترتبة على الأولى تسمى المعرفة التراتبية:

الأولى : أن يقيم الإنسان الأدلة والبراهين على وجود الله وعلى وجوب طاعته والانصياع لأوامره، وبعد ذلك يُؤمن أن عقله محدود، لا يمكنه إدراك أسرار كل مفردة من المفردات التي عبّد الله تعالى الإنسان بها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾(الذاريات:٥٦)، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «خرج الحسين بن علي عليه السلام

ذات يوم على أصحابه فقال بعد الحمد لله جل وعز، والصلاة على محمد رسوله ﷺ: يا أيها الناس إن الله والله ما خلق العباد إلا ليعرفوه»[1] كيف تعبد رباً لا تعرفه؟!.

الثانية: بعد أن تتعرف على الله تتمكن حينئذ أن تتعرف على بعض المفردات العبادية التي عبّدك بها، غير أن بعضها الآخر لا يمكن معرفته؛ كالعبودية للعقل - أن يكون العقل عابداً لله كالجسد خاضعاً له تعالى- وهكذا النفس خاضعة عابدة له تعالى، إنّ عبودية العقل من الحكم والمصالح المترتبة على حج البيت؛ أي أنّ الله تعالى أراد من الإنسان أن يجعل عقله كنفسه وجسده وأفكاره خاضعة، وعابدة له تعالى، ذلك هو التسليم بالمصطلح الشرعي أن تسلّم بحقانية الأشياء التي لا يدركها عقلك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أسلما لله، إذْ كيف يُؤمن من له ولدٌ وحيد جاءه بعد فترة من الزمن فـ«لما بلغ من الكبر عتيا» أُمر بذبحه لله تعالى، إنه التعبد العقلي، إنّ الله تعالى رفع هذا الابتلاء عن إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾(الصافات:١٠٧) لكنه انصاع لأمر الله، ولم يعترض عليه.

(١) في مستدرك البحار ج ١ ص ١٧٧.

مظاهر عبودية اللّه في الحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾(الحج:٢٧). صدق الله العلي العظيم.

الطريق الصحيح للعبودية

الحج عبادة عظيمة تترتب عليها فوائد متعددة، من أهمها إرجاع الإنسان إلى فطرته، وقد ألمحنا فيما تقدم إلى هذا الأمر الهام في حياة الإنسان، باعتبار أنّ طبيعة الإنسان تتأثر بالظروف القسرية المختلفة، فتحرف مسار الإنسان عن مسار التوحيد الخالص لله تعالى، وتمركز اهتمامه في مجال لا يريده الحق تعالى، وقد تقصر نظره على المجال المادي فقط، فتوجهه لتصويب جهده في مجال القبيلة أو الفئة الخاصة -الانتماء الضيق-، وبالتالي لا يتعرف على ما يريده الله تعالى من عباده حين المسير إليه، غير أنه بالرجوع إلى الفطرة يعي البرمجة العامة لحياته ويسير في صراط عبودية الحق تعالى، فيجعل الميزان بينه وبين أخيه الإنسان ما أفاده الله تعالى في الذكر الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣)، لا يفرق السائر على عبودية الحق بين من ينتمي إلى فئته ومن لا ينتمي إليها، فمن ينتمي إلى قبيلته ومن لا ينتمي إليها سيان والميزان عنده الحق وحده، من خلال ذلك تتمحور حياة العابد لله في نبذه أقرب الناس إليه إذا لم يكن سائراً على صراط العبودية، وتقريبه أبعد الناس عنه إذا كان يحرم ما حرمه الله ويحل ما أحله، ذلك الدين الحق، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

الْحِسَابِ﴾(آل عمران:١٩).

معالم العبودية في الحج

الحج يعيد الحاج إلى صراط عبودية الله من خلال معالم متعددة:

الأول: الوحدة

إنّ معلم الوحدة قد يكون بين من ينتمي إلى التوحيد، بين المسلم وأخيه المسلم، وقد تكون دائرته أوسع، فيشمل المسلم وغيره إذا كان لا يضمر العداء للمسلمين، وإنما ضل عن الإسلام لعدم إطلاعه على مبادئه الحقة وعدم معرفته بتشريعاته السامية، الحج لا يوحد بين المسلم وأخيه المسلم فقط، بل، يوحد بين الإنسان وأخيه الإنسان السائر على طريق الفطرة، المبتغي للوصول إلى الحق، الهادف للارتقاء إلى عالم القيم دون من أخلد إلى الأرض واتبع هواه، وضل عن الصراط السوي.

الثاني: التذكر :

قد يصاب الإنسان بالرين على قلبه نتيجة للذنوب والأهواء ويحتاج إلى التذكير، الذي يتم عبر شعائر مختلفة في أماكن متعددة، كل منها كفيل بجعله يبصر طريق الحق، والحج له الدور الأكبر في ذلك، فمنذ أن يرتدي الحاج ثوبي الإحرام يبدأ التفكير في الرجوع إلى الله تعالى الذي تدعوه فطرته إليه، ذلك أنّ ارتداء الثوبين يحقق أمرين هامين:

الأول: المساواة بينه وبين غيره، فلا فارق بين إنسان وآخر، بعد ارتداء الزي الموحد، الجميع سواسية لباسهم واحد، وهو ما يحقق الوحدة في نفوس الناس، لذلك، نجد أصحاب المهن يرتدون زيّاً موحداً لإشعار جميع من ينتمي إلى المهنة بانضوائه تحت شعار واحد.

الثاني: استشعار المحرم باستمرار بأنه سينتقل من عالم الفناء إلى عالم الخلود

وعليه محاسبة نفسه وتذكُّر مبدأه، والتعرف على إجابة تساؤلات متعددة: (من أين جاء؟) (إلى أين سينتهي؟) (ماذا عليه أن يفعل؟)، بالإضافة إلى أنّ ارتداءه ثوبي الإحرام يذكره بالكفن الذي سيرتديه وسيوارى به تحت التراب في قبره، فيتذكر بأنه لا فرق بينه وبين أخيه الإنسان، وأنّ عوامل الاختلاف مهما تعددت فإنها طارئة عارضة على حياته وهي وإن صبغت وجوده بعوارضها المحدودة، غير أنها لا تؤطره بحدودها لكونه يتذكر بأنّ مصيره إلى الله تعالى فيحاسب نفسه على جميع ما صدر منها، وهو يعلم متعجباً عندما ينظر إلى صحيفة أعماله فيجد ما قدمه حاضراً بين يديه، لم يغادر كتابه شيئاً منه، قال تعالى: ﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾(الكهف:٤٩)، يعيد الحج الطابع الفطري للإنسان فهو يكدح في الدنيا برهة محددة -منذ ولادته إلى يوم موته- إلاّ أنّ عليه أن يتذكر ذلك تذكرة مُبْصرة له ليرى أنّ أعماله الصادرة منه هل تنطبق عليها موازين الشرع؟ وهل هي لله تعالى، أم لنفسه أو لفئة خاصة، فلم يُرد بها وجه الله تعالى؟

الثالث: إعادة التوازن في شخصية الإنسان باعتبار أنّ حياته اصطبغت بمظاهر الكبرياء والارتفاع عن الخلق الذين عاش وإياهم وتفاعل معهم، لكنه رأى لنفسه امتيازات عنهم، إنّ الحج يعيد التوازن في شخصيته على أساس أنّ جميع الامتيازات التي حصل عليها تعود إلى الله تعالى وليست لذاته، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾(النحل:٥٣)، لا ينبغي للإنسان أن يتكبر على أخيه الإنسان بل عليه أن يتواضع، وإنْ حصل على ما لم يحصل عليه الآخرون من امتيازات اقتضتها الحكمة الإلهية في معيشته أو علمه أو في موهبته، إنّ بعض من تصطبغ حياته بامتيازات يرى بأنّ الدرجة التي تبوأها في سلم وظيفته أو مكانته الاجتماعية التي وصل إليها نتيجةً لبعض الظروف أو القدرة المادية التي جعلت بعض الناس يأتمر بأمره موجباً له لتحقير الآخرين وعدم النظر لهم، من هنا اهتم أئمة الدين عليهم السلام بتذكير الناس بالتواضع، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الحمد لله الذي لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه وجعلهما حمىً وحرماً على غيره واصطفاهما

لجلاله»[1]، ربط ع بين الكبرياء لله وبين الحج، وذكّر بأنّ الحاج عبدٌ، أنعم عليه الحق تعالى وليس له أن يتكبر على من سواه فيرى نفسه مركزاً للكون وأنّ على الجميع أن يدور في فلكه بل عليه أن يرى الحق أحق بالإتباع، من هنا ندرك السر في جعل الحج أُطر بأحكام متعددة، كل منها ليس لأحد أن يتعدى عليه قائلاً هذا حكم ليس بصالح، بل على الجميع أن يخضع لعبودية الحق تعالى، ويمتثل أوامره ويسير في صراطه الذي دعا الناس إليه وأمرهم بالدعاء ليكونوا من عباده، ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ*صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾(الفاتحة:٦،٧)، هذا معلم جِدُّ هام، ينبغي للإنسان أن يدخره ويتعرف عليه فمن سار في صراط عبودية الله تعالى لابد أن يتواضع فلا يرى لنفسه امتيازاً عن سائر الخلق، ولا يأمر أو ينهى بخلاف ما يريده الله تعالى، ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾(الأنعام:١٥٣).

الثالث: التضحية :

يذكرنا الحج بأنّ أقرب ما يرتبط به من الناس يمكن أن يضحى به في سبيل الحق تعالى، ونلمس هذا جلياً في تضحية إبراهيم بابنه، إذ قدمه قرباناً في سبيل الحق تعالى، لئلا يؤثر أي هوىً على الله تعالى فلا يشده ولا يربطه أو يفصله شيء عن الله تعالى، إذْ أنّ ذبح الهدي ذبح للهوى والفداء بالكبش رمز لتقديم أغلى ما يملكه الإنسان في سبيل الله، فالكبش بدل عن الابن الذي يرتبط به الإنسان لكونه استمراراً لوجوده، قال تعالى:﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾(الصافات:١٠٧) يتذكر الإنسان بأنّ الخليل عليه السلام أراد أن يضحي بابنه ثمّ أبدله الله تعالى بالكبش، والمعنى رمزي يؤكد أهمية كون الإنسان على أُهبة الاستعداد لتقديم أقرب الناس إليه في سبيل الله تعالى، وقد أكّد أئمة أهل البيت عليهم السلام والمقتدون بهم على ذلك، قالت السيدة زينب عليها السلام عندما استشهد الإمام الحسين

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص١٣٧.

عليه السلام: «إلهي! تقبل منّا هذا القربان»[1]، لكونها قربت أغلى ما تمتلكه في سبيله تعالى.

هذه معالم كل واحد منها يشد الإنسان بالحق تعالى ويربطه به ويذكره بمصيره الأخروي للوقوف بين يديه والزلفى إليه أو الخروج من الدنيا مذموماً مدحوراً.

الجمعة: ٢٣/ ١١/ ١٤٢٧ هـ

(١) الاخلاق الحسينية: جعفر البياتي ص ٤٥.

آثار الحج ومرتبته بين العبادات

قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾(الحج:٢٧-٢٨)، صدق الله العلي العظيم.

الحج من أفضل العبادات عند الله تعالى، وله خصائص نستعرض منها ثلاثاً:

الأولى: أفضل العبادات

بالمقارنة بين الحج وسائر أعمال البر يتضح فضل الحج، وقد أفصحت عن ذلك الروايات عندما سُئل الأئمة من أهل البيت عليهم السلام عن أفضلية الحج مع بعض الأعمال التي أكد عليها القرآن الكريم، كالصدقة، والعتق في سبيل الله تعالى، وسائر أعمال البر، وأجاب الأئمة من أهل البيت عليهم السلام بأنّ الحج أفضل من كل ذلك، وأنّه لا يعدله شيء.

الثانية: الآثار الوضعية المترتبة على الحج

وهي كثيرة منها الغنى، فقد أشارت الروايات بأنّ من أراد أن يستغني مادياً فليدمن الحج، فإنّ الله تعالى يُوسع في رزقه.

الثالثة: الحج وولاية أهل البيت عليهم السلام

هناك ارتباط وثيق بين الحج والولاية، وسنستعرض هذه الأمور الثلاثة بشيء من

التفصيل والشرح.

الأولى: أفضل العبادات

روايات كثيرة وردت فيها الموازنة بين الحج وغيره من أعمال البر نذكر أنموذجين منها.

الأول: الموازنة بين الحج والصدقة

وقد أوضحت الروايات بأنّ الحج يحوي حيثية خاصة لا تُوجد في الصدقة، قال الإمام الصادق عليه السلام عندما سُئل: أيهما أفضل الحج أم الصدقة؟ قال عليه السلام: «ما أحسن الصدقة» ثلاث مرات، قال الراوي: قلتُ: أجل – أي: إنّ الصدقة أمر حسن– فأيهما أفضل، قال الإمام عليه السلام: «ما يمنع أحدكم من أن يحج ويتصدق» يحض عليه السلام السائل على أن لا يكتفي بأحد الأمرين، بل يتصدق ويحج، والروايات تؤكد على ذلك مبينة بأنّ المؤمن لا ينبغي أن يكتفي بأحد أبواب الخير، ويعمل خيراً في جهة واحدة فقط، بل يُعدد فعل الخير؛ لأنه لا يعلم أياً من أبواب الخير يؤثر تأثيراً كبيراً على حياته وعلى عالم المعنى في وجوده وذاته.

قال الراوي: قلتُ ما يبلغ ماله ذلك ولا يتسع – أي ليس لديه القدرة على الحج والتصدق– فقال عليه السلام: «إذا أراد أن ينفق عشرة دراهم في شيءٍ من سبب الحج أنفق خمسة، وتصدق بخمسة، أو قصّر في شيء من نفقته في الحج، فيجعل ما يحبس في الصدقة فإنّ له في ذلك أجراً» يحاول الإمام عليه السلام أن يربط السائل بالصدقة والحج؛ ولا يكتفي بالحج وحده، فقال السائل: قلتُ: هذا لو فعلناه لاستقام – الأمر أي: نحن لا نتمكن، ونريد أن تعين لنا أي العملين أفضل– فقال الإمام عليه السلام: (وأنّى له مثل الحج ؟» قالها ثلاث مرات – ثم عقب قائلاً– «إنّ العبد ليخرج من بيته فيُعطى قسماً» أي نصيباً أو سهماً «حتى إذا أتى المسجد الحرام طاف طواف الفريضة ثم عاد إلى

مقام إبراهيم عليه السلام فصلى ركعتين؛ فيأتيه ملك يقف على يساره، فإذا انصرف ضرب (الملك) بيده على كتفه فيقول: يا هذا أمّا ما مضى فقد غُفر لك، وأما ما يستقبل فَخذ»[١] أي أنّ الحاج يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

الثاني: الموازنة بين الحج والعتق في سبيل الله تعالى

في الماضي هناك رقيق، يمكن عتقهم، أما في زماننا فلا يوجد عتق رقاب، غير أنّ الإنسان يتمكن أن يفعل ذلك بعتق شخصٍ في حالة متدنية من الوضع الاقتصادي برفع مستواه من العطاء المادي، فقد وردت روايات متعددة تحض المؤمن على العتق في سبيل الله تعالى، ومد يد المساعدة لتحرير ذلك الإنسان ابتغاء ما عند الله تعالى، وفي كثير من الروايات تأكيد كبير على أهمية العتق في سبيل الله تعالى، فعندما سأل الرواة الأئمة من أهل البيت عليهم السلام عن الأفضلية بين الحج والعتق في سبيل الله فضلوا الحج، فعن معاوية بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (قلت له: حجة أفضل أو عتق رقبة؟ قال: حجة أفضل، قلت: فثنتين؟ قال: فحجة أفضل، قال معاوية: فلم أزل أزيد ويقول: حجة أفضل حتى بلغت ثلاثين رقبة، فقال: حجة أفضل)[٢]، وفي رواية أخرى: «الحج أفضل من عتق سبعين رقبة في سبيل الله» قال الراوي: ما يعدل الحج شيء؟ فقال الإمام عليه السلام: «ما يعدله شيء، والدرهم في الحج أفضل من ألفي ألف فيما سواه في سبيل الله»[٣] أي: أنّ الإمام عليه السلام يفصح بأنّ الحج لا يعدله شيئ.

الثانية: الآثار الوضعية المترتبة على الحج

وهي متعددة نستعرض بعضها:

---

(١) وسائل الشيعة١١ج وجوب الحج وشرائطه ب ٤٢ ص ١١٥.
(٢) وسائل الشيعة ١١ج كتاب الحج ب٤٣ص ١٢٢.
(٣) وسائل الشيعة ١١ج وجوب الحج وشرائطه ب٤١ ص ١١٧.

منها: الوصول إلى جوار الله تعالى

الحج من أفضل أنواع التجارة الرابحة مع الله تعالى، وهو بمثابة سوق لا خسارة فيها، ورد في الرواية: «الحج والعمرة سوقان من أسواق الآخرة، العامل فيهما في جوار الله» فمن دخل السوق العادي يمكن أن يكون في جوار الله تعالى فيربح، ويمكن أن يكون في جوار الشيطان فيخسر، لعدم سيره على طبق الموازين الشرعية، أما إذا ذهب إلى السوق الإلهي واتجر مع الله تعالى، فإنّ ما يحصل عليه هو الكون في جوار الله تعالى.

ثم دفع الإمام عليه السلام دخلاً مقدراً أي دفع شبهة قد ترد فكر الإنسان، وهي أنّ الإنسان قد يذهب إلى الحج، فيأتيه الموت فلا يكمل حجه، فقال الإمام عليه السلام: «إنْ أدرك ما يأمل غفر الله له» وخرج من الدنيا طاهراً مطهراً، واستقبل الآخرة بغفران الذنوب وستر العيوب والبشرى بالجنة «وإنْ قصّر به أجله وقع أجره على الله عزّ وجلّ»[1]، فالحج يُقرب المؤمن إلى الله تعالى بمجرد أن يشرع فيه.

ومنها: السعة في الرزق

لقد أكدت الروايات على أنّ من وجد ضيقاً في رزقه فليُدمن الحج فإنّ الله تعالى يُوسع في رزقه، قال إمامنا زين العابدين عليه السلام: «حجوا واعتمروا تَصُح أبدانكم وتَتسِع أرزاقكم» هذان أثران عظيمان يترتبان على الحج، إنّ الإنسان قد يبذل مالاً كثيراً ليحصل على الصحة في بدنه، ناسٍ للطرق الأخرى التي يتمكن من خلالها أن يحصل على الصحة، والروايات أشارت أنّ من أهم تلك الطرق وأعظمها الحج، لأنّ الله تعالى جعل الحاج معافاً في بدنه، موسعاً في رزقه، قال الإمام عليه السلام: «وتُكفوْن مؤونات عيالاتكم» والمؤنة ليست في الرزق فقط، لأنّ الإنسان قد يحتاج أن يؤمن بعض الأمور لعياله، فلا يستطيع حتى مع توافر المال لديه، لكنه إذا أدمن الحج رفع

(١) وسائل الشيعة ١١ج وجوب الحج وشرائطه ب ٣٨ ص ١٠١.

الله تعالى عنه العوائق وسهل له الأمور، فتحقق ما يحتاجه في نفسه وعياله، قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «الحاج مغفور له وموجوب له الجنة ومستأنف له العمل ومحفوظ في أهله وماله»[١]، فمن أراد أن يحفظ في أهله وماله عليه بالحج والعمرة، فإنهما يطردان الفقر عن الحاج والمعتمر، فيرى أسباب الرزق متفتحة له من الله تعالى، قال إمامنا الباقر عليه السلام: «ثلاثة مع ثوابهنّ في الآخرة: الحج ينفي الفقر، والصدقة تدفع البلية، والبِرُّ يزيد في العُمر»[٢]، والرواية لا تتحدث عما يحصل عليه المرء من الثواب في عالم الآخرة فحسب، بل عن الأثر الذي يناله الحاج في الدنيا، وعن جابر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أمعَر الحاج قط»، قيل لجابر: وما معنى قوله: «ما الإمعار»؟ قال جابر: أي ما افتقر الحاج[٣]. فمن أدمن الحج لا يفتقر بل يتسع رزقه.

الثالثة: الحج وولاية أهل البيت عليهم السلام

أكدت بعض الروايات على مضاعفة الثواب الذي يحصل عليه الحاج إذا كان محباً عارفاً بحق أهل البيت عليهم السلام، وأنّه يكتمل ما نقص من حجه، ويتم ما قَصّر فيه من الحج، فيصبح لحجه طعم معنوي خاص، وتميز فائق، قال الإمام الصادق عليه السلام: «من أتى الكعبة فعرف من حقنا وحرمتنا» أي عرف حق المعصوم حسبما فُسِّرَ في الروايات بأنّ الله تعالى افترض طاعته على العباد أما معرفة الحرمة لهم عليهم السلام فهو أن يعرف قداسة المعصوم فلا يصدر منه ما يوجب نقصاً لمقام أهل البيت عليهم السلام، بل يعتقد بأنهم ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأنبياء:٢٦-٢٧) لذا أكد الإمام الصادق عليه السلام على هذا المعنى في قوله: «من أتى الكعبة فعرف من حقنا وحرمتنا مثل الذي عرف من حقها وحرمتها لم يخرج من مكة إلا وقد

(١) وسائل الشيعة ١١ج وجوب الحج وشرائطه ب ١ ص ٩.
(٢) بحار الأنوار ٩٦ج ص ١٥.
(٣) مجمع الزوائد – الهيثمي: ٣ج باب فضل الحج والعمرة ص ٢٠٨.

غفر له ذنوبه وكفاه الله ما يهمه من أمر دنياه وآخرته»[1]، إنّ الحاج يطمع في الحصول على السعادة في الدنيا والرضوان في الآخرة، ولا يتاح ذلك له إلا إذا عَرف حق أهل البيت عليهم السلام.

الجمعة: ٢١/ ١١/ ١٤٢٦هـ

(١) بحار الأنوار ٩٦ج ص ٦٣.

الآثار المعنوية للحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

آثار الحج

بينت الروايات الواردة في الحج بعض الآثار المترتبة عليه، وهي كالتالي:

الأول: تصاغر الشيطان

قال ﷺ: «ما رُؤي الشيطان في يوم هو أصغر ولا ادحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة»[1]، والرواية تبين آثاراً طيبة منها: أنّ الحاج يصل إلى مرتبة في محاربته للشيطان يصبح الشيطان صغيراً أحقراً مغتاظاً، والتعابير تفصح عن أنّ الحاج وصل في عبوديته لله تعالى إلى السيطرة على الشيطان ببركات الحج، فالشيطان لن يستطيع السيطرة على الحاج، وذلك بتوفيق من الله تعالى ببركة الحج.

الثاني: تكفير الذنوب

إنّ الحج يمحو الذنوب الكبائر ويكفرها قال إمامنا الصادق عليه السلام: «أنّ من

(١) جامع أحاديث الشيعة للبروجردي ج١١ ص ٤٩٦.

الذنوب ما لا يكفره إلاّ الوقوف بعرفة»[١] هناك ذنوب تصدر من الإنسان لا تزول آثارها إلاّ بالحج والوقوف في عرفة، ومعنى ذلك أنّ للحج أثراً لا يوجد في غيره من العبادات.

الثالث: تعاظم الأجر

قال النبي ﷺ: «حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبرورة ليس لها جزاء إلا الجنة»[٢] والنبي ﷺ يبين معنيين:

الأول: أنّ الحج يترتب عليه من الثواب ما لو أنفق الإنسان جميع أمواله في سبيل الله تعالى لم يدرك ثواب الحج، فكل الدنيا وما فيها هي أقل في مرتبتها من الحج عند الله تعالى.

الثاني: أنّ الله تعالى جعل الأجر والثواب الدخول في جناته مع أوليائه أي أنّ الآثار المترتبة على الحج في الدنيا كالسعة في الرزق، والإنساء في الأجل، والخير الكثير وتوفيقات أخرى لا حدّ لها ليست هي الجزاء، بل الجزاء هو الجنة كما قال ﷺ: «الجزاء الجنة»، فالله تعالى ادخر للحاج دخول جنته.

الرابع: الوفادة على الله تعالى

قال النبي ﷺ: «الحجاج والعمار – الذين يعتمرون – وفد الله»، هم وفد وفدوا على الله تعالى قاصدين وجاءوا إليه زائرين ويترتب على هذه الزيارة للحق تعالى:

أولاً: قضاء الحوائج، فمن كانت لديه حاجة سأل الله تعالى حاجته أعطاه إياها،

(١) عوالي اللآلي ج ٤ ص ٣٣.
(٢) إحياء علوم الدين للغزالي ج ١ ص ٢٤٠.

«يعطيهم ما سألوا».

ثانياً: غفران الذنوب[١].

ثالثاً: استجابة الدعاء، «ويستجيب دعاءهم»[٢] ولهم أكثر من ذلك.

الخامس: شفاعة الحاج

الحاج له شفاعة في غيره، كمن يذهب لأحد الناس فيقدم له الطعام، ويحجم لا يأكل حتى تقضى حاجته، فَيُشَفَّع فيما جاء لأجله، الحاج يُشَفَّع لبعض المذنبين ويُشَفَّع في قضاء حوائج غيره عند الله تعالى، قال ﷺ: «وإنْ شفعوا إليه شفعهم»[٣].

السادس: فتح أبواب الخير للحاج

قال النبي ﷺ: «من أراد دنيا وآخرة فليؤم هذا البيت»[٤]، هناك وسائل لها أبلغ الأثر في تحقيق ما يُراد بعد الأخذ بالأسباب، منها ما أكدت عليها الروايات وبينت أنها موجبة للسعة في الرزق والتوفيق للطاعة، والبعد عن المعصية والوصول إلى أرقى وأعلى الدرجات كبر الوالدين، وصلة الرحم، والصدقة وكذلك الحج، فمن أراد الدنيا أي سعة الرزق والخير الكثير في الدنيا فعليه أن يكون من مدمني

(١) في كنز العمال للمتقي الهندي ج ٥ ص ٨: الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم.

(٢) مستدرك الوسائل ج ٨ ص ٣٨ : قال النبي ﷺ : الحجاج والعمار وفد الله، يعطيهم ما سألوا، ويستجيب دعاءهم، ويخلف نفقاتهم.

(٣) في وسائل الشيعة ج ١١ ص ٩٩: عن أبي عبد الله قال: الحاج والمعتمر وفد الله، إن سألوه أعطاهم، وإن دعوه أجابهم، وإن شفعوا شفعهم، وإن سكتوا ابتدأهم، ويعوضون بالدرهم ألف درهم.

(٤) في وسائل الشيعة ج ١١ ص ٥٨.

الحج ليوسع الله تعالى له في رزقه ويوفقه للطاعة، ومن أراد علو الدرجات في الآخرة فعليه بالحج.

السابع: القُرب من الجنة

قال الصادق عليه السلام «من حج حجة الإسلام فقد حلَّ عقدة من النار من عنقه»، حجة الإسلام واجبة ولها آثار منها أنّ من حج حجة الإسلام فلن يكون من الخالدين في النار بـل أنّ الله تعالى سيجعله من أهل الجنة، والتعبير الوارد عن الإمام عليه السلام إبانة لهذا المطلب، ثم قال عليه السلام: «ومن حج حجتين لم يزل في خير حتى يموت ومن حج ثلاث حجج متوالية ثم حج أو لم يحج فهو بمنزلة مدمن الحج»[1] أي أنّ الجنة لها درجات بعضها لا يصل إليها إلّا من حج أكثر من حجة، كمن حج ثلاثاً.

الثامن: الأمان من ضغطة القبر

ثم قال عليه السلام: «من حج أربع حجج لم تصبه ضغطة القبر أبداً»[2]، إنّ ضغطة القبر من العذاب الأليم ويصاب بها من اقترف بعض الذنوب، وهناك أعمال تخلص المرء من ضغطة القبر التي تصيب بعض المؤمنين لسوء خُلقه كما أشارت إلى ذلك بعض الروايات، فيتلافى سلبيات أعماله بالحج فلا تؤثر عليه ضغطة القبر إذا حج أربع حجات.

(١) في وسائل الشيعة ج ١١ ص ١٢٧.
(٢) في وسائل الشيعة ج ١١ ص ١٢٧.

التاسع: الوصول إلى مقام رفيع

وعنه عليه السلام: «لما حج موسى عليه السلام نزل عليه جبرئيل عليه السلام... فقال له موسى عليه السلام: يا جبرئيل ما لمن حج هذا البيت بنية صادقة ونفقة طيبة قال: فرجع إلى الله عز وجل فأوحى الله تعالى إليه: قل له: أجعله في الرفيق الأعلى مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً»[1]، إنّ الحج إذا اقترن بصدق النية وصفاء السريرة ترتب عليه الكثير من الآثار منها: التوفيق لعلو الدرجات والارتقاء في المقامات المعنوية فيصل الحاج إلى منازل الأنبياء والصديقين والشهداء، وهو وإنْ لم يستشهد في سبيل الله تعالى، غير أنّ الله تعالى يجعله في درجات الأنبياء والشهداء، الجنة فيها تفاوت كبير أكثر من التفاوت في الدنيا رغم أنّ التفاوت في الدنيا كبير جداً، إلا أنّ الجنة لا يستطيع أحد أن يقدر الاختلاف والتفاوت في درجاتها حتى أنّ أهل الجنة قبل دخولها يحصل لهم الغبن والأسى على ما فاتهم من خير قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾(التغابن:٩) فيرى بعض أصحاب الجنة أنه مغبون لما فوته على نفسه في عالم الدنيا من الخيرات.

العاشر: المراتب المعنوية في عرفة

يمكن للمرء أن يدرك ما فاته بالحج فيصل إلى مقامات كبيرة ودرجات عالية، إذْ لا ذنوب عليه، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «فإذا وقفت بعرفات إلى غروب الشمس فإن كان عليك من الذنوب مثل رمل عالج أو بعدد نجوم السماء أو قطر المطر يغفرها الله لك»[2]، أي أنه لن يبقى ذنب لا يُغفر بالوقوف بعرفة، بل أنّ من أعظم الذنوب أن يقف الحاج بعرفة

(١) في وسائل الشيعة ج١١ ص ١٤٤.
(٢) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٢١٩.

وهو يظن أنّ الله لا يغفر له، فمن وقف بعرفة كفَّر الله تعالى عنه الذنوب ومحا عنه الخطايا ورفع له الدرجات.

الجمعة: ١٩/ ١٠/ ١٤٣٠هـ

طرق الوصول للبعد المعرفي

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(آل عمران:٩٧).

وقال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩).

صدق الله العلي العظيم.

الغاية من الحج

الحج عبادة عظيمة شُرعت في المنهج الإبراهيمي، واكتملت معالمها في شرعنا الإسلامي الحنيف، وله أبعاد مختلفة أهمها البعد المعرفي.

إنّ الله تعالى شرع كل عبادة من العبادات لإيصال العابد إلى غاية من الغايات، وقد أشار الذكر الحكيم إلى ذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:١٨٣)، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾(العنكبوت:٤٥) فلكل عبادة غاية ومن أعظم غايات الحج، المعرفة والتربية للنفس وبذل الجهد والمشقة في الوصول إلى الله تعالى.

للحج زوايا متعددة، كل منها ترينا بُعداً من أبعاده، أهمها الزاوية المعرفية، فالحاج يصل إلى معرفة الله تعالى بأدائه لمناسك الحج.

الكدح للوصول إلى البعد المعرفي

إنّ الله تعالى فطر الإنسان على أن لا يصل إلى ما يبتغيه ولا يحقق ما يريده إلاّ ببذل جهد ومشقة، فيختلف عن الحيوان، لأنّ الحيوان يسهل عليه تناول الطعام من الطبيعة، بينما يحتاج الإنسان إلى بذل المشقة والجهد الكبيرين في وصوله إلى الطعام بزرعه وإعداده وتنميته وتربيته وترتيبه وما إلى ذلك من أمور، أي أنّ وصوله إلى ما يبتغيه يحتاج إلى جهد، وعلى هذا الأساس فلن يصل إلى الله تعالى إلاّ بجهد ومشقة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾ (الانشقاق:٦) فبذل الجهد واستفراغ الوسع يتاح بهما معرفة الله تعالى المفيدة لليقين والاطمئنان، فالحج جهد يوصل إلى معرفة الله تعالى، ويهدي إلى سواء السبيل، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾(العنكبوت:٦٩) ونؤكد هنا على زاوية البعد المعنوي والمعرفي للحج.

الكفر العملي في ترك الحج

جاءت بعض آيات القرآن والروايات لإيضاح هذا المعلَم فترك الحج يساوق الكفر بالله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ (آل عمران:٩٧) ويحسن بنا أن نوضح مفردة الكفر لكونها مهمة.

تقسيم الكفر:

قسم يساوق الخروج من الشريعة، وقسم آخر كفر عملي لا يُحكم بكفر الكافر عملياً ولا بنجاسته وتحل ذبيحته، فهو كفر حكمي دون تطبيق أحكام الكافر عليه؛ أي أنه كافر حكماً إلاّ أن أحكام الكافر من النجاسة وغيرها لا تنطبق عليه، وقد أوضح الفقهاء ذلك في تبيان الأحكام الشرعية، قائلين: إنّ من اعتقد بالشريعة الإسلامية وله مال وجب عليه الحج، وإذا عصى بعدم أدائه لا يتعامل معه أنه نجس ولا تطلق زوجته منه، وتحل ذبيحته، فهو كافر بالكفر العملي، ويفيدنا هذا المصطلح في مجالات متعددة

منها: الولاية لأهل البيت عليهم السلام، حيث وردت بعض التعبيرات التي يستفاد منها بأن من لا يؤمن بولاية أهل البيت عليهم السلام كافر، والحال أنّ من تشهد الشهادتين مسلم، فكيف نجمع بين كفره وإسلامه؟

إذِ المسلم يُتعامل معه بأحكام الإسلام و يحرم ماله ودمه وعرضه، فهو كتارك الحج لا يسمى بالمصطلح الشرعي كافراً، فالكفر هنا اصطلاح خاص معناه أنّ الله تعالى أوجب حكماً فترك عمداً دون إنكار له ولا إنكار للرسالة ولا يترتب على من أنكر حكماً بأنه كافر ولا يخرج عن ربقة المسلمين وتحل ذبيحته.

ميزة مكان الحج

هناك علاقة بين أماكن أداء النسك لهذه العبادة ومعرفة الله تعالى تتضح من خلال الروايات التي تحدثت عن بعض أنبياء الله تعالى ورسله في إقبالهم عليه تعالى ووصولهم إلى درجة عالية من العرفان والشهود للحق تعالى، جاء في رواية أنّ آدم لما وصل عرفة قيل له يا آدم اعترف بذنبك ليتوب الله تعالى عليك، فاعترف بذنبه فتاب الله تعالى عليه في عرفة[1] فازدلف إلى الله – تعالى – متقرباً إليه في مزدلفة –المشعر الحرام–.

وإذا تأملنا هذا المعنى الدقيق وجدنا علقة بين المكان والتوبة قد لا يظهر ذلك

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٢٢٧: عن أبي عبد الله عليه السلام: إن الله بعث جبرئيل إلى آدم فقال: السلام عليك يا آدم، إن الله بعثني إليك لأعلمك المناسك، فنزل غمام من السماء فأظل مكان البيت، فقال جبرئيل: يا آدم خط حيث أظل الغمام فإنه قبلة لك، ولآخر عقبك من ولدك، فخط آدم برجله حيث الغمام، ثم انطلق به إلى منى، فأراه مسجد منى فحطه برجله، وقد خط المسجد الحرام بعدما خط مكان البيت، ثم انطلق به من منى إلى عرفات فأقامه على المعرف، فقال: إذا غربت الشمس فاعترف بذنبك سبع مرات، واسأل الله المغفرة والتوبة سبع مرات، ففعل ذلك آدم عليه السلام ولذلك سمي المعرف لان آدم اعترف فيه بذنبه، وجعل سنة لولده يعترفون بذنوبهم كما اعترف آدم، ويسألون التوبة كما سألها آدم عليه السلام....

بادئ ذي بدء بل يحتاج إلى بحث مسهب غير أننا نؤكد على وجود خاصية في المشعر يحصل عليها الحاج بأدائه للنسك فيعرف ربه، لذا جُعلت التوبة لآدم في هذا المكان الخاص، أما التوبة بمعناها العام فتتحقق في أي مكان وفي أي بقعة من بقاع الأرض ويتوب الله تعالى على من تاب، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾(الشورى:٢٥) غير أنّ قمة الذوبان في معرفة الله تعالى لا تتأتى إلاّ في هذا المكان الخاص.

ارتباط الحج بالصوم

ورد في بعض الروايات إبانة للربط الوثيق بين الحج والصوم في حصول المغفرة والرضوان قال الإمام الصادق عليه السلام: «من لم يغفر له في شهر رمضان لم يغفر له إلى مثله من قابل إلاّ أن يشهد عرفة»[١] أي أنّ بعض من صام شهر رمضان ولم يحصل على الغفران فلن يحصل عليه إلاّ أن يحضر عرفة، رغم أنّ الله تعالى غفار الذنوب جميعاً قال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾(طه:٨٢) لكن بعض الذنوب المقترفة تمنع العبد من رحمة الله تعالى وتحجبه عن التوبة وليس أمامه إلاّ الحضور في عرفة ليتوب إلى الله تعالى، وهناك أبعاد خاصة للرقي النفسي والمعرفي لدى الإنسان تتحقق بحضور عرفة.

الدعاء للتوفيق إلى الحج

لذا ورد الربط بين الحج والصوم في الأدعية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام: «اللهم ارزقني حج بيتك الحرام في عامي هذا، وفي كل عام»[٢]، إيضاح لما تقدم بأنّ عمق الوصول إلى بعض التجليات يحصل بالحج وأداء النسك غير أنّ أداء الحج دون فهم

(١) وسائل الشيعة ج١٠ ص ٣٠٥.
(٢) إقبال الأعمال ج١ ص ٧٩.

للمعاني الدقيقة والأسرار والرموز التي اشتملت عليها مناسكه وشعائره لا يوصل الحاج إلى تلك التجليات بل يكون كمن صلى ولم يعِ التكبير، وقرأ الفاتحة ولم يفقه المعاني، وسبح الله تعالى ولم يعرف عظمة ربه، إنّ هذا البعد المعرفي للحج لا يتاح لكل أحد بل لبعضٍ، فيصل إلى درجة من المعرفة حسبما يبذله من جهد وطهارة لنفسه وماله وإخلاص لنيته واستعدادٍ للوصول إلى هذا البعد المعرفي.

الجمعة ١/ ١١/ ١٤٢٩ هـ

الفصل الثاني:

جوانب الحج الفقهية

البعد الفقهي في فريضة الحج

قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾(آل عمران:٩٧)، صدق الله العلي العظيم.

دلالة الآية على وجوب الحج :

الواجبات في الشريعة الإسلامية يُؤمر بها بأنحاء مختلفة، فتارة يأتي الأمر بها عَبر الصيغة والهيئة كـ «أقم الصلاة وآتِ الزكاة» وتارة يكون الأمر بها بالمادة، وثالثة بنحو يتغاير مع الهيئة والمادة ويدل على الإلزام بالواجب، ورابعة يؤمر بها بصورة إخبار عن وجوب شيء على المكلفين، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾(آل عمران:٩٧)، فهذا خبر أخبر به الله تعالى عن استقرار وثبوت وجوب الحج على المكلف المستطيع، ويرى العلماء أنّ هذا النحو من الإلزام بالواجب يختلف عن النحو الذي جاء على نمط الأمر بالمادة أو بصيغة افعل، ذلك أنّ الإلزام يشتمل على نحو بلاغي يؤكد على ثبوت ذلك الوجوب وأهميته في ذمة المكلف، فقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ معناه أنّ حج البيت أمر ثابت ومستقر، وأُخذ على نحو مفروغ عنه، والشيء إذا عبر عنه بنحو الإخبار كان الإلزام به من التوكيد بمكان، وأصبح ثبوته كالشمس في رابعة النهار، وقد جاءت بعض تعابير القرآن والسنة المطهرة بهذا النحو، كقوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾(الواقعة:١) فالآية عبرت بـ ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ باعتبار أنّ يوم القيامة أمر مفروغ تحققه وثبوته ومآل جميع الخلق إليه، والحج كذلك

أُخذ كأمر مفروغ منه والإلزام به ثابت على جميع المستطيعين.

الحكمة الإلهية في وجوب الحج :

لقد أوجب الله تعالى الحج لحكمة، وله فوائد تترتب عليه للأمة الإسلامية وغيرها من الأمم، ورد عن إمامنا الرضا عليه السلام قوله: «إنما أُمِروا بالحج لعلة الوفادة على الله، وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف العبد تائباً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال عن الأهل والولد وحظر النفس عن اللذات شاخصاً في الحر والبرد، ثابتاً على ذلك دائماً مع الخضوع والاستكانة والتذلل، مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع لجميع من في شرق الأرض وغربها» أي: أنّ منافع الحج لا تعود على الأمة الإسلامية فقط، وإنما تشمل جميع بني الإنسان، ومن في البر والبحر، فتعود الفائدة له على عالم الحيوان والنبات وجميع مفردات الكون «ومن في البر والبحر ممن يحج وممن لم يحج» ثم بين الإمام الرضا عليه السلام ذلك فقال: و«من بين تاجر وجالب وبائع ومشتري وكاسب ومسكن ومكارٍ وفقير» يستفيد من الإجارة والإسكان «وقضاء حوائج أهل الأطراف في الموضع الممكن لهم الاجتماع فيه» أي يتاح لبعض أهل الأطراف في مشارق الأرض ومغاربها أن يعرضوا قضاياهم بشكل بينٍ وواضح على المسلمين في الحج «مع ما فيه من التفقه في الدين»، وهذه فائدة عظيمة أشار إليها إمامنا الرضا عليه السلام وهي التفقه في الدين، فالحاج يتاح له أن يتعلم بعض أحكام الشرع الشريف، «ونقل أخبار الأئمة عليهم السلام إلى كل صقع وناحية»[1].

إنّ هذه فوائد شارحة لقوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾(الحج:٢٨)».

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ٣٨.

عاقبة ترك الحج :

فالحج يتميز عن سائر الفرائض الأخرى، والنصوص القرآنية الواردة فيه لم ترد في غيره، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾(آل عمران:٩٧)، الكفر على قسمين:

الأول: الإنكار والجحود لثابت من الدين بالضرورة، كإنكار وجوب الصلاة أو بعض الفرائض من دون شبهة، ذلك أنّ إنكاره حينئذ يستلزم إنكار آية من القرآن الكريم أو تكذيباً لسيد المرسلين، وهو كالكفر الصريح، فمن قال: أجحد وجود الله تعالى، أو لا أصدق بنبوة المصطفى ﷺ، فإنّ كفره صريح واضح.

أما من أنكر كون النبي خَاتِمَاً للأنبياء وآخرهم، واعتقد بإمكانية مجيء أنبياء ورسل بعده ﷺ، فإنكاره يستلزم تكذيب نص القرآن، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾(الأحزاب:٤٠)، فيكون إنكار خاتمية النبي ﷺ مستلزماً الجحود والإنكار لنص قرآني، وهو كفر، لكنه غير مباشر، ولعله المقصود من الكفر في ترك الحج أي أنه من الكفر غير المباشر المستلزم التكذيب بنبوة النبي ﷺ أو إنكار بعض ما جاء به القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾(آل عمران:٩٧).

إنّ الحج واجب وإنكاره يستلزم الكفر، وقد عبرت الروايات على أنّ من استطاع الحج ولم يحج خير عند سكرات الموت بين أن يموت يهودياً أو نصرانياً، أي أنه لا يموت على ملة المصطفى ﷺ، قال إمامنا الصادق عليه السلام: «ومن مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه من ذلك حاجة تُجحف به، أو مرض لا يُطيق فيه الحج، أو سلطان يمنعه، فليمت يهودياً أو نصرانياً»[1]، وورد في الكثير من الروايات أنّ من لم يحج لا

(١) وسائل الشيعةج ١١ ص ٣٠.

يوفق في الدنيا ولا في الآخرة.

حكم التسويف بالحج :

وهنا مسألة في غاية الأهمية يغفل الكثير عنها، وهي التسويف بالحج، من دون أن ينكر أو يجحد به، وإنما يُرجئ ويؤجل أداءه، إنّ التسويف ذنب من الذنوب الكبيرة التي توعد الله تعالى عليها بالعذاب الأليم والطرد من رحمته وهو كالسرقة، والزنا، واللواط، والإشراك بالله تعالى، والظلم، وعقوق الوالدين. غير أنّ هناك قسم من الناس يتمكن من أدائه، لكنه يؤخر ذلك، قائلاً: سوف أؤدي الحج في العام القادم، وذلك تسويف بالحج، والمكلف غير معذور في التأخير، وقد أكدت الروايات ذلك، قال إمامنا الصادق عليه السلام عندما سُئل عن رجل له مال ولم يحج قط، فقال عليه السلام : «هو ممن قال الله: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾(طه:١٢٤) – قال معاوية بن عمار راوي الرواية – قلت:سبحان الله، أعمى؟!، قال الإمام عليه السلام : «أعماه الله عن طريق الجنة»[١] وفي رواية أخرى: «أعماه الله عن طريق الحق»[٢]، وهذا من باب الجري والتطبيق لقوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾(الإسراء:٧٢)، فكأنّ الآية نزلت فيمن سوّف حجة الإسلام وعنده ما يكفيه للحج.

شرائط الاستطاعة :

والاستطاعة لا تتحقق إلاّ بشرائط ذكرها العلماء في رسائلهم الفقهية، فإذا توفرت وجب على الإنسان الحج كالبلوغ والعقل والحرية، وعدم العسر والحرج بأن لا يُوقعه أداء الحج في العسر، ولا يضطره الإتيان به لارتكاب محرّم، فمن كلفه الله تعالى بتكليف لا يؤديه إذا استلزم أداؤه الوقوع في الحرام، حتى إذا كان بالغاً عاقلاً حراً قادراً، وعليه

(١) بحار الأنوار ج ٩٦ ص ٦.
(٢) وسائل الشيعة ج١١ ص ٣٥.

أن يؤدي الحج دون الوقوع في محرم إذا كان مستطيعاً.

المستطيع :

لابد أن يصدق على المرء أنه مستطيع كي يؤدي الحج، وهذا ما نريد إيضاحه، إنّ الكثير من الشباب تتحقق له الاستطاعة بتوافر الزاد والراحلة، فعنده الغذاء الكافي والمركب الذي يوصله إلى الديار المقدسة ويتوافر لديه المال الذي يكفيه لكل ما يحتاج إليه من زاد واستئجار مركب يصل به، وهو معافٍ في بدنه، ليس بمريض، بل في كامل صحته البدنية ويستطيع أداء النسك، ولا مانع عنده من خوف على نفسه أو على أهله، مع الأمن في الطريق، أما إذا خاف على نفسه فهو غير مستطيع، لأنه لا يتمكن من أداء الحج ليس لعدم الزاد والراحلة، وإنما لعدم الأمن على نفسه أو على أهله.

كفاية الوقت :

لابد أن يكون الوقت متسعاً ليتمكن من السفر إلى مكة وأداء أعمال الحج، أما إذا تحصل على مال في صباح اليوم التاسع من ذي الحجة، وكان من المعلوم أنه لن يتمكن من السفر لأداء الحج في ذلك اليوم، فمن الواجب عليه تأدية أعمال العمرة بشكل كامل، ثم يذهب للوقوف في عرفة إنْ تمكن، وإذا كان الوقت لا يسعه لأداء الأعمال أو كان أداء ٢٣ فريضة الحج سبباً في وقوعه في العوز والضيق والعسر بعد رجوعه إلى بلده، أي أنه إذا أدى الحج ثم عاد إلى وطنه لن يقع في حرج لتوافر ما يكفيه لتستمر حياته وأوضاعه المادية بنحو طبيعي دون الوقوع في ضائقة. أما إذا كان أداء الحج يستلزم وقوعه في ضائقة مالية ولا يتمكن من الصرف على من يعوله كالزوجة والعيال أو من يتكفل بالإنفاق عليهم لم يجب عليه الحج.

وهذه الشرائط الكثير من الشباب ممن لديهم وظيفة وعمل يستطيعون أداء الحج في السنة الأولى من بدء وظيفتهم، أي بمجرد أن يتوظف يستطيع أداء الحج إذا كان

سليماً معافاً، وعنده متسع من الوقت.

إنّ من المؤسف أن ترى بعض الناس يتمكن من أداء الفريضة ولا يلتفت إلى أنه لا يجوز التأخير له ويحرم الإمهال والتسويف للمتمكن المستطيع، بل يكون مرتكباً لكبيرة من الكبائر، وبناءً على هذه النتيجة التي وصلنا إليها، لابد للشاب أن يدرك أنّ ترك الحج أو تأخيره مع التمكن منه تسويف، وكبيرة من كبائر الذنوب التي أكدت الروايات على حرمتها.

ختاماً: إنّ الحج فريضة عظيمة من فرائض الإسلام، لابد أن نحض أبناءنا وبناتنا والمؤمنين على أدائها مادامت الشرائط متوافرة فيهم.

الجمعة: ٣٠/ ١٠ / ١٤٢٦هـ

البُعد الفقهي للاستطاعة الشرعية

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (آل عمران:٩٧) صدق الله العلي العظيم.

الحج من العبادات التي تمتد في جذورها التاريخية إلى آدم عليه السلام، وقد أشارت الروايات عن أهل البيت عليهم السلام إلى ذلك، وأكدت على أنّ هذه الفريضة هي نُسكٌ في الشرائع السماوية السابقة، وأنّ الأنبياء عليهم السلام أدوها على أكمل وجه، وعندما جاء الإسلام عدّها من أركانه التي بُني عليها قال الإمام الباقر عليه السلام: «بُني الإسلام على خمسة دعائم: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان وحج بيت الله الحرام والولاية لنا أهل البيت»[1]. وهذه الرواية وغيرها تُقدم الصوم على الحج وتربط بينهما معنوياً في المكتسبات التي يحصل عليها الإنسان بعد شهر رمضان وتُؤثر على مسار حياته في البُعد الديني والدنيوي، وتستمر آثارها.

إنّ أشهر الحج العظيمة أولها شوال فذو القعدة، وذو الحجة، وفيها يستلهم الأبعاد المعنوية المتعددة وكذلك الأبعاد الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها التي تنشأ من أداء فريضة الحج.

الاستطاعة من أهم شروط وجوب الحج :

ويحسن بنا أن ننبه إخواننا المؤمنين -خاصة الشباب- على أهمية الحج لأنّ كثيراً

(١) أمالي الشيخ المفيد ٣٥٣.

من الشباب في عصرنا الراهن يمتلك الاستطاعة على الحج، إلاَّ أنَّه يُرجئه، ولذلك ارتأينا تسليط الضوء على الاستطاعة انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٧٩).

إنّ الاستطاعة التي يُلزم المكلف بأداء نُسك الحج معها تتحقق بأربعة أمور:

الأول: السعة في الوقت

بأن يتمكن المكلف من الوصول إلى مكة المكرمة في الأيام المخصوصة لأداء نسك الحج، وقد كان الإنسان -سابقاً- يستغرق وقتاً طويلاً لقطع المسافة البعيدة لأنّ وسائل النقل في العصور السابقة كانت بدائية، أما في هذه الأيام فإنّ وسائل النقل الحديثة وفرت على الناس الوقت والجهد فالكثير يتمكن من قطع المسافات البعيدة في وقت قصير جدًا، وأدى ذلك إلى تمكن الإنسان من حضور موسم الحج حتى وإنْ خرج متأخراً من بلده.

الثاني: الصحة في البدن

بأن يكون سليماً معافى من الأمراض كي يتمكن من أداء نسك الحج.

الثالث: الأمن في الطريق

بأن يستطيع الوصول لأداء النُسك من دون عوائق تمنعه من ذلك، وقد يختصّ هذا بالأزمنة السابقة، أما في زماننا الحاضر فالناس في أمن وأمان في طريق ذهابهم للحج والعودة منه.

الرابع: القدرة المالية

بأن يتمكن الإنسان من الاشتراك في قوافل الحج من خلال دفع المتطلبات المالية

اللازمة، ويبقى لديه فائض يُؤمِّن به المصرف الماليّ لنفسه ولعائلته التي يعولها بعد رجوعه من الحج حتى إذا كان الفائض من راتبه الشهري الذي يتقاضاه كل شهر، أي كما يُشترط الأمن في الطريق يشترط الأمن على المال والعرض أيضاً، فقد يتوافر للإنسان جميع ما ذكرناه من أمور، لكنه قد لا يستطيع ترك بلده لخوفه على عياله أو خوفه على ماله، فلا يكون المرء مستطيعاً إلاّ إذا توافرت لديه الأمور السابقة، وهذه «شرائط الاستطاعة من الناحية العامة»، ومن نافلة القول التنبيه بأنّ الحج لا يجب إلاّ على البالغ العاقل الحر لأنها شرائط عامة لكل تكليف، وإذا توافرت الشرائط الخاصة والعامة وجب الحج على المكلف.

عواقب تسويف الحج :

تسويف الحج من الذنوب الكبائر، فمن استطاع أن يحج فسوّف وأجّل الحج إلى العام المُقبل، فإنّ تسويفه من كبائر الذنوب حتّى إذا كان قادراً على الحج في السنوات المقبلة، قال الإمام الصادق عليه السلام بعد أن سأله أحد أصحابه أرأيت الرجل التاجر ذا المال حين يُسوف الحج كل عام وليس يشغله عنه إلا التجارة والدَّين: «لا عذر له يُسوف الحج، إن مات وقد ترك الحج فقد ترك شريعة من شرائع الإسلام»[1].

مسائل هامة في الحج :

إنّ كثيراً من الناس -في عصرنا الراهن- يتمكن من أداء هذه الفريضة بعد مرور أشهر محدودة من حصوله على الوظيفة لتوافر شروط الاستطاعة الآنفة الذّكر، وهو مكلف بالمحافظة على هذه الاستطاعة إلى وقت الحج، وعلى المؤمن العامل بالفرائض المؤدي للواجبات -لاسيّما الشاب- أن يلتفت إلى أهمية أداء الحج من خلال ما نستعرضه من مسائل هامة:

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص٢٥.

الأولى: أيّهما يُقدّم الزواج أو الحج

يتصور بعض الناس أنّ جمع المال للزواج أو لترتيب أموره الشخصية يؤدي إلى زوال الاستطاعة عنه، وهنا ينبثق تساؤل، أيهما يُقدم الحج أو الزواج؟

أفتى الفقهاء: بأنّ الإنسان إذا خشي -بتركه الزواج- الوقوع في الحرام، أو كان لا يتحمل ذلك ساغ له أن يجعل ما لديه من مال لزواجه، أمَّا إذا لم يكن الأمر كذلك، فيمكنه التحمل وتأخير الزواج فهو غير معذور في إرجاء الحج وتأخيره، بل يجب عليه أن يؤديه، لذا نلحظ في تعبير الآية تشديداً: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (آل عمران:٩٧). أي جعل ترك الحج وعدم أدائه معادلاً للكفر.

الثانية: هل يجب الحج على الطالب؟

إنّ الحج ليس واجباً فقط على الموظف لكونه مستطيعاً من أداء هذه الفريضة، بل حتى على طلاب الكليات والجامعات لأنهم يستلمون مكافآت، وبعضهم لا يصرفها على نفسه بل يدخرها، وعندئذ إذا دخلت أشهر الحج ولم يكن مَدِيناً؛ وَجَب عليه، أما من كان عليه دين تنتفي بأدائه قدرته المالية، فلا يجب عليه الحج.

الثالثة: أيّهما يُقدّم الخمس أو الحج؟

وننوه هنا على أنّ البعض يتعلق في أموالهم حق شرعي بمرور سنة (حول) على بعض أمواله الزائدة عن حاجته، ويجب عليه أداء الخمس المتعلق بها لأنّ الخمس في فاضل المؤنة لكنه يتصور أنه إذا دفع الخمس زالت استطاعته المالية، ولن يتمكن من أداء الحج.

وفي الحقيقة إنّ هذا تصور بعيد عن الصواب، لأنّ من كانت حالته مثل هذه الحالة فوظيفته الشرعية وجوب أداء الخمس، ولا يجب عليه الحج؛ باعتباره مدِيناً غير

مستطيع، والخمس كالدين للآخرين يجب أداؤه عليه حتى إذا كان بأدائه لا يستطيع الحج، أي أنّ من تعلق بأمواله الحق الشرعي ولم يُؤدِه فخسر بعض أمواله وجاء وقت الحج وليس لديه إلاّ القليل من ماله ولا يكفي للحجّ إذا أخرج منه الخمس، يكون فاقداً للاستطاعة الشرعية ولا يجب الحج عليه.

الرابعة: هل تأخير الرواتب يُسقط وجوب الحج؟

إنّ قسماً من الناس يتمكن من الناحية الاقتصادية، غاية الأمر أنه أرجِئَت رواتبه، ولم يستلمها لسبب، فهل تصدق على هذا الاستطاعة، ويجب عليه الحج إذا تمكن من الاقتراض وأداء المال بعد أداء الحج؟

قال بعض فقهائنا: ما لم يكن عليه حرج في ذلك فهو غير معذور في الإرجاء والتسويف عن أداء الحج.

الخامسة: الحج ومنع الحقّ الشرعي

بعض الناس لا ينضبط في سلوكه ويعمل على اقتناء المال في أي مجال من المجالات من غير مراعاة للجهات الشرعية، فيكون قِسماً من ماله من الحرام، وإذا كان كذلك، فإنّ عليه الانتباه، فإذا أراد أن يحج فلا يعني ذلك سقوط الوظيفة الشرعيّة وهي وجوب إرجاع الأموال المحرّمة إلى أصحابها، وليس له أن يحجّ من هذه الأموال لكنّه إذا حج من مال حلال، فإنّ حجّه صحيح، وإن أَثِمَ بإمساكه أموال الآخرين.

وهنا مسألة أُخرى هي أنّ بعض الناس يتعلّق بأمواله الحق الشرعي -الخمس- ويستثقل ذلك لكون إخراج الخمس من أمواله الكثيرة يصعب عليه، فلا يُخرجه، وهو محرم عليه وفعله معصية غير أنه يتمكن من اقتطاع جزء من أمواله -بمقدار رسوم قافلة الحجّ التي يريد الذهاب معها- فيُخرج خمسه، ثم يقترضه ليحج به فيكون حجّه

صحيحاً لأنّه حجّ من مال حلال لم يتعلّق به حقّ الله أو الغير، ولا يعني هذا تبرير عمله المحرم وإنما إيضاح المخرج الشرعي لذلك، ويجري هذا الأمر في حق أصحاب المزارع الذين يكون التمر مصدرهم الاقتصادي الكبير، ولا يُخرجون زكاة تمورهم، فمن أراد الحجّ منهم عليه أولاً أداء زكاته ثم الحج.

الإنفاق في الحج

قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾(الحج:٢٨). صدق الله العلي العظيم.

بينت الروايات الواردة عن النبي ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام الحج من حيثيات مختلفة منها: ما يترتب من آثار عظيمة على الإنفاق في الحج، إذْ ينبغي للمؤمن والمسلم الإنفاق في الحج، والإنفاق فيه له أنحاء مختلفة:

الأول: بذل المال ليحج به بنفسه.

الثاني: إعطاء المال للغير ليحج به.

الثالث: أن يساعد في كل ما يتعلق بالحج فينفق لتيسير وتسهيل أمور الحج، فيقدم المال للإطعام والماء للإرواء، ويساعد بكل ما يستطيع من أجل إنجاح الحج بعلمه وفكره وثقافته وعمله، كل هذه الأنحاء من الإنفاق توجب الأجر والثواب للمنفق.

خصائص الإنفاق في الحج

ورد في الروايات أنّ بر الحج «طيب الكلام وإطعام الطعام»[1]، كلما أنفق المرء في حجه بَرَّ حجه، وكان أجره الجنة، وطيب الكلام تأكيد منه ﷺ على مبادئ الخلق

(١) عوالي اللئالي ج ٤ ص ٣٣.

الكريم، من دماثة الأخلاق في أداء هذه الفريضة ليكون الحاج لديه سعة في صدره ومرونة في تعامله بخلق مع الطيف المتعدد من الناس.

الحد الأدنى لأجر الإنفاق في الحج

جاء في الإنفاق أنّ النفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف، والإنفاق في الحج كذلك فكل درهم يتحول إلى سبعمائة ضعف ويظهر من الروايات أنّ السبعمائة ضعف هي الحد الأدنى من الثواب للإنفاق في الحج، أما الإنفاق في غيره فالسبعمائة ضعف هي الحد الأعلى.

تميز الإنفاق في الحج

الإنفاق في الحج له تميز خاص في الثواب والأجر يتخطى غيره من وجوه البر والخير، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «درهم ينفقه الرجل في الحج يعدل ألف درهم»[1]، وقال إمامنا الصادق عليه السلام: «درهم تنفقه في الحج أفضل من عشرين ألف درهم تنفقها في حق»[2]، فكل أنحاء الإنفاق في سبيل الله تعالى كمعونة الفقراء والمعوزين، لا تعادل الإنفاق في الحج، إذْ أنّ قوله عليه السلام: «درهم تنفقه في الحج أفضل -أي ليس يعادل- عشرين ألف درهم تنفقها في حق»، بل أكثر، وهذا باب من الرحمة فتحه الله تعالى لعباده، يستطيع كل فرد أن يقدم جزءً من أمواله لمساعدة الفقراء ليحجوا ومساعدة بعض من وجب عليهم الحج واستقر في ذمتهم لتفريطهم بالتسويف فتحولوا إلى فقراء لا يستطيعون أن يؤدوا الحج فيعطون شيئاً من المال ليحجوا به ولو متسكعين فيذهبون مع حملات منخفضة الرسوم لتأدية الحج.

(١) الحج والعمرة في الكتاب والسنة للريشهري ص ١٤٢.
(٢) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١١٥.

التضاعف التدريجي للإنفاق في الحج

بينت الروايات أن هناك تضاعفاً تدريجياً لثواب الإنفاق في الحج، قال الإمام الصادق عليه السلام: «من أنفق درهماً في الحج كان خيراً له من مائة ألف درهم ينفقها في حق»[1]، تشير الرواية إلى المضاعفات ومضاعفة المال الذي ينفقه المرء في الحج تبدأ من سبعمائة ضعف، ثم تصبح بنحو أعظم وأكبر من الإنفاق في غير الحج، الحج جهاد فإنفاق المال فيه كإنفاق المال لإعلاء كلمة الله تعالى ونشر العدل وإرساء مبادئ الفضيلة، والأموال التي تنفق في ذلك ذخيرة عند الحق تعالى، وقد جعل الإنفاق في الحج كالإنفاق في الجهاد في سبيل الله تعالى لأنّ الحج يربط المؤمنين ببعضهم، وفيه إفشاء للسلام في العالم، فهو مؤتمر عظيم يحقق فيه كل حاج من أي قطر من أقطار العالم مصلحة له ولغيره، مصلحة علمية ومعرفية وثقافية واقتصادية ومصالح أخرى تترتب على الحج، لذا ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «الدرهم في الحج أفضل من ألفي ألف فيما سوى ذلك من سبيل الله»[2]، ألفي ألف أي يعادل اثنين مليون من الإنفاق في غيره من الأنحاء الأخرى في سبيل الله تعالى.

طريقة بذل المال في الحج

إنّ كثيراً من المؤمنين تمر عليه المناسبات دون أن يستفيد منها فيمر عليه موسم الحج دون أن يقدم شيئاً للحج، مع أنّ المرء يمكنه أن يدرك ثواب الحج دون أن يحج إذا أنفق بعض أمواله للحج فبذل المال لمن يريد أن يحج من الفقراء أو أسهم لهم بقيمة الهدي، ولذلك تأثير عظيم غير أنّ الكثير من الناس يمر عليه الموسم فيفوته الثواب ولا يشترك مع الحاج في الحج أي لا يقدم شيئاً من ماله في سبيل الله تعالى ليحصل على الثواب الجزيل والأجر العظيم.

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١١٧.
(٢) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١١١.

الاقتراض للحج المستحب

حضت بعض الروايات على الإسهام في الحج حتى بالاقتراض، سدير الصيرفي من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام أرسله إلى بعض أصحابه وقال سدير له: إنّ أبا عبد الله يقرأ عليك السلام، ويقول لك ما لك لا تحج، الإمام عليه السلام يعرف حاله أنّه في ضائقة مالية، وليس له مال يحج به ومع ذلك يأمره بالحج، ويقول له: «استقرض وحج»[1]، أي الحج المستحب أما الواجب فلا يسقط بالقرض ولابد أن يكون له استطاعة، غير أنّ الحج المندوب لو اقترض له وحج فذلك طريق للوصول إلى الغنى والسعة في الرزق كما يظهر من الروايات، فمن كان عليه دين يتمكن من قضائه بالاستقراض للحج فيفتح الله له بذلك أبواباً مغلقة، ويُيسر له طرقاً عسيرة من الصعب أن تفتح عليه لولا الحج، إنّ الله تعالى يغدق على الحاج من عطائه ويفتح له أبواب فضله وينشر عليه من سعة رحمته، فيقضي دينه ويضاعف أمواله.

أثر الاقتراض للحج

وقد جاء المعنى السابق في رواية معاوية بن وهب قلت لأبي عبد الله عليه السلام إني رجل ذو دين أفأتدين وأحج؟ ويسمى ذلك في الاقتصاد الحديث إعادة جدولة الديون، فالاقتراض للحج من قبيل جدولة الدين، وترتيب أموره ليتاح له أن يقضي دينه، قال الإمام عليه السلام: «نعم هو أقضى للدين»[2]، وفي الرواية تذكير للمؤمنين أن لا يفوتهم موسم الحج، إذْ بإمكان المرء أن يدفع جزءً من ماله للإسهام في الحج كي يُوفق للفضل الكبير والأجر العظيم الوارد في الروايات.

الجمعة:٤/ ١١/ ١٤٣٠هـ

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١٤٠.
(٢) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١٤٠.

سر الاستطاعة في الحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (آل عمران:٩٧) صدق الله العلي العظيم.

حكم الاستطاعة

يجب الحج شرعاً على المستطيع، وقد اختلف الفقهاء في تحقق الاستطاعة من حيث السعة والضيق، هي في اللغة تساوق الاقتدار، فالمستطيع هو القادر على أداء فريضة الحج، وتعرف بتعريف تقليدي مشهور، هو القدرة من الناحية الصحية مع وجود الزاد والراحلة والأمن في الطريق، بمعنى أن يكون المستطيع سليماً معافىً ليتمكن من أداء المناسك مع أمن الطريق وتوافر المال لديه ليتمكن أن يحج بيسر، الراحلة هي السيارة أو الطائرة التي توصله إلى الديار المقدسة.

تحصيل الاستطاعة بالقرض

وقد أشبع الفقهاء بحث الاستطاعة بإيضاحات وتفصيلات، منها أنّ من عليه دين أو استدان لأداء فريضة الحج ليس بمستطيع، وإذا حجّ لا يسقط الحج الواجب من ذمته، نعم؛ يكون حجه مندوباً، أما الواجب فعليه أداءه إذا تمكن، من هنا نلفت الانتباه إلى ذلك إذْ أنّ كثيراً من الناس يقترض سلفة للزواج أو لشراء سيارة أو يبقى لديه مال من سلفة فيحج به، والحال أنّ الحج الواجب لا يسقط من ذمته على رأي بعض الفقهاء، نعم إذا كان أداء الدين بسهولة ويسر سقط الحج الواجب على رأي

بعضهم الآخر، كما إذا كان لديه راتب جيد وما يقتطع من راتبه لأداء الدين لا يخل بوضعه الاقتصادي، عندئذ فلا يؤثر الدين في صدق الاستطاعة، غير أنّ ذلك لا يسقط الحج الواجب على رأي البعض الآخر كما أسلفنا، وبالتالي فعلى الشباب الذين حجوا في السنوات الماضية بدين وهم يرجعون إلى فقيه لا يرى صدق الاستطاعة شرعاً أن يلتفتوا إلى المسألة، إلاّ أنه يمكن للمقترض ومن كان لديه سلفة أن يحول حجه إلى بذلي، فيهدي المال إلى آخر ليقدمه له فيحج به، وهذه حيلة شرعية يصبح معها الحج بذلياً، ويكون المبذول له متمكناً وحجه حجة الإسلام.

الحكمة من اشتراط الاستطاعة

لا نريد أن نسترسل في بحث الاستطاعة بل نريد أن نسلط الضوء على الحكمة من كونها شرطاً للوجوب الوارد في الآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، إنّ النظر في ذيل الآية ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يوضح أنّ الغنى لله تعالى فهو الغني المطلق، والفقر للإنسان فهو الفقير إليه تعالى، وأراد الله تعالى أن يلفت الإنسان إلى غناه المطلق عند أدائه لهذه الفريضة، كي يستشعر فضله تعالى عليه ويؤدي مناسك الحج مستحضراً الفضل الإلهي، ولا يتحقق ذلك إلاّ بالاستطاعة، أما إذا حج مقترضاً للمال فقد لا يستشعر النعيم الإلهي لانشغاله بالدَّين، بينما إذا لم يفكر بأداء دينٍ للآخرين حال صرفه المال في طاعة ربه فإنه يستشعر النعمة، وذلك مِلاك أخلاقي وحكمة هامة لأداء الفريضة، إنّ الحاج عندما يقف المواقف العظيمة وهو يفكر في أداء دينه الذي اقترضه، لن يتحقق له استشعار نعمة الحق تعالى عليه، إذْ أنّ الاستشعار لا يتحقق إلاّ إذا امتلك المال، من هنا فإنّ الاستطاعة فيها حكمة أخلاقية بإلفات نظر الحاج أثناء أدائه لنسك الحج إلى النعم التي أعطاها الله تعالى إياها، وأولى تلكم النعم أن مكنه من حضور المشاعر وأداء المناسك، ليصل إلى الحق تعالى ولو لم يتمكن من الحضور لما كان أن يعيش تلك الأريحية وذلك الاستشعار ولم يتحقق له

ذلك الارتباط في أداء فريضة الحج.

الاستطاعة الأخلاقية

لذا أكّدت طائفة من الروايات على أمور لمن يريد أن يؤدي الحج، أهمها الاستطاعة بالمعنى الفقهي الآنف كي يتخلص من إشكالياته مع الآخرين. وكذلك إبراء الذمة ممن أساء إليه بغيبة أو كلام جارح فلا يقبل على الحج إلاّ بعد التحلل منه، وهناك إشارات ولطائف، منها أنّ الاستطاعة لها سعة من الناحية الأخلاقية تشمل التحرر من كل ربقة وعهدة تربط المستطيع بغيره، فلا يكون مشدوداً لغير الله تعالى إذْ ليس للغير حق من الحقوق عليه، وقد أشارت الروايات إلى لابدية التخلص من العهدة المالية والحقوق التي في الذمة، وإبراء الذمة ممن أساء إليه، ولعل ذلك هو الأعظم، فمن صدر منه تقصير تجاه الآخرين، بإمكانه أن يتخلص بطلب الحل، وإبراء الذمة منهم، وإذا ذهب إلى الحج حينئذ خالٍ من الذنب كان إقباله إلى الله تعالى أعظم وارتباطه به أشد.

التعلق بالله والارتباط به

إنّ أي تعلق بغير الله تعالى يوجب البعد عنه، أما الخلاص منه فإنه يقرب زلفى إليه تعالى، وذلك مشروح بتطبيقات عملية في الروايات، وليس مجرد نظرية صدرت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمة من أهل بيته عليهم السلام فحسب، بل تطبيقات جُسدت في حج الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، وفيها إشارات وتنبيهات للناسك كي يستشعر أبان أدائه للمناسك أنه مشدود إلى الله تعالى، لا يرتبط بأحد سواه حسب درجة قربه منه تعالى.

الدعاء للتوفيق للعبادة

من هذه التطبيقات ما روي عن إمامنا زين العابدين عليه السلام، وقد أبان عليه السلام حقيقة التعلق والارتباط بالله تعالى في الطريق إلى الحج الذي هو مقدمة تدخل في الاستطاعة،

ففي الرواية عن حماد بن حبيب الكوفي القطان قال خرجنا سنة حجاجاً فرحلنا من زبالة – اسم موقع– فاستقبلتنا ريح سوداء مظلمة، فتقطعت القافلة – الرياح تفكك القوافل بعضها عن بعضها الآخر، ويتيه بعضها في الصحراء، وقد اتفق لي ذلك في إحدى السنوات فلم استطع أن أهتدي إلى الجادة سبيلاً– قال الراوي: فانتهيت إلى وادي قفر، وجنّني الليل، فآويت إلى شجرة، فلمّا اختلط الظلام إذا أنا بشابّ عليه أطمار بيض، قلت: هذا وليّ ومن أولياء الله متى ما أحسّ بحركتي خشيت نفاره، فأخفيت نفسي فدنا إلى موضع، فتهيّأ للصلاة، وقد نبع له ماء، ثمّ وثب قائماً يقول: «يَا مَنْ حَازَ كُلَّ شَيْء مَلَكُوتاً، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْء جَبَرُوتاً، أَلِجْ قَلْبِي فَرَحَ الاْقْبَالَ علَيْكَ وَأَلْحِقْنِي بِمَيَدانِ الْمُطِيعِينَ لَكَ»[1].

ودخل في الصلاة، فتهيّأت أيضاً للصلاة، ثمّ قمت خلفه، وإذا بمحراب مثّل في ذلك الوقت قدّامه، وكلّما مرّ بآية فيها الوعد والوعيد يردّدها بانتحاب وحنين، فلمّا تقشّع الظلام قام، فقال: «يَا مَنْ قَصَدَهُ الضَّالُّونَ فَأَصَابُوهُ مُرْشِداً، وَأَمَّهُ الْخَائِفُونَ فَوَجَدُوهُ مَعْقِلا، وَلَجَأَ اِلَيْهِ الْعَابِدُونَ فَوَجَدُوهُ مَوْئِلا مَتَى رَاحَةً مَنْ نَصَبَ لِغَيْرِكَ بَدَنَهُ؟! وَمَتَى فَرِحَ مَنْ قَصَدَ سِوَاكَ بِنيتِهِ؟! اِلهِي قَدِ انْقَشَعَ الظَّلاَمُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ خِدْمَتِكَ وَطَراً، وَلاَ مِنْ حِيَاضِ مُنَاجَاتِكَ صَدْراً، صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَافْعَلْ بِي أَوْلَى الاْمْرَيْنَ بِكَ..... فقلت: بالّذي ترجوه يوم الأزفة من أنت؟ فقال: أمّا إذا أقسمت فأنا عليّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب»[2].

قوله عليه السلام: «يَا مَنْ حَازَ كُلَّ شَيْء مَلَكُوتاً، وَقَهَرَ كُلَّ شَيْء جَبَرُوتاً، أَلِجْ قَلْبِي فَرَحَ الاْقْبَالَ علَيْكَ وَأَلْحِقْنِي بِمَيَدانِ الْمُطِيعِينَ لَكَ»[3].

نلحظ فيه أمرين يطلبهما الإمام عليه السلام أثناء سيره إلى الله تعالى:

(١) الصحيفة السجادية ص ٨٧.
(٢) بحار الأنوار ج٤٦ ص ٤١.
(٣) الصحيفة السجادية ص ١٦٤.

الأول: أن يلحقه بالطائعين الذين لا يعصونه طرفة عين، «وَأَلْحِقْنِي بِمَيَدانِ المُطِيعِينَ لَكَ».

الثاني: أن يدخل في قلبه فرح الإقبال إليه، ذلك أنّ طاعات الإنسان قد يؤديها وهو مصاب بالسأم والضجر، وليس له إقبال على الله تعالى، والإمام عليه السلام يطلب منه تعالى أن يؤدي الطاعة جذلاناً مسروراً، ويحتاج ذلك إلى فهم أمرين:

الأول: معرفة تصرم الدنيا وأنّها لا تبقى، فيفرح بأن قضى بعض آناتها في طاعة الله تعالى.

الثاني: أنّ حقيقة السعادة تكمن في عبادة الحق تعالى، لذا يفرح بقضاء جزءً من عمره في طاعة الله تعالى.

قال الراوي: ثم دخل الإمام عليه السلام في الصلاة، وإذا بمحراب مثل في ذلك الوقت أمامه عليه السلام، هذه كرامة أخرى للإمام عليه السلام إذِ الأولى كانت نبع الماء في الصحراء، والثانية تمثل هيئة محراب، وكأنّ الإمام عليه السلام يصلي في مسجد، وكلما مر عليه السلام بآية فيها وعد بالثواب أو وعيد بالعقاب رددها الإمام عليه السلام بانتحاب وحنين، وترديده عليه السلام استحضار المعاني الكبيرة التي تشتمل عليها الآيات وتفاعل وجداني مع الوعد والوعيد لأنّ الحق تعالى حاضر لديه.

الإنسان ضال ومرشده الله

للإمام عليه السلام أدعية كثيرة ومناجاة متعددة؛ منها المناجاة الخمسة عشر والمناجاة الانجيلية، وكثير من أدعيته عليه السلام لم يصل إلينا، كما أنّ كثيراً منها وصل، وكلها قبس من مشكاة النبوة يضيء دروب السالكين، وهذا المقطع «يَا مَنْ قَصَدَهُ الضَّالُّونَ فَأَصَابُوهُ مُرْشِداً، وَأَمَّهُ الْخَائِفُونَ فَوَجَدُوهُ مَعْقِلاً» من أروع تلكم الأدعية، ذلك أنّ الحاج أبّان فترة إقباله على الله تعالى يرى أنه ضال، وقد قصد الحق فوجده مرشداً، وأمّه وهو خائف فوجده معقلاً وحصناً وثيقاً، فمن التجأ إلى الله تعالى لن يضام، ولن يصاب بأذى، قد يهرب الإنسان من

الله تعالى لجهله ثم يرجع إليه تعالى فيجده موئلاً لرجوعه، ثم بيّن عليه السلام راحة العابدين الصادقين مع الله تعالى باستفهام يوضح حقيقة ذلك «مَتَى رَاحَةً مَنْ نَصَبَ لِغَيْرِكَ بَدَنَهُ؟!» أي أنّ من كانت أعماله لغيرك، فلن ينال لذة ولن يصل إلى راحة.

السعادة مرهونة بالسعي لله تعالى

أوضح عليه السلام في إحدى مناجاته بأنّ السعادة في سعي الإنسان لله تعالى «واستغفرك من كل لذة بغير ذكرك»[١] وشرح هذا المعنى بالاستفهام هنا «مَتَى رَاحَةً مَنْ نَصَبَ لِغَيْرِكَ بَدَنَهُ؟! وَمَتَى فَرِحَ مَنْ قَصَدَ سِوَاكَ بِنِيَتِهِ؟!» أي أنّ من سعى جاداً كادحاً لن يرتح في سعيه إذا كان سعيه لغير الله تعالى، إذْ لا تتحقق الراحة التامة إلاّ إذا كان السعي له تعالى، ومن أعظم السعي لله الخروج إلى الحج، فهو الجهاد الأصغر.

ثم قال عليه السلام: «إِلهِي قَدِ انْقَشَعَ الظَّلاَمُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ خِدْمَتِكَ وَطَراً» يبدو أن الفجر قد اقترب، والإمام عليه السلام في مناجاته مع الله تعالى يريد المزيد من القيام بين يديه تعالى والتضرع له، والإقبال عليه.

ثم قال عليه السلام: «وَلاَ مِنْ حِيَاضِ مُنَاجَاتِكَ صَدْراً، صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِ مُحَمَّد، وَافْعَلْ بِي أَوْلَى الأَمْرَيْنَ بِكَ»[٢].

ما أروعه من مقطع يطلب فيه الإمام عليه السلام أن يهبه الله تعالى لذة المناجاة «وَلاَ مِنْ حِيَاضِ مُنَاجَاتِكَ صَدْراً» أو يفرغه للعبادة لتكون موصلة له إلى تلك الدرجة «وَلَمْ أَقْضِ مِنْ خِدْمَتِكَ وَطَراً».

الجمعة: ٢/ ١١/ ١٤٣٢ هـ

(١) الصحيفة السجادية ص ٤١٩.
(٢) بحار الأنوار ج٨٤ ص ٢٣١.

الفصل الثالث:

معالم الحج

خصائص بيت اللّه تعالى

قال الله تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ*فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا»(آل عمران:٩٦-٩٧) صدق الله العلي العظيم.

للبيت الحرام خصائص متعددة منها الأمن، والهداية وغيرهما، أما الأمن فهو الركيزة الأولى لكل تقدم يحققه الإنسان، وإذا اختل فقد الإنسان جميع منجزاته، فله أهمية فائقة على بقية الخصائص وإنْ كان لها شأن كبير يعود على الإنسان بخير لا يعلمه إلاّ الله، إنّ خصائص البيت الحرام متعددة وكثيرة غير أننا اقتصرنا على ذكر عدة منها.

الأولى: الأمن الاجتماعي

خلق الله الإنسان وأراد له السعادة والخير وأودع فيه الغرائز وفطره على حبه ومعرفته، ومن الغرائز المودعة في وجود الإنسان غريزة الانتماء للمجتمع، فلا يمكن للإنسان أن يستغني بذاته وقدراته وحده، فقد جعل الله تعالى بعض الناس يفتقر إلى بعضهم الآخر ولا غناء مطلق إلاّ له تعالى، هو الغني المطلق وما عداه من خلقه يفتقر إليه، ظاهرة الافتقار إليه تعالى لها أنحاء متعددة، من جملتها الإحساس الذي يعيشه الإنسان عندما يرى أخاه الإنسان إلى جنبه، أو يرى الذين ينتمون إلى عقيدته ويؤمنون بما يؤمن به من قيم وأهداف، متجهين نفس الاتجاه سائرين على نفس الخُطى، هذا الإحساس هو إحساس الأمن الجماعي، ولا يحصل عليه الإنسان وحده، بل قد يعيش أمراضاً ومشاكل كالانعزال؛ بأن يعيش وحده دون اشتراك مع الآخرين لتشكيل خلية في مجتمع يعين بعضُه بعضَه الآخر؛ لتحقيق مقصد مشترك وهدف موحد.

من أهداف الحج؛ إرواء هذه الفطرة التي فُطر عليها الإنسان ليعيش الأمن والأمان، ويُتاح له أن يشبع هذه الغريزة المودعة فيه، ليسير باطمئنان؛ لتحقيق هدف مشترك يؤمن به مع من يشترك وإياه في العقيدة ويسير معه في الخُطى في اتجاه واحد لتحقيق مطلب مشترك، هذا الأمن الاجتماعي أشار إليه القرآن الكريم في عدّة من آياته.

من أروع ما يمثل الأمن الاجتماعي وجود رقعة جغرافية محددة بجهاتٍ أربع تمثل حرماً لا يجوز التعدي عليه، فيه أمن للإنسان والحيوان، أكّد ذلك الأئمة الكرام والفقهاء العظام.

إنّ من يعيش في هذا الإطار، ويؤمن بتحقيق هذه الأهداف المشتركة التي دعا إليها الإسلام لإيصال المسلمين إليها أولاً، وإيصال البشرية جمعاء إليها ثانياً فقد اشترك في تحقيق الأمن الاجتماعي.

عوامل الأمن :

يريد الإسلام لكل الناس أن يعيشوا الأمن والطمأنينة والاستقرار؛ ويتأتى ذلك بعوامل:

الأول: الارتباط بالله وإدمان ذكره، قال تعالى: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللهِّ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨) الذي يذكر الله يصل إلى الطمأنينة لأنّه يرى الله مصدر القوة والغنى وأنّ غيره يفتقر إليه وهو لا يفتقر إلى غيره ولا يحتاج إليه.

الثاني: هو ما يترتب طولياً (تراتبياً) فقد جعل الله بعض الناس يحتاج إلى بعضهم الآخر، ليس في المجال المادي فحسب بل في مجالاتٍ أخرى منها الحاجة النفسية التي عُبِّر عنها بالاطمئنان والأمان، فالإنسان كي يعيش مطمئناً آمناً من أخيه الإنسان بل ليس مطمئناً فقط بأن أخاه لن يضره فهناك ما هو أعظم وهو أنّ أخاه سيلبي ما يحتاج

إليه ويشبع حاجته الماسة بمساعدته في تحقيق الأمن والغنى.

الغنى: يراد به التكامل في المجالات المختلفة لأنّ الإنسان يسعى دائماً لتحقيق النمو المطّرد في معارفه وسلوكه وأخلاقه وعلمه و خبراته، ولا يتحقق ذلك له إلا بانتمائه للآخرين واستقطاب خبراتهم وعلومهم، فلا يتاح له النمو المطّرد بشكل جماعي إلا بالأخذ والعطاء مع الآخرين بمختلف اتجاهاتهم وأفكارهم وانتماءاتهم، ويحقق ذلك الحج أي أنّ من أبعاده هذا البعد، وقد أشار أئمة أهل البيت عليهم السلام إلى هذه الحيثية التي شرحناها، قال الرضا ع: «فإن قال : فلم أمر بالحج قيل: لعلة الوفادة إلى الله عز وجل وطلب الزيادة والخروج من كل ما اقترف العبد تائبا مما مضى مستأنفا لما يستقبل مع ما فيه من إخراج الأموال وتعب الأبدان والاشتغال الأهل والولد وحظر الأنفس عن اللذات شاخص في الحر والبرد ثابت ذلك عليه دائم مع الخضوع والاستكانة والتذلل مع ما في ذلك لجميع الخلق من المنافع في شرق الأرض وغربها ومن في البرد والحر ممن يحج وممن لا يحج من بين تاجر وجالب وبائع ومشتري وكاسب ومسكين ومكار وفقير وقضاء حوائج أهل الأطراف في المواضع الممكن الاجتماع فيها مع ما فيه من التفقه ونقل أخبار الأئمة عليهم السلام إلى كل صقع وناحية»[1] أي جعل الله تعالى من وسائل الإعمار أنّ يأخذ الإنسان خبرات الآخرين ليستفيد منهم بتبادل المعرفة معهم، وليثير مشاكله ويعطي ما لديه من حلولٍ كي يستفيد الآخرون منه ويستفيد هو منهم.

الحج يحقق تبادل الخبرات مع الآخرين، في رواية أخرى وردت عنهم عليهم السلام بلسان يتناسب مع ذلك العصر غير أنه يمكن أن يطبق على عصرنا الحاضر.

كان من جملة ما يحصل للحاج لقاء الإمام عليه السلام وينطبق هذا على وجود العلماء والفقهاء والأخصائيين في مختلف جوانب الحياة فهم الذين يروون ظمأ الأمة، سأل شخص الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ

(١) عيون أخبار الرضا ؛ للصدوق ج١ ص١٢٦.

وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(الحج:٢٩) ما هو المراد بالتفث؟ فأجابهم عليه السلام: (لقاء الإمام عليه السلام)[1]، قوله عليه السلام: لقاء المعصوم يراد به في عصر الحضور؛ لأنّ الإمام عليه السلام يزيل كل الأوساخ والأدران التي تعلق بروح الإنسان ونفسه، كل درن علق بوجوده يزيله الإمام بمعرفته الكاملة، لأنه عليه السلام أكمل الناس، أما في عصر الغيبة عندما يلتقي المسلمون في موسم الحج بشرائحهم المختلفة، فإنّ العلماء هم الذين يزيلون ويدرءون ما علق بأنفس الناس من أدران، وبالتالي يتاح للأمة جمعاء أن تسير على الخطى التي رسمها إبراهيم عليه السلام وجسدها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.

الثانية: البركة

يسير المسلم على خطى الخليل في مساره إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ ومن معاني البركة، النمو، والاستقرار، والطمأنينة، والزيادة، كل هذه المعاني يجسدها الطواف، الطائف لا يطوف وحده، بل مع الآخرين الذين يطوفون يبتغون رضوان الله تعالى ليصلوا إليه عبر تجسيد حي لحقيقة الطواف حول البيت.

(١) تفسير الصافي ج ٣ ص ٣٧٦ عبد الله بن سنان عن ذريح المحاربي قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إن الله أمرني في كتابه بأمر فأحب أن أعلمه قال وما ذاك قلت قول الله عز وجل ﴿لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ قال عليه السلام ليقضوا تفثهم لقاء الأمام وليوفوا نذورهم تلك المناسك قال عبد الله بن سنان فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فقلت جعلت فداك قول الله تعالى ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم قال أخذ الشارب وقص الأظفار وما أشبه ذلك قال قلت جعلت فداك إن ذريح المحاربي حدثني عنك بأنك قلت له ليقضوا تفثهم لقاء الأمام وليوفوا نذورهم تلك المناسك فقال صدق وصدقت إن للقرآن ظاهرا وباطنا ومن يحتمل ما يحتمل ذريح.

الثالثة: الهداية

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ الهداية لها معانٍ:

منها: الدلالة على المطلوب بمعنى الإضاءة و إراءة الطريق بوضع منارات تُضيء للناس دروب الفضيلة والرشاد في كل عصر، لذا يترتب على الحج (الجنة)، قال ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[1] لأنه يوصل الحاج إلى الله تعالى ويمسح عنه الذنوب وينقيه من الأدران حيث لا يفكر في بقاء الذنب عليه بل أنّ ذلك من أعظم الذنوب وزراً، فمن حضر عرفة وهو يرى أنّ الله تعالى لم يغفر له فقد اقترف إثماً عظيماً.

الرابعة: آيات البيت

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ ليست آية واحدة، بل مجموعة من الآيات والعلامات تدلل على المطلوب، مقَامُ إِبْرَاهِيمَ هو الموقف الذي وقفه عليه السلام، وهو آية من أعظم الآيات التي تدلل على الحق سبحانه وتعالى، إبراهيم ع قطب التوحيد، وتنتمي إليه الديانات السماوية (الإسلام والمسيحية واليهود) بل أنّ كل واحدة منها ترى أنها أولى الناس بإبراهيم، لقد كان عليه السلام أمة وحده أخرج الناس من عبادة الأصنام وعبادة الطاغوت وعبادة غير الله إلى عبادة الله ليحقق لهم مجتمعين الأمن بالارتباط بالله والاستقرار الوثيق بينهم.

الخامسة: اجتماع الأمن كله في بيت الله

﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ (آل عمران:٩٦-٩٧) للأمن هنا معنيان:

الأول: أمن في التشريع، أجمع فقهاء المسلمين على أنّ من دخل البيت كان آمناً، حتى المحرم المعتدي؛ يضيق عليه كي يخرج من الحرم ليعاقب، أما ما دام في كنف الحرم

(١) عوالي اللآلي ج١ ص ٤٢٧.

فلا يجوز لأحد أن يتعدى عليه، هذا أمنٌ من الناحية الخارجية.

الثاني: الأمن من الناحية النفسية والمعنوية، إذْ يعيش الإنسان في أجواء التوحيد الخالص والانصهار في بوتقة عبودية الله تعالى بالطواف حول معلم واضح محدد من قبل الله ليصل إليه تعالى.

١٤-١١-١٤٢٣هـ

حِكَم الحج المعنوية

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ (آل عمران:٩٦-٩٧) صدق الله العلي العظيم.

يشتمل الحج على الكثير من الرموز والحكم يتعلق بعضها بعالم الدنيا وعلاقات الناس الاجتماعية مع بعضهم، ويرتبط بعضها بمسار الإنسان إلى الله تعالى كما أنّ بعضها الآخر له أسرار وحكم تتعلق بعوالم الغيب وانتقال الإنسان من عالم الدنيا إلى الآخرة.

الآية الآنفة تبين بعض الحكم والمصالح المتعلقة بالحج، وفيها:

أولاً: الكعبة أول بيت

لم يقل الحق تعالى «وضع للمؤمنين السائرين في طريقه» بل للإنسانية جمعاء.

وبكة اسم لمكة أو اسم للبيت العتيق، اسم للخاص أطلق على العام ومعنى بكة الزحام، فالناس الذين يأتون من أماكن مختلفة يزدحمون في الطواف حول البيت، وهناك دلالة في الاسم على الفعل -الازدحام- ازدحام الناس بمختلف توجهاتهم وبلدانهم وثقافاتهم وأفكارهم.

ثانياً: البركة

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ فيه بركة وهداية، وقبل أن نبين المعنى الدقيق للبركة والهداية وكيف يتحققان نشير إلى قدم البيت، لقد تحدث التأريخ والروايات عن الشطر الأول في الآية ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ ويظهر من الروايات والتأريخ أنّه كان قبل نزول آدم على سطح الكرة الأرضية محلاً للعبادة ومطافاً للملائكة باعتبار أنّ البيت المعمور فوقه، قال زرارة: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلني الله فداك، أسألك في الحج منذ أربعين عاماً فتفتيني! فقال: يا زرارة، بيت يحج قبل آدم عليه السلام بألفي عام، تريد أن تفنى مسائله في أربعين عاما؟!»[1] البيت منذ القدم محل لعبادة الحق تعالى، وقد لا نفهم مغزى ذلك، ولا تصل عقولنا إليه إلاّ أنه جاء في الروايات والآثار هكذا.

أما ما يتعلق بالشطر الآخر من الآية ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ إنّ الله تعالى لم يقل «مباركاً للإنسانية فحسب» بل للعالمين -جمع عالم- العالم له إطلاقان يطلق على الجن والإنس والملائكة، وله إطلاق آخر يشمل جميع عوالم الوجود كعالم الجماد والنبات والحيوان، والبيت بركة لكل عوالم الوجود، البركة هي الحصول على الشيء الكثير المتعدد بشيء قليل كالصدقة، الإنسان يتصدق بقليل من أمواله فتؤثر صدقته تأثيراً إيجابياً وتصبح أمواله مباركة، هناك أشياء مباركة كثيرة كماء زمزم ودعاء الصالحين والمساجد وقبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمعصوم عليه السلام، والبيت الحرام إذْ يذهب الحاج إليه فيؤدي النسك بيسر وسهولة مع قليل من المشقة، إنّ أكثر الناس يتحمل تلك المشقة وبإمكانه أن يحج أكثر من مرة، والعمل قليل غير أنه يحصل به على بركة في المال والولد والحياة.

ثالثاً: الهداية

﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ كي يتضح ذلك نشير إلى أنّ الإنسان يحمل في طبيعته الكثير

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١٢.

من التناقضات، فيه العطف والخلق الجميل وفيه الشراسة والظلم والبعد عن القيم، هناك تضاد يحمله الإنسان كفرد ويحمله المجتمع كذلك، ففي الإنسان الكثير من السلبيات والتناقضات بسبب المصالح والعوامل الكامنة في ذاته كالكبر والإنية وحب الإثرة والتسلط على الغير وما إلى ذلك من أمور، وهذه العوامل ترجع إلى الإنسان، فهو بفطرته له مصالح كامنة في ذاته يستطيع من خلال الصراع بين الجانب السلبي والإيجابي أن يسير إلى الله تعالى ويتكامل في مساره كفرد وكأمة فيها نفس التناقضات التي يحملها الفرد، لذلك نرى الصراع بين الإخوة رغم أنهم من أب واحد وأم واحدة، فيهم وئام من ناحية وصراع من ناحية أخرى، ولا يستطيع القضاء على التناقضات وتحويلها إلى ما يصب في صالح الإنسان والإنسانية وعوالم الوجود المختلفة إلاّ الأديان السماوية وأعظمها الدين الإسلامي، فله القدرة في توجيه مختلف توجهات الإنسان كمجتمع وأمة في بوتقة واحدة، وله القدرة في ملائمة الإنسان مع ذاته ومجتمعه ومع الناس كافة وكلما اقترب الإنسان من عالم القيم خلا من الحقد في ذاته، وزال التسلط عن شخصيته وأصبح يحب الناس كحبه لنفسه، خصوصاً عندما يتكامل ويقترب من عالم القيم، وقد عبر القرآن الكريم بتعبيرات مختلفة عن ذلك، منها ما جاء في الآية ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ فعندما يطوف الحاج مع من يختلف وإياه في الثقافة والمذهب والمحيط الجغرافي والعلم فهو يطوف مع من يتحسس منه وقد لا يميل إليه، ومع ذلك يجتمع وإياه ويدعو له ويقترب منه بما يحقق انسجاماً وإياه رغم عدم ارتياحه إليه بسبب اختلافه معه في اللون أو البلد أو الثقافة ولعل من أهم ما يلغي التمييز العنصري بين أمة وأخرى نسك الحج، إنّ بعض الأمم ترى فضلاً لنفسها على غيرها بل قد تعطي أرقاماً لكل أمة رتبة، والطواف ومناسك الحج يلغي ذلك عملياً ويرجع الإنسان إلى إنسانيته فقط، قد لا نستطيع أن نلغي الفوارق بالنظرية فحسب بل نحتاج إلى تجسيد وعمل وهذا ما يتحقق بالحج والطواف خصوصاً.

إنّ الاختلاف بين الناس سنة طبيعية فبعضهم يتقدم على بعضهم الآخر غير أنّ

ذلك لا يرجع إلى فارق ذاتي بل إلى عوارض لا تمثل حقيقة وجود الإنسان فهو لا يختلف في إنسانيته، وعندما يرجع إلى فطرته وإنسانيته ولا ينظر إلى ما طرأ عليه من عوارض لن يجد اختلافاً بينه وبين غيره، إنّ إدراك ذلك بركة تأتي من البيت الحرام، ويظهر لنا جلياً كيف يكون ذلك بركة فهو يلغي السلبيات التي تمحق البركة، إنّ الإنسان لديه خير كثير لكنه لا يستطيع أن يستفيد منه بسبب الصراع على خيرات الدنيا والظن أنّ ما يوجد من خير لا يكفي الجميع فيظلم غيره بالتعدي على حقوقه مع أنّ ما جعله الله تعالى من خير يزيد عن حاجة الناس والموارد المتوافرة في الطبيعة تكفي لأكثر من ٥٠ مليار إنسان لولا أنها تهدر بالحروب والتعدي على الطبيعة بسبب الصراع وحب التسلط وعدم التقيد بالقانون الذي يفرض حدوداً لا تتجاوز، وليس هناك شيء يجعل الإنسان يتنازل إلاّ الرجوع إلى الفطرة والتطبيق العملي لمبادئ الإسلام، عندئذٍ لن يرى لنفسه امتيازاً بأمواله أو بمحيطه الجغرافي أو بتقدمه العلمي أو بعرقه بل يرى الفضل لله تعالى ولن يستطل على غيره، إننا لا نستطيع القضاء عملياً على الفوارق المؤثرة سلباً والموجبة لظلم الإنسان لأخيه الإنسان ومحق البركة، كما هو حاصل فهناك أكثر من مليار جائع وهناك الملايين يموتون جوعاً، والسبب في ذلك الظلم وعدم مراعاة الحقوق، إنّ الإنسان من طبيعته أن يقدس القانون ويضع حقوقاً لغيره بل حتى للحيوان ولكنه يخرج عن فطرته ويضطهد أخاه الإنسان لأمور تطرأ عليه، فينطلق بأطر ضيقة تكرست في وجوده وينتهك قيم الإنسانية ويخرج عن فطرته ويكون ظالماً لنفسه أشبه بالحيوان المفترس، إذْ أنّ الافتراس ليس هو إزهاق روح حيوان لحيوان فقط، بل إنّ أعظم أنواع الافتراس أن يكون الملايين من البشر يموتون جوعاً رغم الثروات الكثيرة التي تمكن الإنسان من العلم والقانون وتتيح له التقدم والحفاظ على كرامته وتمنعه من الظلم والتعدي على غيره، إننا نرى بعض المسلمين يعتدي على غيره ويظلمه مضطهداً إياه، وما ذلك إلاّ لضيق أفقه، والآية الكريمة ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾ تخرجه عن ذلك الضيق وتزيل عنه تلك الفوارق وترجعه إلى

فطرته.

إنّ الله تعالى جعل الطواف حول البيت يتحقق به الكثير من الأشياء بعضها تزول إذا التفت إلى المعنى والمحتوى وطبق ذلك عملياً، فالإنسان قد يصلي ولا يستفيد من صلاته وقد يحج ولا يستفيد من حجه، ويقرأ القرآن والقرآن يلعنه، هذه مضامين روايات، إنّ الاستفادة من الحج تتأتى بالحج الإبراهيمي فهو الذي يرجع الإنسان إلى فطرته ويزيل الفوارق المصطنعة التي أطّرت فكره ووضعت حجاباً سميكاً على بصيرته وحجبت الرؤية عنه.

رابعاً: الآيات البينات

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ إنّ كل موطأ قدم في الحج آية من آيات الله تعالى، ومن أعظم الآيات التي نراها ما تحقق بدعاء ذلك الشيخ الكبير للمرأة مع ابنها الرضيع في أرض لا ماء بها ولا كلأ فتحول المكان إلى معلم للإنسانية جمعاء والناس كافة جاؤوا من أصقاع مختلفة ملبين دعوة الحق، إننا لا نستطيع أن نجمع ملايين البشر من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب بثقافات مختلفة في موسم واحد كما عليه الحال في الحج، بل لو اجتمعت دول العالم على ذلك لما استطاعت إليه سبيلاً غير أنّ النداء الإبراهيمي جذب الناس من مشارق الأرض ومغاربها ليس للاجتماع فحسب بل لأداء نسك محددة في الكيفية والوقت رغم زحمة المكان إلاّ أنّ الحاج يؤدي ذلك بلهفة وشوق وخضوع وخشوع، وانصهار في عبودية الله تعالى.

خامساً: مقام إبراهيم

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾(البقرة:١٢٥) إنه بطل التوحيد الخالد الذي أراد للإنسانية جمعاء أن يعرفوا الفارق الأساس بين التعلق بالله تعالى والتعلق بغيره، بتبيان أنّ الله تعالى قادر على إنجاء الإنسان من المحن التي تلم به مهما كانت

الصعاب، فمقام إبراهيم مصلى يفهم الناس ما تعرض له من ابتلاءات عدة وصراع مع الجبابرة والمتغطرسين وإشكاليات مع أقاربه ومع المجتمع غير أنه استطاع اجتياز كل تلك العقبات بتوكل على الله وصبر وصمود فلم يرى إلاّ الله تعالى -توحيد عملي خالص- الإنسان يمر بابتلاءات شتى في الحياة الدنيا لكنه يستطيع اجتياز الابتلاءات بالقدوة، وقدوة الإنسانية هم الأنبياء العظام والرسل الكرام الذين جسدوا الدروس الثرة في العطاء، ومقام إبراهيم عليه السلام يعلمنا ذلك ويبين أيضاً أنّ الأمن للعالم كله حتى لمن نختلف معه في الرأي، بل للحيوان إذا دخل الحرم، وحدود الحرم واسعة فالمشعر الحرام منه، والأمن للجميع وليس للإنسان فحسب، إنّ الله تعالى بيّن للناس ضرورة التقيد بالحدود والقوانين التي وضعها تعالى ليس للإنسان فحسب، بل للحيوان أيضاً إذا أحرم الناسك من تروك إحرامه حرمة الصيد فلا يستطيع أن يتعدى على الحيوان بل أنّ بعض الحيوانات غير الضارة لا يستطيع أن يلقيها عن جسمه إذا كانت تتضرر بذلك، الأمن بدرجة عالية في نسك الحج وبنحو عملي والمسلم عندما يتحدث عن الأمن يبين قوانين وأطر عملية لا يستطيع أحد أن يتعداها، بالطبع المسلم الملتزم فهناك كثير من المسلمين لا يعرف معنى القيم في الشرائع السماوية وقد يضحك عندما يسمع أهمية تطبيق أحكام الإسلام ويرى أنّ الغاية تبرر الوسيلة، والإشكاليات التي لا حدود لها في عالمنا الإسلامي بل في العالم كله ترجع إلى انعدام الأمن وإلى ظلم الإنسان لنفسه ولأخيه الإنسان وتعديه على القانون.

سادساً: الأمن

إنّ مقام إبراهيم عليه السلام يربط الخلق بالحق، ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ الله تعالى يريد أن يعلم الناس دروساً في الأمن والأمان من خلال التقيد بالقانون في مكان وزمان محددين، ومن التزم بذلك فاز وظفر غير أنّ بعض الظالمين لا يرى حرمة لمكة، وينتهك أقدس المقدسات ويتعدى على كل الحرمات لعدم تقيده بالقانون، الفارق الأساس

بين المسلم وغيره هو التقيد بأوامر الحق تعالى وأداء المناسك والشعائر على وفق ما أُمر، وبذلك تتجسد القيم والمثل، أما مع عدم التطبيق لأوامر الحق تعالى فالنتيجة هي الانسلاخ عن الهوية، إنّ الإنسان إما أن يتقيد بالشريعة فيسمو أو ينسلخ فيهوي، ويصبح في درجة الحيوان، الإنسان حيوان ناطق أي أنه ذو جنبتين جنبة العقل والفكر والجنبة الحيوانية وبها يتعدى على غيره ولا يتقيد بقانون بل يعيش حياة الغاب، إنّ الحج يرجع الإنسان إلى إنسانيته.

الجمعة: ١٣/ ١١/ ١٤٣١ هـ

الاستقامة والأمن الاجتماعي في نسك الحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾(البقرة: ١٩٧) صدق الله العلي العظيم.

الغاية من تشريع الحج

الحج عبادة من العبادات التي بُنيت عليها الشريعة الإسلامية في الجنبة العبادية، والعبادات بأجمعها شُرِّعت لربط الإنسان بالمبدأ المتعال من خلال الرؤية السليمة التي تجعل العبد ينظر إلى الله تعالى في جميع أعماله وأقواله، فيصبح على تقوى من الله تعالى، وذلك ظاهر خصوصاً في الحج كما أبانت الآية المباركة ذلك بالتركيز على أمرين:

الأولى: الانضباط في السلوك

ففي فريضة الحج تأكيد على الانضباط، ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾، والآية تلزم بالانضباط السلوكي من لدن الحاج، وتلك هي تقوى الله تعالى، ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُ﴾، إنّ الله تعالى عليم ومحيط بكل شيء، والعاقل يسعى للارتقاء في عالم المبادئ والقيم، ولإيضاح هذا المطلب أشار العلماء إلى وجود أزمة بين الإنسان وأخيه الإنسان من ناحية، وبين الإنسان والطبيعة من ناحية أخرى،

وإذا تحلت الإنسانية بالقيم زالت تلك الأزمة وتلاشى جانب الشر في الإنسان تجاه أخيه الإنسان وتجاه الطبيعة.

الثانية: الحج دافع نحو الاستقامة

ولا يستقيم الإنسان إلاّ من خلال العقل والارتباط بالحق تعالى، ويحقق ذلك الحج، فهو عبادة وسبيل للوصول إلى عالم تسوده القيم لكونه عبادة جماعية، إذِ الحاج لا يرتبط بالتقوى من الناحية الفردية فحسب، بل يكون تقياً مع المجتمع الذي يعيش فيه، ومع الناس الذين يتعامل وإياهم، وبذلك تزول أزمة القيم، وهذا ما نبّه عليه العلماء في قولهم: إنّ الإنسان يحتاج إلى انتماء اجتماعي، فلا يمكن أن يعيش بمفرده، غير أنّ هذا الانتماء تارةً يكون ضيقاً وأخرى يكون واسعاً، والضيق هو الذي يمثله الإنسان بارتباطه بمبدأ خاص يدعوه إلى التمحور حول ذاته أو فئته، فهو انتماء ضيق، أما الواسع فهو الانتماء إلى الباري تعالى لكونه خالق الكون الراعي لشؤونه.

نفع الآخرين من خلال الحج

أشارت أحاديث متعددة عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام إلى أهمية نفع الآخرين وإيصال الخير لهم، قال النبي صلى الله عليه وآله: ﴿الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله﴾[1] أي على الإنسان أن يتوجه إلى نفع العباد، ولا يتحقق ذلك إلّا بالتحول إلى معتقد لدى الإنسان ولا يتحول إلى معتقد إلاّ بالعبادة فهي سير عملي في السلوك إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ

(١) وسائل الشيعة ج ١٦ ص ٣٤١.

﴿ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ تبين الآية معنى عظيماً يستطيع الحاج إذا أدركه أن يحقق ما يريده الله تعالى منه بالعبادة، أما من يأتي بالعبادة دون أن يفقه معناها فلن يستفيد منها، بخلاف من يأتي بها ويعي معناها، فإنّ ذلك سوف يغير سلوكه وواقعه، ويترتب عليه أن يعلم ما يريده الله تعالى منه.

الحج والأمن الاجتماعي

التغيير الأول في السلوك من خلال الأمن ولا يراد هنا بالأمن الأمن الشخصي وإنما يراد به الأمن الجماعي لكل المجتمع الإنساني، ويبدأ ذلك في دائرة أضيق، هي دائرة المجتمع الإسلامي، لذا أكدت آيات متعددة على الأمن الاجتماعي، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾(آل عمران:٩٦) أي أنه بعد المَعْلَم الأول وهو أنّ الحج أشهر معلومات سوف ينبثق منه تغيير السلوك النفسي والتوجه في مسار الإنسان.

الإنسان والأمن الاجتماعي

فأول تغيير يتحقق للإنسان هو توافر الأمن للمجتمع الإسلامي بانتماءاته المتعددة وأفكاره المختلفة وثقافته المتنوعة، ويتيح ذلك للمجتمع أن يسهم في السلم والأمن للإنسانية جمعاء من خلال الحج الذي انبثق منه تقوى الله تعالى، فيكون ذلك سلوكاً يحقق الأمن الاجتماعي والنفسي للمجتمع الإسلامي، ومن ثَمّ تغيير الأمن كسلوك حضاري يسهم به المسلم في المجتمع الإنساني، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

البيت الحرام بركة وهداية

وهنا ندرك معنى البركة والهداية للعالمين، وليس للعالم الإسلامي وحده، بل لكل العالمين، وذلك من خلال ما يحققه البيت الحرام من مكاسب وفوائد نوجزها في الآتي:

الأول: الأمن والبركة

الحاج المسلم مسؤول عن أمن المجتمع الإسلامي بل عن أمن المجتمع الإنساني، وعندئذ يمكنه أن يستوعب معنى الحج، ويعي ما يريده الله تعالى، ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾، والبركة هي الزيادة والنماء.

الثاني: الهداية العامة

البيت الحرام هداية لكل العالمين، والهداية تأخذ طابعاً أشمل من الهداية للمجتمع الإنساني بمعنى أن يتقاطع المجتمع الإنساني مع بقية المجتمعات التي تعيش معه كعالم الحيوان في علاقة يسودها الوئام، وهذا ما أشارت إليه بعض الروايات في عصر الإمام المهدي عليه السلام، إذْ يسود الأمن كل عوالم الوجود حتى عالم الحيوان، وهذا وإن بدا عجيباً غير أنّ الأمن والعدل كفيلان بتحقيقه، والحج يمهد له قال تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(آل عمران:٩٧) أي أنّ الأمن هدف وغاية من تشريع الحج.

القرآن والأمن الاجتماعي

هناك آيات تركز على الأمن للمجتمع الإسلامي أولاً ومن ثَمَّ للمجتمع الإنساني بأكمله، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ

وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(المائدة:٢) الآية مرتبطة بالحج وتوضح أنّ التعاون بين أفراد المجتمع على البر والتقوى، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ والمسلم إذا نظر إلى معطيات الحج سيرى أنّ من أهمها الأمن في المجتمع الإسلامي، ويعقبه الإسهام بتحقيق الأمن بين أفراد المجتمع الإنساني.

الجهاد وأمن المجتمع

حتى الجهاد في الشريعة الإسلامية شُرع لتحقيق الأمن، قال بعض الفقهاء إنّ الجهاد شُرع دفاعاً عن مبادئها، بل الجهاد كله دفاعي، ولا يحق لأحد أن يهجم على غيره، وإنما له الذود والدفاع عن نفسه فحسب، إنّ الله تعالى يريد للمجتمع الإنساني أن يعيش الأمن والأمان ويتعاون على البر والتقوى، ليتحقق التعاضد بين أفراد المجتمعات الإنسانية جمعاء بالتعاون على البر -العطاء الواسع- ولم يُقيد في الآية ليسهم في بناء المجتمع الإسلامي، ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ﴾، ثم أبانت الآية نهي الباري تعالى عن التعاون على الإثم والعدوان، وهذا معطىً من معطيات الحج، أي أنّ الحج يُبين لنا ما يريده الله تعالى من الحاج، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(النمل:٩١) والآية تبين مقاصد الحج بأنّ العبادة لله تعالى الذي جعل الأمن والأمان لهذا البلد الطيب -مكة-، وهو مالك لملكوت السماوات والأرض، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أما الأمر بأن يكون من المسلمين فيقصد به الاستسلام لله تعالى بالمعنى الواسع، ولا يختص بالإسلام

بمعناه العقدي -تشهد الشهادتين-.

الفهم السليم للحج

يحمل الحج في جانبه المعنوي روح التغيير على المستوى النفسي والسلوكي، وينعكس على فهم الحاج فيعي معناه بل يظهر ذلك في ألفاظه عندما يقول: «أنا حججت ولن أفعل حراماً ولن أقترف قبيحاً» ويعني ذلك أنّ مكونه العقدي شكّل له فهماً سليماً، مكنه من العيش بوئام مع الآخرين، والسير في صراط عبودية الله تعالى.

الجمعة: ٥/ ١١/ ١٤٢٨ هـ

القسم الثاني:

أسرار أعمال الحج

الفصل الأول: السفر إلى الحج

الاستعداد المعنوي للحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(آل عمران:٩٧) صدق الله العلي العظيم.

للحج أبعاد مختلفة، من أهمها البعد المعرفي، فقد أكدت الروايات على أنّ الحج لابد أن يقترن بارتباط وثيق بالله تعالى وأن يكون جسراً يُوصل إليه تعالى منذ التهيؤ له حتى الانتهاء منه.

حقيقة الإحرام

قال الإمام الرضا عليه السلام: «إنما أُمروا بالإحرام ليخشعوا قبل دخولهم حرم الله وأمنه، ولئلا يلهوا ويشتغلوا بشيء من أمور من الدنيا وزينتها ولذاتها، ويكونوا جادين فيما هم فيه، قاصدين نحوه، مقبلين عليه بكليتهم»، يبين الإمام عليه السلام في هذا الحديث أنّ نسك الحج والإحرام له يراد به أن يخشع المحرم لله تعالى عند إحرامه مقترناً بذكر الله تعالى، فإذا دخل الحرم ووصل إلى مرتبة التعلق به تعالى فلا ينبغي له أن يلهو عن ذكر الله تعالى، ولا يشتغل بشيء من أمور الدنيا وزينتها ولذاتها، ثم أبان الإمام عليه السلام أنّ المحرم بعد خشوعه وانقطاعه إلى الله عليه أن يكون جاداً مقبلاً بكُله، وبذلك يتاح له أن يصل إلى درجة عالية في إقباله على الله تعالى والانقطاع له.

التهيؤ للحج

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أردت الحج فجرد قلبك لله من قبل عزمك من كل شاغل وحجاب كل حاجب، وفوّض أمورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك وسلم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحة والخلق وأخرج حقوق تلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك، مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً» ثم قال: «من أدعى رضى الله واعتمد على شيء سواه، صيره عليه عدواً و وبالاً ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد، إلاّ بعصمة الله وتوفيقه»[1].

ترتبط هذه الكلمات بما ينبغي للحاج أن يكون عليه قبل أن يتوجه إلى الحج، وفيها مطالب عدة:

الأول: تجريد القلب لله تعالى

تجريد القلب لله تعالى وإخلائه من كل شاغل بحيث لا يشتغل قلب من أراد الحج إلاّ به تعالى، لأنّ من الواضح ارتباط حصول المعرفة بالتهيؤ لها، وقد أكد العلماء على أنّ حصول المعرفة يتوقف على ذلك، فإنّ من أراد شيئاً استعد له، لأنّ الاشتغال بغيره ينسيه، وقوله عليه السلام: «فجرد قلبك لله من قبل عزمك من كل شاغل وحجاب كل حاجب»، أي دع ما يُشغلك عن الله تعالى وأخلِ قلبك منه، لأنّ كل حجاب سواء كان من الحجب الظلماتية أو النورانية، كالحسد والعلم لابد من إزالته عن القلب ليتاح له أن يخلى لله تعالى.

الثاني: تفويض الأمور لله تعالى

بين الإمام عليه السلام مطلباً هاماً هو لابدية تفويض الأمور إلى الله تعالى والاتكال

(١) بحار الأنوار ج٩٦ ص ١٢٤.

عليه، «وفوّض أمورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك»، إنّ تفويض الأمر إلى الله تعالى لابد أن يقترن بالكدح والجد، فمن يتوكل على الله تعالى سيفوض أموره إليه، ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (آل عمران:٩٧) وعندئذ فإنّ من يتوكل على الله تعالى سيكفيه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق:٣)، وسيكون جاداً في مساره مستعداً لهذه الرحلة الإلهية، وسيصل إلى معرفة الله وينال رضوانه تعالى.

الثالث: التسليم لقضاء الله

إنّ التسليم لقضاء الله وحكمه تعالى، الذي لا يُرد إلاّ بأمره تعالى، أي أنّ ما أنفذ قضائه في خلقه لا ينبغي للعبد أن يعترض عليه، بل عليه أن يسلم لقضائه وأن يرضى بحكمه تعالى.

الرابع: أداء الحقوق

ثم نبه الإمام عليه السلام أن الحج طريق لتوديع الراحة وتوديع الخلق وإخراج الحقوق للناس ولله تعالى فمن كان عليه حق لله أداه ومن كان عليه حق للناس خلص منه، وودَّع الدنيا لأنه مقبل على الله تعالى ولا يعلم أنه سيعود إلى ما كان عليه، إنّ الحج رحلة إليه تعالى، وتوديعٌ للدنيا والراحة والخلق، قال عليه السلام: «وإخراجٌ لحقوقٍ تلزمك من قبل المخلوقين»، وتأكيد الإمام عليه السلام على حقوق الناس لأهميتها وليس بمعنى عدم تأدية الحقوق الإلهية بل هي لازمة على المكلف.

الخامس: الاتكال على الله تعالى

ثم أبان الإمام عليه السلام أنه لا ينبغي للعبد أن يعتمد في مساره إلا على الله تعالى، قال عليه السلام: «ولا تعتمد على زادك وراحلتك»، إنّ ما لدى الإنسان من مالٍ وطعام ونعمٍ

أخرى لن يغنيه عن الله تعالى، فقد تتوافر جميع الأسباب له ولا يتاح له أن يصل بها إلى الله تعالى، وقد تصعب عليه الأسباب ويسهل الوصول إليه تعالى؛ فكم شخصٍ هيأ جميع الأسباب لكنه لم يصل إلى الحج، وحالت دونه الأحوال، وكم شخصٍ لم يتوجه ولم يستعد وإذا بالعناية واللطف الإلهي يهيئان له الأسباب، «ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك» إن السفر للحج يختلف عن غيره وينبغي أن يُعتمد فيه على الله تعالى وأن يُتوكل عليه فمن اعتمد على غيره وكله الله تعالى إلى ما اعتمد عليه، أما من توكل على الله تعالى واعتمد عليه هيّأ الله له الأسباب وسهل له العسير، «مخافة أن يصير ذلك عدواً ووبالاً، قال عليه السلام: من ادعى رضى الله واعتمد على شيء سواه»، أي أنّ من أراد أن يصل إلى مقام الرضا، وأن يكون الحق تعالى راضٍ عنه، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(التوبة:٧٢) فلا يعتمد على غيره تعالى، وذلك مقام لهي شامخ ورفيع لن يصل إليه من اعتمد على غيره تعالى بل سيكون ما اعتمده عدواً له ووبالاً عليه، «فإنّ من ادعى رضى الله واعتمد على شيء سواه صيره الله عدواً ووبالاً» لإبعاده عن الله تعالى.

السادس: الاعتصام بالله

قال عليه السلام: «ليعلم أنه ليس له قوة ولا حيلة ولا لأحد إلاّ بعصمة الله وتوفيقه»، إنّ السبب الرئيس أن يعلم المرء أنه ليس لأحد تصرف ولا قدرة ولا حيلة ولا حول ولا قوة إلاّ بالله تعالى، ووصول الشخص إلى علم يقينٍ أنه ليس لأحد حول ولا قوة إلاّ بعصمة الله، وأنّ من اعتصم بالله هُدي إلى صراط مستقيم، ومن هيأ نفسه هذه التهيئة وصل إلى مرتبةٍ عالية من معرفته تعالى وحضي برضوانه.

الجمعة: ٨/ ١١/ ١٤٢٩هـ

التوحيد العملي للحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾(الحج: ٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

نداء الحج الإبراهيمي

بعد بناء الكعبة من الخليل عليه السلام مع ابنه إسماعيل أُمر من قبل الحق تعالى أن يُعلن للناس وجوب الحج ولم يكن في مكة آنذاك إلاّ القليل من الناس، والأمر عام لجميع الناس، ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾.

الأمر الإلهي بالحج شامل للخلائق أجمعين في زمان الخليل عليه السلام وفي الأزمنة اللاحقة من بعده، ومن المعلوم أنّ إيصال البلاغ إلى الناس في زمانه صعب فكيف بإيصاله إلى الخلائق عبر الأزمنة المختلفة والأحقاب المتعددة، من هنا استفسر الخليل عليه السلام من الحق تعالى قائلاً إذا ناديت من يبلغ ندائي إلى الخلائق -الأحقاب المتعددة والأجيال المتلاحقة- فجاءه النداء من قبل الله تعالى: يا إبراهيم عليك النداء وعلينا البلاغ، فصعد الخليل عليه السلام فوق صخره وقال أيها الناس هلم الحج، و«هلم» في اللغة تشمل المفرد والمثنى والجمع، فهي للخلائق أجمعين.

إيصال النداء الإبراهيمي

أبانت بعض الروايات كيفية إبلاغ النداء الإبراهيمي إلى الخلائق أجمعين، وكيف أجاب بعض الخلق دون بعضهم الآخر، قال الإمام الصادق عليه السلام فأجابته الخلائق والنطف في أصلاب الرجال[1].

حقيقة إجابة الخلائق

إنّ إجابة الخلائق للنداء في كلام الإمام الصادق عليه السلام هي إجابة تكوينية للوجود الحقيقي للإنسان، وليست بلسان الحال، والإنسان في عصرنا لم يسمع نداء الخليل عليه السلام ولكنه أجابه في عوالم ما قبل الخلق إجابة حقيقية بوجوده.

مغزى تلبية النداء الإبراهيمي

ثم واصل الإمام الصادق عليه السلام حديثه حول إجابة الخلائق، فقال: «فمن لبى عشراً يحج عشراً، ومن لبى خمساً يحج خمساً، ومن لبى أكثر من ذلك فبعدد ذلك، ومن لبى واحداً حج واحداً، ومن لم يلب لم يحج» أي من لبّى ثلاثاً حجّ ثلاثاً ومن زاد كان بحسابه.

---

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١٠: عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لما أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ببناء البيت وتم بناؤه قعد إبراهيم على ركن ثم نادى: هلم الحج، فلو نادى: هلموا إلى الحج لم يحج إلا من كان يومئذ إنسيا مخلوقاً، ولكنه نادى: هلم الحج، فلبى الناس في أصلاب الرجال: لبيك داعي الله، لبيك داعي الله عز وجل، فمن لبى عشراً يحج عشراً، ومن لبى خمساً يحج خمساً، ومن لبى أكثر من ذلك فبعدد ذلك، ومن لبى واحداً حج واحداً، ومن لم يلب لم يحج.
وفيه: عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن الله لما أمر إبراهيم ينادى في الناس بالحج قام على المقام فارتفع به حتى صار بإزاء أبي قبيس، فنادى في الناس بالحج، فاسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى أن تقوم الساعة.

النداء الإبراهيمي إقرار توحيدي

هذا النداء الإبراهيمي للخليل عليه السلام فيه حكم ومصالح مترتبة على الحج، ذلك أنّ الخليل عليه السلام هو بطل التوحيد، يريد من الخلائق أن توحد الحق تعالى وأن تجعل مسارها إلهياً توحيدياً، والإنسان لمحدودية إطلاعه وسيطرة الأهواء والشهوات عليه يصعب عليه أن يجيب إجابة حقيقية لنداء الخليل عليه السلام، أي أن يكون موحداً نظرياً وعملياً.

التوحيد النظري والعملي

التوحيد النظري إيمان بأنّ الله تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الحي القيوم، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، أما التوحيد العملي فهو الإطاعة المطلقة والتامة للموحد، فلا يستعلي ولا يستكبر بل يُسلِّم بأوامر الحق ويجيب إجابة تامة.

التلبية هي الطاعة المطلقة

التلبية معناها الإجابة المؤكدة، فإذا نودي شخص وأجاب بالتلبية فإجابته بالتلبية معناها الطاعة المطلقة دون سؤال واستفسار من الداعي، أي أنّ الإجابة تتضمن عمقاً مضمونياً فهي إجابة دون سؤال عن الغاية والهدف من الآمر.

التلبية تسليم للمطلق

إنّ الله تعالى عبّدنا بأوامره، فأمرنا بالصلاة والزكاة وسائر العبادات والطاعات غير أنّ كثيراً من العبادات يعي الممتثل لها بعض مصالحها والحكم المترتبة عليها، فمن صلّى يعلم بأنّ الهدف من الصلاة هو الخضوع للحق تعالى بالسجود والركوع له تعالى، ومن عرف عظمة الحق تواضع له وسلم تسليماً، إذِ المرء يُسلِّم إذا عرف الغاية وأدرك الهدف لكنه لا يُسلِّم إذا لم يعرف ذلك وإنْ كان عدم معرفته يبتني على معرفة غير أنه يصعب عليه التسليم بما لا يعرف الحكمة منه مباشرة، فمن عرف بحكمة حكيم فلن

يطيعه في جميع أوامره دون معرفة بالحِكَم المترتبة عليها أما إذا بيّن الحكيم بعضاً من المصالح وأوضح الحكمة فسوف يمتثل أمره.

الغاية من الحج

إنّ غاية الحج وحكمته أن يطيع الحاج طاعةً عملية وذلك بنحوين:

الأول: الطاعة للنسك المعروفة المقاصد الواضحة الأهداف.

الثاني: الطاعة العملية لبعض النسك التي لا يعي منها المقاصد.

كيفية الطاعة العملية

الطاعة العملية تتجلى بوضوح في بعض النسك التي لا يعي منها الناسك مقاصدها، ولا يعلم حكمتها وإنْ كان يعلم أنّ لها حِكَم تترتب عليها غير أنه لا يعرف تلكم الحكم ولا يعي تلك المقاصد.

مظاهر الطاعة العملية

تتضح الطاعة العملية من خلال ما يُشاهد من طاعة الجنود لقادتهم العسكريين دون إيضاح لأهداف القادة، لأنّ أهدافهم في بعض الأحايين سرية وعلى الجندي أن يطيع بطاعة مطلقة ليصل القائد إلى الغايات والمقاصد. والشريعة كذلك، بعض أوامرها لا يعي المتعبد حكمه وأسراره، لأنّ الله تعالى تعبد الإنسان ببعض الأوامر كالصلاة التي يعي الحكم والمصالح المترتبة عليها وتعبد عقله ببعض الطاعات التي لا يعي العقل أسرارها والحكم والمقاصد المترتبة عليها، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب:٣٦) فإذا أمر النبي ﷺ بأمر لا يخطئ أمره فيقال له يا رسول

الله الصواب أن تأمر بغيره، إنّ بعض المسلمين أشكل على النبي ﷺ عندما أبرم صلح الحديبية، فقال يا رسول الله وهل نعطي الدنية في ديننا، وهل هذا إلاّ الذل.

محدودية العقل البشري

إنّ عقل الإنسان لمحدودية معرفته للمسائل لا يعي بعض الحيثيات فلا يسلم بها، ويريد الله تعالى منه أن يخضع طائعاً ومتواضعاً عابداً في عمله بعقله ووجدانه بجوارحه وجوانحه وكل وجوده، كما خضع الخليل عليه السلام عندما أمر بذبح ابنه، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾(الصافات:١٠٣) هذا المعنى الحقيقي للإسلام، فالإسلام معناه الظاهري التشهد بالشهادتين وهو الإطار القانوني الذي يشمل جميع المسلمين، فمن تشهد بالشهادتين فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، حرُم ماله ودمه وعرضه، وهناك معنى حقيقي للإسلام هو الاستسلام والخضوع لله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٦٣﴾(الأنعام:١٦٢- ١٦٣) ومن لم يعِ المقاصد لا يسوغ له أن يستشكل كما أُشكل على النبي ﷺ.

الاعتراض على الأحكام

بعض الناس قد يمتلك ثقافة ناقصة ومعرفة غير تامة ويُشكل على بعض الأحكام، فقد أُشكل على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ورد أنه عليه السلام قال لبعض العبّاد: «لا تسرف في الماء»، فقال للإمام عليه السلام: أتنهاني عن الإسراف في الماء وتسرف في الدماء، هذا الشخص لم يَعِ مقام العصمة، ومقام الولاية الربانية من الحق تعالى، وقد يتكرر ذلك عند خروج المهدي عليه السلام، كما تشير إلى ذلك الروايات، فبعض من يدعي العلم يشكل على الإمام المهدي عليه السلام في تصرفه ويقول يا بن رسول الله: إنك أخطأت دون وعي لمقام الإمامة بخلاف من أذعن للحق وتواضع له كالمقداد فإنه أجاب النبي ﷺ قائلاً: يا رسول الله لا نقول لك كما قالت اليهود لموسى عليه السلام اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، بل نقول لك اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله يا

رسول الله لو خضت بنا لجج هذا البحر لخضناه معك، المقداد لا يعي حكمة طلب خوض البحر منه غير أنه يسلم تسليماً ليقينه التام وعلمه بركائز الأمر الإلهي.

التشريع قائم على المصلحة والمفسدة

إن الله تعالى لا يأمر إلاّ بما فيه الخير، وإذا أمر النبي ﷺ بالجهاد فأمره تترتب عليه مصالح قد لا يعيها المجاهد، والحاج مجاهد في أدائه لنسكه، يؤديها دون علم بالأسرار والحكم الخفية المترتبة عليها إذْ يصعب على العقل أن يصل إلى كنهها والحكمة منها، نعم قد يدرك بعض الحكم دون الأسرار الخفية فمن يرمي الجمرة بسبع حصيات قد لا يعي حكمة الرمي، إنّ الحكمة من رمي الخليل هي تجلي الشيطان له فرماه بسبع حصيات غير أنّ الحكمة خفية في رمي الحاج للجمار، وكذا في سعيه بين الصفا والمروة، وأمر الله تعالى للخليل عليه السلام ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾، أمر يراد به العبودية المطلقة لأنّ الله تعالى يعبد سلوكياً وجوارحياً وجوانحياً وإنْ لم يفقه العابد حكم وأسرار الأوامر، غير أنّ عليه أن يذعن للحق ويسلم تسليماً ليصل بالتسليم والإذعان والانقياد التام للحق تعالى الهدى إلى الصراط المستقيم، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾(الفاتحة:٧).

المؤمن بين التوحيد النظري والعملي

إنّ الموحد قد يعي معادلات التوحيد النظري، ويفهم أنّ الكون خلقه الله تعالى وإليه يرجع، غير أنّ التوحيد العملي هو الذي عليه المدار في تكامل الإنسان ورقيه ووصوله إلى درجات العلى و يحتاج إلى الإذعان والتسليم.

الإجابة للنداء الإبراهيمي تتضمن التسليم والطاعة المطلقة للحق تعالى، ويترتب على ذلك الحج آثار وثمرات لا يعلم بها إلاّ الله تعالى.

الجمعة: ١٢/ ١٠/ ١٤٣٠هـ

التلبية في آفاقها المعرفية

قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ*لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

التلبية والتوحيد الخالص

ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة يوم النحر قوله: «هذا يوم الثَجُ والعَج»[١]، وفُسِّر العج بالتلبية، إذ أنَّ من أهداف الحج الذكر لله، قال تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ﴾(الحج:٢٧)، وأعظم الذكر التلبية، فإذا كان من الأهداف الكبيرة التي من أجلها شُرِّع الحج الذكر الذي يؤدي إلى التوحيد الخالص عملاً وسلوكًا، فالتلبية التي يلبيها الحاج تجسد المعاني الكبرى في توحيد الله، وهو ما يجعلنا ننتبه إلى أنَّ الأذكار في العبادات تختلف من حيث العمق والمضمون، فكلمة التهليل «لا إله إلا الله» من أهم الأذكار كما ورد في الروايات، وكذلك العج وهو الجهر بالتلبية، لما يشتمل عليه مضمون التلبية من عمق التوحيد نظريةً وسلوكًا.

فلسفة التلبية في أغوار معانيها

أوضح أهل البيت عليهم السلام معنى التلبية في روايات متعددة، فقد سُئل

(١) مستدرك الوسائل ج ١٠ ص ١٢٩.

الإمام الباقر عليه السلام لِمَ سُميت التلبية تلبية؟ قال: «إجابة أجاب موسى عليه السلام ربه»[١]، وجميع الرسل والأنبياء لبَّوا، إجابةً لله بعد إجابة. قال علماء اللغة: إنَّ لبَّى بمعنى استقر وأقام ومكث واَلتصق بالمكان، ويعطينا هذا أنَّ مضمون التلبية هي إجابة بعد إجابة وذكر لله بعد ذكر والتصاق بالتوحيد بعد التصاق، وسنستعرض الآن جملة من معاني التلبية من خلال تبيان خمسة مضامين عالية، أبانتها فقرات التلبية الموجزة:

الأول: الإجابة المستمرة لله تعالى

إنّ «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك» تعطينا مضموناً عميقاً في التوحيد يحقق الإجابة بعد إجابة لله تعالى، وليس إجابة واحدة، وهذا معنى عميق في توحيدنا لله تعالى، نستعين به على منحنا لهذه النعمة الكبرى وهي إيصالنا إلى العمق المضموني للتوحيد، فـ«لبيك اللهم» تعني: استعين بك يا الله لإيصالي إلى هذا العمق في التوحيد؛ لأنَّ اللهم في اللغة بمعنى ادعوا الله، فالياء بدل فعل مقدر محذوف تقديره أدعو الله تعالى.

الثاني: نفي الشرك بأنواعه

«لبيك لا شريك لك لبيك»، أي أنَّ هذه الإجابة لك لا شريك لك لذا يستشكل بعض العلماء من فقهاء مذهب أهل البيت عليهم السلام في إجابة المنادي حال الإحرام بالتلبية، فإذا دعاك شخص في غير حال الإحرام جاز من باب الاحترام أن تقول لبيك مجيباً لكنك إذا أحرمت ولبيت لا يجوز أن تجيب أحدًا بالتلبية، -رأي بعض العلماء-.

وعندما نقول: «لا شريك لك»، أي، لا شريك لك في التوحيد، ولا شريك لك في الطاعة، ولا شريك لك في الحكم، ولا شريك لك في الألوهية، ولا شريك لك في

(١) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٣٧٦.

الربوبية، وفي كل ما يشتمل عليه معنى التوحيد من عمق مضموني، فلا شريك له في توحيده، لأنّ ذاته واحدة، وعندما نأتي إلى معنى التوحيد والتقاطع بين ما نستفيده منه والتوحيد في التلبية، فالتوحيد في القرآن الكريم يترتب عليه وصف الباري بأنه الواحد القهار، أي جميع الحدود مقهورة لوجوب وجوده تعالى بخلاف وجودنا فهو محدود بحدود عدمية، فكل وجودنا محتاج، ولا توجد جهة للغنى في وجودنا فلولا الأكسجين لما وجدنا، ولولا الغذاء لانعدمنا ولولا.. ولولا.. ولولا.. لما وجدنا ولولا تعامل الآخرين وإيانا وتعاملنا وإياهم لما استمر وجودنا باقياً، وهلم جرا في حاجات الإنسان المدركة بنظرة بسيطة فهو يدرك ما يشتمل عليه فقره وحاجته من ربطٍ وثيق بالله تعالى، وهذا معنى: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾(آل عمران:٢)، فقيومية الباري على جميع ذرات الوجود فلا ذرة ولا جزيء في عالم الوجود إلا وهو خاضع لقيومية الحق فـ«لبيك لا شريك لك لبيك لا شريك لك» في الحاكمية، ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾(يوسف:٤٠) وكذا في العبودية؛ لا يجوز لأحد أن يعبد غيره، فإنّ العبودية والحكم لله تعالى، إنّ جميع معاني التوحيد لله متضمنة في «لبيك اللهم لبيك».

الثالث: انحصار الحمد في الله تعالى

«لبيك لا شريك لك لبيك إنَّ الحمد» الثناء المطلق، والشكر لله، وعندما نمدح الآخرين ونثني عليهم فلنعلم بأنّ ما لديهم هو منه تعالى، فمن أين لهم أن يقدموا شيئًا لم يُقَدِّره الله ويريده، إنَّ ما يسديه الغير من نِعمٍ إنما هو بتقدير من العزيز الحكيم، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾(القمر:٤٩) الله تعالى هو المقدر وهو المعطي وهو الرازق الخالق وهو الحي القيوم فـ«لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد»، فكل الثناء والشكر يرجع إلى الله وهو معنى ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:٢)، الألف واللام إما للجنس أو

للاستغراق وعلى كلا المعنيين فإنّ جميع الحمد والثناء لله رب العالمين.

الرابع: كل النعم منه تعالى

«إنَّ الحمد والنعمة لك والملك»، والنعمة جميعها له ومنه تعالى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾(النحل:٥٣)، فلا شريك له في عطائه ونعمائه «والنعمة لك لا شريك لك»، جميع ما بكم وما عندكم وما لديكم مما تتمتعون به من نِعمٍ إنما هو لله رب العالمين.

الخامس: الملك الحقيقي لله تعالى

«إنَّ الحمد والنعمة لك والملك» المالك الحقيقي هو الله تعالى، وجميع ما نراه في عالم الدنيا إنما هو ملك اعتباري، فهو تعالى يهلك ملوكاً ويستخلف آخرين، إنّ ملك غيره اعتباري لا يستطيع من لديه الملك والسلطان أن يُقاوم القدرة الإلهية لله، وإذا أراد الله تعالى إبقاء الملك فهو باقٍ أو إزالته زال، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾(يس:٨٢)، وإذا أدركنا هذا العمق لكلمة التوحيد أدركنا السر الذي بينه أهل البيت عليهم السلام الترجمان الصادق للقرآن الكريم، إذْ لا يستطيع أحد أن يفهم هذه المعاني إلا من طريق محمد وآله صلوات الله عليهم أجمعين.

المفهوم التطبيقي لذكر الله عند أهل البيت

جسد أهل البيت عليهم السلام الجانب التطبيقي لذكر الله تعالى من خلال سلوكهم الدقيق، حج سفيان ابن عيينه -من أكابر الفقهاء- مع إمامنا زين العابدين عليه السلام فلما أتيا إلى الموقف لبّى سفيان على عجالة، أما الإمام عليه السلام فعندما قال: «لبيك اللهم لبيك» خر باكيًا؛ لأنه يدرك المعنى العميق للتلبية، قال سفيان بن عيينة ما زلت مع الإمام عليه السلام نهبط واديًا ونقف في موقف أي نتحرك من موقف إلى آخر والإمام عليه السلام

يلبي ويخر مغشيًا عليه إلى أَن انتهى به الحج[١].

إنه درس عظيم في المعنى العميق لذكر الله تعالى، المشار إليه في قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾(الحج:٢٧)، وأيضاً حج مالك بن أنس مع إمامنا الصادق عليه السلام، فلبّى مالك ولبّى غيَره، ووقف الإمام الصادق عليه السلام متأملاً يريد أن يلبي إلا أنه كلما أراد أن يلبي تقاطرت دموعه على خديه، فالتفت إليه مالك قائلاً: يا بن رسول الله لابد لك أن تلبي، قال الإمام عليه السلام: «يا ابن أبي عامر، كيف أجسر أن أقول: لبيك اللهم لبيك؟ وأخشى أن يقول عز وجل: لي: لا لبيك ولا سعديك»[٢]، نحتاج هنا أن نتعرف على الخوف من الله تعالى في السلوك العملي، بأن نخاف منه في كل عملٍ نقوم به تجاه أنفسنا وتجاه الآخرين، إنّ الحاج إذا أدّى عباداته مُدركاً لهذا المعنى العميق رجع كيوم ولدته أمه لا ذنب عليه، قد أعطي من المنح الإلهية التي لا يدركها إلا الباري تعالى، ويُفهم ذلك من قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾، ذلك أنّ الحج من أهم المنافع التي تبني الإنسان سلوكًا يطبق تقوى الله عملاً.

(١) في عوالي اللآلي ج٤ ص ٣٥: روى سفيان بن عيينة قال حج زين العابدين عليه السلام فلما أحرم واستوت به راحلته اصفر لونه ووقعت عليه الرعدة ولم يستطع أن يلبي فقيل ألا تلبي فقال أخشى أن يقول لي لا لبيك ولا سعديك فلما لبى خر مغشيا عليه وسقط عن راحلته فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه.

(٢) في مستدرك الوسائل ج ٩ ص ١٩٧.

مضامين التلبية

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

أسرار التشريع :

شرعت جميع العبادات في الإسلام لفوائد ومنافع تعود على المكلفين، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، والصوم يقرب الإنسان إلى تقوى الله تعالى، أما الحج فهو عبادة تحقق مجموعة من المنافع، أفصحت الروايات الواردة عن هذه المنافع والعوائد التي تعود على البشرية جمعاء بالخير والرفاه وليس على المسلمين فحسب.

التلبية تحقق رضوان الله تعالى

«لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك».

في التلبية أسرار كثيرة: فهي تحقق التسليم بالرضا تشريعاً وتكويناً، أما في التشريع فيتحقق ذلك بالتلاؤم والانسجام بين ما يأمر به الله تعالى وينهى عنه وبين السعادة الحاصلة للإنسان، وأما في التكوين فيتجسد ذلك بالإيقان بأنّه تعالى إذا قضى أمراً وقدره كالإحياء والإماتة وسعة الرزق وتقتيره، فإنّ فعله وعطائه وتوسعته وتقتيره للرزق على عباده لحكمٍ ومصالحٍ قد لا يُدركها الناس فيحتاجون إلى إذعانٍ وإيقانٍ

وتسليم لله تعالى بما قدّر وقضى، ويتحقق هذا بإدراك العمق المضموني للتلبية، فهي إجابة لله بعْد إجابة، وتسليم في مرتبتي التشريع والتكوين ينم عن عمقٍ عرفاني لمن أسلم وجهه لله تعالى حنيفاً، وتشتمل التلبية على استعانة بالله تعالى، لأنّ المُلبي عابد لله تعالى داعٍ له موقناً بأنه الكاشف للضر والبلواء.

مضامين التلبية :

تختزل التلبية معانٍ عظيمة تقود الإنسان إلى رضوان الله تعالى وتوصله إلى الهدف الذي من أجله وجد في الدنيا ليعيش في كبد، وسنذكر بعض المضامين التي طويت في التلبية:

الأول: الاستعانة والاعتماد على الحق تعالى

(اللهم) الميم بدل عن ياء النداء، وهي نائبة عن فعلٍ محذوف تقديره أدعو؛ أي: أدعوك يا الله، مستعيناً بقدرتك طالباً لهباتك، مستمطراً وابل رحمتك، كل هذه المعاني أُختزلت في «لبيك اللهم لبيك».

الثاني: التوحيد والانقياد لله تعالى

بالإضافة إلى تضمن التلبية حقيقة التوحيد والاستسلام والانقياد الذي يجسده المسلم في إطاعته لأوامر الله تعالى تشريعاً والرضا بقضائه تكويناً، وذلك هو التوحيد الخالص لرب العالمين، وإذا وصل العبد إلى هذا المقام استسهل جميع الصعاب في طاعته للحق تعالى، فالسحرة عندما أدركوا بأنّ قدرة الله تعالى لا حد لها لم يتأثروا بتهديد فرعون المتغطرس، بل ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨﴾(الشعراء:٤٧-٤٨) تلك هي حقيقة التسليم والانقياد لله رب العالمين.

الثالث: الثناء المطلق لله تعالى

«إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك» الحمد هو الثناء، والمنقاد لله تعالى موقن بأنّ جميع الثناء والحمد يرجع إليه تعالى، وإذا أثنى على جمالٍ رائع فإنما يثني على بديع الصنع وإحكام القدرة لله تعالى، وأيضاً إذا أثنى على عالمٍ لقدراته العلمية أو على سلطانٍ لجبروته واقتداره؛ فقد أثنى على الله تعالى، لأنّ الإنسان بل الخلق جميعاً مهما بلغ إليه من علم وقدرة، فإنّ علمه وقدرته وجميع ما لديه من الله تعالى -لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾(النحل:٥٣)- فالثناء كله لله تعالى.

الرابع: الله مفيض النعم لجوده وكرمه

«إنّ الحمد والنعمة» النعم التي نرفل فيها صباح مساء، ليل نهار، من أعظمها نعمة الوجود، إذْ لو لم يكن الإنسان موجوداً لما امتلك القدرات الهائلة والكبيرة.

أوجدنا الله تعالى لا من شيء، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾(الإنسان:١-٢)، وتلك منة امتنّ علينا بها بقدرته التي لا تحد وعلمه الذي وسع كل شيء، فهو الذي اقتضت حكمته أن نرفل في النعم لنصل إلى سعادتنا؛ قال الإمام الصادق عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى لم يخلق خلقه عبثا ولم يتركهم سدى، بل خلقهم لإظهار قدرته، وليكلفهم طاعته فيستوجبوا بذلك رضوانه، وما خلقهم ليجلب منهم منفعة، ولا ليدفع بهم مضرة بل خلقهم لينفعهم ويوصلهم إلى نعيم الأبد»[1].

الانقياد، والطاعة لله تعالى، والإذعان، والتسليم تشريعاً وتكويناً حقائق عظيمة تجسد عمق التوحيد في «لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة

(١)بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٥ - ص ٣١٣.

لك والملك» وتظهر ملكيته تعالى لكل عوالم الوجود، قال تعالى: ﴿للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(لقمان:٢٦) الأشياء جميعها ملكه وخاضعة له تعالى.

النعمة له والملك له، نعمه تعالى لا تعد ولا تحصى، الوجود هو أولى النعم وأعظمها، أما القدرات التي منحها الله تعالى لعباده، كي يستفيدون منها صباح مساء فكثيرة ومتعددة منها الحواس السمع والبصر والفؤاد، وعلى الإنسان مسؤولية كبيرة في تسخيرها لطاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾(الإسراء:٣٦) ينبغي للإنسان في مساره إلى الله تعالى أن يستفيد منها في الطاعة ولا ينظر إلاّ ما سوغ الله تعالى النظر إليه، ولا يسمع إلاّ ما أجاز الله تعالى له أن يسمعه، ويكُف سمعه وبصره وسائر جوارحه عمّا حرّمه الله تعالى، ليكون مطيعاً منقاداً لتشريعه تعالى.

الخامس: ملكية الله المطلقة

«إنّ الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك» وإذا استشعر المسلم الملبي المعاني العظيمة، لا جرم يعيش العظمة في عالم الملكوت ويدرك المراد من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾(الأنعام:٧٥) إنه عمق المعرفة التي يستشعر بها عظمة الله تعالى فتخشع جوارحه ويطمئن قلبه وتنهمر عيناه بالدموع خشيةً منه تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾(فاطر:٢٨) العالم هو من يدرك هذه القيم، ويجسد هذه المثل، فيستشعر العظمة والإحاطة لله تعالى بجميع الخلق، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(الحديد:٤).

الحج ٧-١١-١٤٢٣هـ

أسرار التلبية بين عالمي التكوين والتشريع

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

ارتباط عالم التشريع بعالم التكوين

الحج عبادة ذات أبعاد مختلفة، فهناك البعد الاجتماعي والبعد الاقتصادي والبعد التربوي والبعد العرفاني الأخلاقي والبعد التشريعي القانوني، وسأستعرض أهمية البعد القانوني والعرفاني في حياة الإنسان؛ لوجود التمازج بين جنبة الاستقامة من ناحية قانونية وبين العروج إلى الله تعالى من ناحية عرفانية، كل العبادات التي شرعها الله تعالى، إنما شُرعت لغرض وهدف؛ فلا عبث في نظامي التكوين والتشريع، غاية الأمر أنّ الإنسان غير قادر على إدراك ما يتحقق في الكون من الناحية التكوينية، قدراته العقلية غير محيطة بالأبعاد التشريعية وما يتوافر من أسرار في كل مفردة منها، فهناك الكثير من الأسرار تشتمل عليها هذه العبادات ليس لنا القدرة على إدراكها، ونعلم أنّ الله تعالى شرعها لما يترتب من فائدة عليها، وقد أبان القرآن بعض الحكم المترتبة عليها، فبين أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (العنكبوت:٤٥) لكنّ هذه حكمة من حكم التشريع، وليس كل الأسرار المترتبة على الصلاة منحصرة فيها، والحج والصوم وبقية المفردات العبادية تترتب على

وجودها فوائد وحكم.

أسرار الحج

في الآية التي افتتحنا بها، يخاطب الله خليله عليه السلام ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا - أي راجلين: ماشين على أرجلهم - وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨)، هناك مجموعة من الفوائد مترتبة على أداء هذا النسك أهمها الذكر لاسم الله تعالى، وسأوضح باقتضاب شديد أهمية هذه الشعيرة من شعائر الحج بذكر التلبية التي هي جزء من الإحرام، الإحرام كالصلاة في الافتتاح بالتكبير،والاختتام بالتسليم، التكبير ذكر لله تعالى بأنه أكبر من أن يوصف، وأكبر من جميع خلقه ومن قدراتهم فهو المعطي لهم والخروج من الصلاة بالتسليم، بيان لمجموعة من الفوائد من أهمها تركيز مبدأ السلام في الفكر الإنساني باعتباره آتياً من دعامة يقوم عليها التشريع، وهكذا الأمر في الحج، فإذا أراد الإنسان أن يُحرم يقوم بمجموعة من الأعمال، أولها ارتداء ثوبي الإحرام، وما أدراك ما يترتب على ارتداء الثوبين من إلغاء الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والنفسية وغيرها من الأمور التي تترتب على هذه الألبسة التي يرتديها كل منّا وإلغاء للبعد الجغرافي باعتبار ما يميزه هذا البعد بين الإنسان وأخيه، ثم ينوي أن يؤدي هذه النسك وبعد النية يلبي «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك».

حقيقة التلبية عند الإمام الصادق عليه السلام

جاء عن مالك بن أنس إمام المذهب المالكي قوله:حججت مع الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، فلما وصلنا إلى الميقات ارتدى الحجيج ثوبي الإحرام وأرادوا أن يُلَبُّوا لله تعالى، فرأيت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام تغير لونه، إشارة إلى إدراك البعد العرفاني

للتلبية، باعتبار أنّ الناس يُلَبُّون دون إدراك للمحتوى العميق للتلبية، لكنّ جعفر بن محمد عليه السلام انهمرت دموعه على مآقيه، وكان يبكي فقلت له: يا بن رسول الله، لابد أن تلبي، فقال الإمام الصادق عليه السلام : « يا ابن أبي عامر، كيف أجسر أن أقول: لبيك اللهم لبيك؟ وأخشى أن يقول عز وجل: لي: لا لبيك ولا سعديك»[1]، إن القرآن الكريم يركز على هذه الرؤية في حق أهل البيت عليهم السلام وهي الخوف منه تعالى والخوف من عالم المعاد والآخرة، جاء في سورة الإنسان التي نزلت في حق أمير المؤمنين عليه السلام والحسنين والزهراء عليهم السلام، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾(الإنسان:١٠-١١)، وقول الإمام الصادق عليه السلام : «كيف أجسر أن أقول: لبيك اللهم لبيك؟ وأخشى أن يقول عز وجل: لي: لا لبيك ولا سعديك»، فيه إشارة رائعة وجميلة منه عليه السلام لبعدين: بعد تكويني وبعد تشريعي.

الأول: البعد التكويني

هو الرضا والتسليم لأمر الله تبارك وتعالى مع الجد والكدح في تغيير الواقع الذي يعيشه الإنسان إلى الأفضل، فإذا سارت الرياح بما لا تشتهيه السّفَن على الإنسان أن يُسلِّم أمره لله تعالى، ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾(الإنشقاق:٦)، من المهم أنّ يعمل الإنسان في تغيير واقعه، لكن إذا جاءت الظروف معاكسة عليه أن يسلم لأمر الله تبارك وتعالى، كما حدث للرسول صلى الله عليه وآله وسلم عندما بكى على ابنه إبراهيم عليه السلام ثم قال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى الرب، وإنا بك يا

(١) في مستدرك الوسائل ج ٩ ص ١٩٧: عن أحمد بن محمد بن خالد البرقي، عن أبيه، عن محمد بن زياد الأزدي عن مالك بن أنس : أنه قال في حديث : ولقد حججت معه أي الصادق عليه السلام سنة فلما استوت به راحلته عند الاحرام، كان كلما هم بالتلبية انقطع الصوت في حلقه، وكان أن يخر من راحلته، فقلت : قل يا ابن رسول الله، ولا بد لك من أن تقول، فقال : «يا ابن أبي عامر، كيف أجسر أن أقول : لبيك اللهم لبيك ؟ وأخشى أن يقول عز وجل : لي : لا لبيك ولا سعديك».

إبراهيم لمحزونون»[١]، إشـــارة إلى مقـــام الرضا والتسليم وهكذا جاء عن إمامنا الباقر عليه السلام في الرضا فيما يحدث تكويناً فقد كان يتألم على مرض أحد أبنائه ثم مات الابن، قال الراوي: فرأيته مستبشراً، قلت كيف كنت متألماً لمرضه؟ فلما مات رأيتك مستبشراً، قال: إنّا نحب بعض الأشياء فإذا جرى القضاء بما يريده الله رضينا وسلمنا لما أراده الله تعالى، أي أن على الإنسان أنْ يصل إلى مرتبة من الرضا والاطمئنان النفسي بما تجري به المقادير الإلهية، ومع ذلك يحاول جاداً، ويسعى كادحاً بتغيير وضعه، بل ووضع الإنسانية جمعاء نحو الأفضل كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾(الإنشقاق:٦).

الثاني: البعد التشريعي.

يجهل الإنسان كثيراً من أسرار التشريع، لذلك، يطغى ويتجبر وينىء بنفسه فلا ينصاع لأمر الله ولا يعرف الأهمية الكبيرة للأمر التشريعي كالحج، فيُسوف في أدائه وقد يؤديه لكنه يهمل بعض الواجبات الأخرى التي ترتبط به، ينبغي أن ندرك أهمية التشريع والانصياع للأوامر الإلهية، باعتباره يحقق المرتبة الأولى من العبودية لله تعالى، ويجعل الإنسان يطوي مراحل الرضا بقضاء الله وقدره من ناحية التكوين والتشريع.

التلبية بين التشريع والتكوين

في التلبية أسراراً متعددة للرضا بالتشريع والتكوين، فبعْد دعوة الخليل عليه السلام إلى ضيافة الله تعالى على هذه المأدبة الكبيرة، التي يقيمها الله تعالى، ذلك أنّ الله تعالى له مآدب متعددة وكثيرة، لكن أكبرها مأدبتان، مأدبة رمضان ومأدبة الحج، جاء في الرواية: «من لم يغفر له في شهر رمضان لم يغفر له إلى قابل إلا أن يشهد عرفة»[٢]، وجاء

(١) تحف العقول لابن شعبة الحراني ص ٣٧.
(٢) وسائل الشيعة ج١٠ ص ٣٠٥.

عنهم عليهم السلام أنّ العطاء الإلهي في مأدبة عرفة عظيم وكبير، لذا، فإنّ قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾، هو دعوة لأداء هذه الفريضة، التي تبدأ إجابتنا لها عند ارتداء ثوبي الإحرام وقول التلبية: «لبيك اللهم لبيك»، أي إجابة لك بعْد إجابة يجسد ذلك الصمود والمقاومة والصبر على الطاعة لله تعالى، وهو ما أبانته الأحاديث، ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مضمون رواية أنّ الإنسان إن استطاع أن يُوصل قدراته المعنوية إلى مرتبة الرضا لله تعالى فهو المطلوب والمأمول، وإلا ففي الصبر على ما يكره خير كثير، أي أنّ تمثيل الصمود والاستجابة تلو الاستجابة فيه الخير الكثير، غير أنّ بعض الناس يتبرم ويسأم ويمل من التكاليف المناطة به، ثم يندم عندما يصل إلى الستين أو السبعين، أي أرذل العمر، والندم مفيد غير أنّ الشاب الذي يريد أن يبني مستقبلاً زاهراً مع الله تعالى في عوالم الغيب وعالم المعنى، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾(القمر:٥٥)، لا بد له أن يدرك الأسرار العميقة لمفردات الحج، وبقية المفردات العبادية.

الآثار العملية والسلوكية للتلبية

التلبية «لبيك اللهم لبيك» هي استجابة لله تعالى بعد استجابة أو تلو استجابة؛ ويعني ذلك أنّ الإنسان يخاطب الله تعالى بتبيان صبره على الرضا بقضائه وقدره، مجيباً إلى طاعته من ناحية القانون ومكمّلاً لنفسه من ناحية الرضا واستمرار الانصياع لأوامره تعالى من خلال قوله: «اللهم»، الإجابة لله تعالى هي بعونٍ منه ولطفٍ وكرم، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾(الفاتحة:٥)، العبادة بالاستعانة بقدرته، وكذلك التلبية، وكذلك لفظة «اللهم»، دعاء يدعو به الإنسان لتكون الاستجابة تلو الاستجابة، أي الاستمرار على الاستجابة لأوامر الله تعالى لكونها موصلة إلى مرتبة الصمود والاستمرار والتحدي للشيطان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾(يس:٦٠-٦١)، الحق تعالى يريد للإنسان أن يتجه إليه بالاستعانة به، نقرأ

ذلك في أدعية أئمة أهل البيت عليهم السلام «بك عرفتك وأنت دللتني عليك ودعوتني إليك،ولولا أنت لم أدرِ ما أنت»[1]، فكل المفردات العبادية تشير إلى أنّ الإنسان يعبد الله تعالى ويستعين به في الوصول إليه ويقف بين يديه ويتوجه به إليه، هذه المفردات تُعطي الإنسان سمواً روحياً وقدراتٍ هائلة وانصياعاً واستقامةً وثباتاً في الشخصية، وهنا نجد ميزة كبيرة لدى الإنسان الذي ربّى نفسه على القيم، فبمجرد أن تأتيه هزات قوية تراه صابراً محتسباً مفوضاً أمره إلى الله، لكونه المرجع إليه، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾(البقرة:١٥٦)، بعد ذلك يُغدق عليهم كرمه، ويعطيهم نعمه، ويفيض عليهم مواهبه السنية التي لا تنقطع، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾(البقرة:١٥٧)، هؤلاء الذين يسيرون في دربٍ ملؤه الأمل والرجاء والعطاء الإلهي الذي لا ينضب ولا ينفد، ليس في عالم الدنيا من ناحية الكمال النفسي بل في الآخرة عندما يندم الإنسان ولات حين مندم باعتباره لم يبنِ ذلك المستقبل بما كان يوجبه الله تعالى عليه، لنتعلم من هذه الرموز في وقفات الإمام عندما تنهمر الدموع على مآقيه بالتلبية، فإذا أردنا أن نحرم ينبغي أن نبكي، وأن نضرع إلى الله، ونتوجه إليه، «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إنّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك لبيك».

٢٩-١٠-١٤٢٣هـ

(١) بحار الأنوار ج ٩٥ ص ٨٢.

الفصل الثاني:

ما بعد الميقات

الطواف يبرز عبودية العقل للّه

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ (الصافات:١٠٣-١٠٥) صدق الله العلي العظيم.

الغاية من إيجاد الخلق

خلق الله تعالى الخلق من أجل أن يوصلهم إلى السعادة، وتتحقق سعادتهم بعبوديتهم للحق تعالى، وبطاعته والسير على المنهاج الواضح الذي رسمه الله في قرآنه الكريم وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وهدي الأئمة عليهم السلام، وهذه الطاعة لها مناحٍ وأبعاد متعددة، فقد افترضت الطاعة على الجسد وعلى النفس والعقل، إنّ الله تعالى يُريد من الإنسان أن يكون عابداً له بجسده ونفسه وعقله لتكون طاعته كاملة له تعالى، ويعبّر عن ذلك بالتسليم التام، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣)، إنه تعالى أوضح بعض الأسرار والحكم المترتبة على بعض العبادات، وأخفى بعضها الآخر، لا يستطيع أحد أن يُدرك جميع الأسرار المترتبة عليها، لأنّ الله يُريد لعقل الإنسان أن ينصهر في عبوديته، كما انصهرت نفسه وجوارحه وعندئذٍ يستطيع تحمل المسئولية التي أشار إليها الحق تعالى في قوله: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ (الإسراء:٣٦) العبودية توأم مع تحمّل المسؤولية.

المصالح من تشريع الطواف :

من الطاعات التي لا يستطيع الإنسان أن يُدرك الحكمة فيها، وأن يعرف أسرارها والحكم المترتبة عليها، الطواف حول البيت، فله حكم ومصالح أشار إليها الحق تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ﴾(آل عمران:٩٦-٩٧) فمصالحه لا يحيط بها العقل علماً، وأهمها الهداية والبركة والأمن.

ومصالح أخرى منها أنّ الله تعالى يريد لعقل الإنسان أن يكون خاضعاً مسلماً دون أن يعرف السبب والعلة، العقل الإنساني قوة هائلة لكنها محدودة هي كالبصر له حد، والسمع حده أن يسمع مقداراً من الذبذبات، وما زاد أو نقص عنها من الأصوات لا يسمعها إلاّ عبر الأجهزة، وعقل الإنسان كذلك محدود، لذا أراد الله تعالى له أن يكون مذعناً مسلماً ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ (الصافات:١٠٣-١٠٥).

فافترض الله تعالى على إبراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه، لمصلحة لأنه تعالى لا يأمر عبثاً، وتشريعه لحكم ومصالح لا يحيط بها عقل الإنسان، الطواف بالبيت ونسك الحج نظير أمره تعالى للخليل بذبح ابنه، حكمه ومصالحه لا تُدرك.

الحج مظهر عبودية العقل :

قال أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «ألا ترون أن الله سبحانه وتعالى اختبر الأولين من لدن آدم صلوات الله عليه إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع» الأحجارُ التي نطوف بها هي البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام فهو ليس بأشجار مورقة أو حديقة غناء إنما «أحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياما، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجرا» في منطقة وعرة ليست بسهلة «بأوعر بقاع الأرض حجرا وأقل نتائق الأرض مدرا وأضيق

بطون الأودية قطرا بين جبال خشنة ورمال دمثة وعيون وشلة وقرى منقطعة لا يزكو بها خفّ ولا حافر ولا ظلف. ثم أمر آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه» فقال ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾(آل عمران:٩٧) «فصار مثابة لمنتجع أسفارهم وغاية لملقى رحالهم تهوي إليه ثمار الأفئدة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوي فجاج عميقة وجزائر بحار منقطعة حتى يهزوا مناكبهم ذللا يهّلون لله حوله ويرملون على أقدامهم شعثا غبرا له.. قد نبذوا السرابيل وراء ظهورهم وشوّهوا بإعفاء الشعور محاسن خلقهم إبتلاء عظيما وامتحانا شديدا واختيارا مبينا وتمحيصا بليغا جعله الله سببا لرحمته» إنه ابتلاءٌ لعقل الإنسان جعله تعالى سبباً لرحمته، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «من حجّ فلم يرفث ولم يفسق غُفر له ما تقدم من ذنبه»[1] وفي رواية «يقال له: استأنف العمل»[2].

إنّ من أعظم الذنوب أن يرى الإنسان بأنه لا يغفر له وقد حضر عرفة، «جعله الله سبباً لرحمته ووصلة إلى جنته ولو أراد سبحانه ان يضع بيته الحرام ومشاعره العظام بين جنات وأنهار وسهل وقرار جّم الأشجار دانِ الثمار» أي أنّ الله تعالى لو أراد أن يجعله في روضة،كما هو الحال في بعض الدول التي فيها مناطق جميلة ورائعة، فمن يزورها يتساءل لماذا لم تجعل الكعبة فيها؟

والجواب: بأن الله تعالى أراد أن يختبر العباد ويمتحنهم، لذا قال الإمام عليه السلام: «ملتّف البناء متصل القرى بين برّة سمراء وروضة خضراء وأرياف محدقة وعراصٍ

(١) سنن الترمذي ج٢ ص ١٥٣.

(٢) في تفسير نور الثقلين ج ١ ص ١٩٤: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن العبد المؤمن حين يخرج من بيته حاجا لا يخطو خطوة ولا تخطو به راحلته الا كتب الله له بها حسنة، ومحا عنه سيئة، ورفع له بها درجة، فإذا وقف بعرفات فلو كانت ذنوبه عدد الثرى رجع كما ولدته أمه، يقال: له استأنف العمل يقول الله: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾.

مغدقة ورياض ناضرة وطرق عامرة لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء» إذاً لو وضع البيت في تلك المناطق الجميلة لما ترتب على الطواف به ذلك الجزاء، أي أنّ الله تعالى عبّد عقل الإنسان ليكون الجزاء على حسب البلاء.

ثم قال عليه السلام: «ولو كان الأساس المحمول عليها والأحجار المرفوع بها بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء لخفّف ذلك مسارعة الشك في الصدور» ليعيش الإنسان الصراع النفسي فيصل بجده وكدحه إلى شاطئ السلامة والاطمئنان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾(الإنشقاق:٦) إنه يحتاج إلى جهدٍ وصراعٍ مع نفسه كي يصل إلى الاطمئنان النفسي، ولو وصل إلى ذلك دون جهد لما تحقق الابتلاء، قال عليه السلام: «ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب ولنفى معتلج الريب من الناس ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره إخراجا للتكبر من قلوبهم» من الأهداف أن يكون الإنسان متواضعاً، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾(المؤمنون:١-٢) «إخراجا للتكبر من قلوبهم وإسكانا للتذلل في نفوسهم وليجعل ذالك أبوابا فتحا إلى فضله وأسبابا ذللا لعفوه»[1]، الذهاب إلى البيت أمان ومثابة، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾(البقرة:١٢٥) والطواف حوله تعبد للعقل، ولعل ذلك هو المعنى العميق للعبودية التي أشار إليها الحق تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾(الذاريات:٥٦-٥٨).

(١) نهج البلاغة ج ٢ ص ١٨٣ – الخطبة القاصعة.

الأبعاد المعنوية للطواف

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾(آل عمران:٩٦).

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾(البقرة:١٢٥). صدق الله العلي العظيم.

الكعبة محور التوحيد :

الكعبة المشرفة هي أول بيت أمر الله تعالى البشرية بالتوجه إليه وعبادته فيه، فهي بيت التوحيد العبودي لله تعالى على امتداد التاريخ وهي محور وحدة الناس العقدية والفكرية والاجتماعية والسياسية، وقد أكد القرآن الكريم ذلك، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ﴾(المائدة:٩٧)، إنّ الكعبة تُقوّم حياة الناس في مناحٍ ومجالات متعددة على المستوى العقدي والفكري والاجتماعي والسياسي. لذا؛ أعطى الله تعالى الكعبة قدسية وكرامة خاصة، قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما خلق الله تعالى بقعة في الأرض أحب إليه منها، وأومأ بيده إلى الكعبة، ولا أكرم على الله عز وجل منها»[1]، وتتجلى عظمة الكعبة باعتبارها من نُسك الحج وأركانه التي لا يصح الحج إلا بالطواف حولها، وتؤكد الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام على القرب الإلهي الذي يحظى به الطائفون حول البيت، ورد عن النبي صلى الله عليه وآله قوله: «إنّ

(١) وسائل الشيعة ج ١٣ ص ٢٤٢.

الله يباهي بالطائفين»[١]، وما أعظم كلمة المباهاة التي تبينّ المنزلة العظيمة للطائفين حول البيت حيث يباهي بهم الله تعالى الملائكة، ويريهم ما وصل إليه الإنسان بطوافه حول بيته من السمو والرفعة في مقام عبوديته لله والانقياد التام إليه تعالى مع عدم إطلاعه على العلة الحقيقة لهذا الطواف، إلا أنه يؤدي العمل العبادي بمحض الطاعة والتعبد والانقياد لأمر الله تعالى والتسليم المطلق له.

الأبعاد العرفانية للطواف :

للطواف أبعاد معنوية متعددة أوجزها أمير المؤمنين عليه السلام بكلمة غاية في الروعة والجمال، قال عليه السلام : «وتشبّهوا بملائكته المُطِيفِين بعرشه، يُحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عند مَوعِدَ مَغفرتِه[٢]» ولنا وقفة حول هذه الكلمات المضيئة للإمام عليه السلام نتحدث فيها عن الأبعاد المعنوية بشيء من البيان:

البُعد الأول: التشبه بالملائكة الكروبيين

قوله عليه السلام : «وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه» أراد عليه السلام بأنّ الطائفين بالبيت يشبهون بطوافهم الكروبيين -الذين هم أشرف الملائكة وأعظمهم- بعرش الله تعالى. فلفظ (المُطيف) معناه الطائف، ويأتي بمعنى: المُلمّ النازل بقوم، وذكر علماء اللغة بأن (المُطيف) هو الذي يُطِيف نفسه كأنه فرّغها لذلك فهو بكليته قد اشتغل بما يطوف حوله، وكل هذه المعاني التي نص عليها اللغويون لها معنى عرفاني دقيق أوضحته الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فتشبّه الطائف بالملائكة يتحقق في جهات:

(١) مستدرك الوسائل ج ٩ ص ٣٧٧.
(٢) في نهج البلاغة ص ٢٧.

الأولى: التشبّه بالملائكة في العبودية لله تعالى

إنّ تشبه الطائف بالملائكة يُوحي بمعنى عظيم، حيث تُدْرَك المعاني الأخرى في ضمن هذا المعنى الكبير، الذي أبانه الإمام عليه السلام في قوله: «وتشبهوا بملائكته المُطيفين بعرشه»، فمن الجدير بالذّكر أنَّ طواف الملائكة حول العرش هو إبانة وإفصاح عن حقيقة ترتبط بذوات الملائكة، أشار إليها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأنبياء:٢٦-٢٧)، فهم يجسدون العبودية المطلقة لله تعالى وهي السّمة البارزة واللازمة للكروبيين من الملائكة العظماء.

الثانية: التشبه بالملائكة في التعلق بالله تعالى

يشبه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الطائف حول البيت بالملائكة الذين يطوفون بالعرش، ويُريد عليه السلام أن يُبين حقيقة أنّ الطواف حول البيت يُوصل إلى مقامٍ سامٍ هو مقام الملائكة، فحياتهم بذكر الله تعالى والتعلق به دون سواه، وهذا أحد شروطٍ السلوك العرفاني إلى الله تعالى، وقد أبانه إمامنا الصادق عليه السلام في كلمة جامعة عندما قال: «القلب حرم الله، ولا تُسكن في حرمه غيره»[1]. وكلامه عليه السلام يُؤيد المعنى اللغوي للمُطيف، فهو بمعنى الملمُّ النازل، وفيه إشارة بأنّ الطائف بالبيت أنزل نفسه بهذا الحرم الإلهي وتشبه بالملائكة -الذين اشتغلت قلوبهم بالله تعالى- ورغم ما يقترفه الطائف من انشغالٍ بغير الله تعالى وتوجهٍ إلى سواه، فيطوف بالبيت وقد نسي ما مر عليه من غفلة وتهاون، وأدرك بطوافه القبلة الحقيقية التي ينبغي أن يجعل وجهته إليها.

(١) بحار الأنوار ج ٦٧ ص ٢٥.

الثالثة: التشبه بالملائكة في التجرد عن المادة

إنّ طواف الملائكة حول العرش يُعبر عن أعلى مراتب التجرد العبودي من جهة، بالإضافة إلى كونهم موجودات مجردة في ذواتها من جهة أخرى، لذا قال الفلاسفة: إنّ الملائكة من الموجودات المجردة ذاتاً وفعلاً، وهذا معنىً دقيق يلحظه الطائف فيُجرد ذاته وأفعاله عن كل معصية ورذيلة، ويجعل طوافه تجسيداً لذلك المعنى المجرد حقيقةً، ليُعبر عن طموحه في الوصول إلى التجرد والتخلص من كل ما يُسخط الله تعالى.

البُعد الثاني: الحصول على الثواب

قال عليه السلام: «يُحرزون الأرباح في متجر عبادته»، الحرز هو المكان الذي يُحفظ فيه، والأرباح هي الثواب، والله تعالى يدخر الثواب الجزيل للطائفين، قال الإمام الصادق عليه السلام: «من طاف بالبيت أسبوعاً -أي سبعة أشواط- كتب الله عز وجل له ستة آلاف حسنة، ومحى عنه ستة آلاف سيئة، ورفع له ستة آلاف درجة وقضى له ستة آلاف حاجة»[1]، إنّ هذا لفضل عظيم يُسبغه الباري تعالى على الطائفين ببيته الحرام، وتتحقق به التجارة المعنوية مع الله تعالى وبها تحصد الأرباح الهائلة دون خسارة.

كما أنها تُوجد الربط الوثيق بين العبد وبين المبدأ المتعال، مما يُميز هذه التجارة عن التجارة في عالم الدنيا التي هي عرضة للخسارة والاضطراب، وقد تُبعد الإنسان عن الله تعالى وتُخرجه عن دائرة العبودية.

البُعد الثالث: التسابق في تحقيق رضوان الله تعالى

قال الإمام عليه السلام: «ويتبادرون عنده موعد مغفرته». إنّ الطائفين يتسابقون إلى تحصيل الرضوان الإلهي، والفوز برفيع الدرجات وإحراز المغفرة الربانية التي أعدها

(١) وسائل الشيعة ج ١٦ ص ٣٦٣.

الله تعالى لمن توجه إليه في محل مغفرته، قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾(الحديد:٢١). والإمام عليه السلام جعل موضع البيت الحرام أحد مواضع المغفرة التي يتسابق المؤمنون للحصول عليها لوجود البركة والرحمة الإلهية فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾(آل عمران:٩٦)، فالبيت فيه البركة والإنماء لكل عمل يقوم به الإنسان، وبركته معناها: عدم نفاد ما يقام به من عمل، قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾(النحل:٩٦)، إنّ العمل إذا كان في نموٍ مطردٍ فهو باقٍ يصل به العامل إلى كماله المنشود، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾(الشورى:٥٣).

أهداف الطواف حول البيت

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾(الحج:٢٩) صدق الله العلي العظيم.

من شعائر الحج الطواف حول البيت العتيق -البيت الذي بناه الخليل إبراهيم عليه السلام يتكون من مجموعة من الحجارة - افترض الله تعالى على الناس أن يطوفوا به، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾(آل عمران:٩٧).

معنى الطواف حول البيت :

الطواف حول البيت وأداء هذا النسك لا يقبل إلاّ من المسلم - الذي يتشهد بالشهادتين وأُذن له بحج البيت - ويرمز الطواف حول البيت إلى الطواف حول الله تعالى، إنّ الله ليس بجسم وليس بمركب ولا يحويه زمان ولا يحل في مكان هو منزه عن جميع الصفات التي تدلل على النقص والإحاطة والشمول به والاحتياج إلى غيره، بخلاف خلقه، الإنسان يُحيط به الزمان، ويحويه المكان، ويستوعبه الكم والكيف، وما إلى ذلك من الأمور المحددة لوجوده، أما الله تعالى فلا زمان له ولا مكان هو خالق للزمان والمكان، ونسبة البيت إليه، -بيت الله- ليست كنسبة البيت لنا في قولنا: هذا بيتي؛ إذْ أنّ معنى ذلك مكان استقراري، أما بيت الله فإنّ النسبة

تشريفية؛ أي أنّه تعالى شرّف هذه البقعة المباركة -الكعبة- بعد بناءها فنسبها إلى نفسه تشريفاً لها وليس بمعنى أنّه تعالى يستقر فيها أو أنها مكان يحويه تعالى، لأنّه تعالى ليس بجسم.

المعنى الرمزي للطواف :

على المسلم أن ينزه الله تعالى عن الصفات الدالة على النقص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾(التوحيد١-٤) وكل ما لا يليق بجلاله على المسلم أن ينزهه عنه، فهو يجل عن الاتصاف بنقص ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩﴾(الصافات:١٥٩) وإذا كان الأمر كذلك، فإنّ الطوف بالبيت العتيق له معنىً رمزي يشتمل عليه يمثل ذلك المعنى مصلحة تعود للطائفين، لأنّه تعالى لا يأمر بأمرٍ إلاّ وفيه مصلحة ولا ينهى عن شيءٍ إلاّ وفيه مفسدة، أوامره تعالى تشتمل على المصالح ونواهيه تترتب عليها المفاسد؛ لأنّه حكيم لا يفعل عبثاً، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾(المؤمنون:١١٥)، خلق الخلق لحكمة وفق نظامٍ دقيقٍ لا يحيط به عقل الإنسان لدقته، إنه تعالى حكيم لا يحيط به زمان ولا يحويه مكان، لا كيف له ولا أين، وليس له صاحبة ولم يتخذ ولداً.

أهداف الطواف :

أمره تعالى بأن نطوف حول مجموعة من الحجارة في مكانٍ محدد، وفي زمان معلوم -الحج- أو في كل زمان (العمرة) لأهداف معينة:

منها: التكامل والارتقاء

قال بعض العلماء: إنّ الهدف من الطواف أن يصل الإنسان إلى إدراك عظمه الحق ليرتقي بفكره، فقدرات الإنسان محدودة، ويُربى بالتدريج على العبادات التي توصله إلى الله تعالى، إنّ جميع العبادات هدفها أن يتعرف الإنسان على الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾(الذاريات:٥٦) وأن يصل الخلق إلى الحق تعالى.

ومنها: توحيد الطاقات والقدرات الإنسانية

بالإضافة إلى ما تقدم يحقق الطواف الإتحاد بين الناس في مسارهم إلى الله، وإذا اتحدوا مجتمعين بطوافهم حول هدفٍ واحد تحقق التعاون والتآزر، وعندئذ تكتمل نفوسهم، فيستطيعون أن يصلوا إلى أعلى مستوى في معرفة الله تعالى -المعرفة التوحيدية المنزّهة للحق عن الزمان والمكان- وتتجمع طاقاتهم وقدراتهم بطوافهم حول البيت، فيتحد مسار الإنسانية جمعاء، إذْ لا يمكن توحيد مسار الإنسانية إلا بتوحيد مسار المسلمين حول الله تعالى.

الطواف يوصل إلى توحيد الطاقات والقدرات للإنسانية، وإذا استطاعت الإنسانية أن تصل إلى الله عبر هذا الدين ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾(آل عمران:١٩) سوف تتحد الجهود والقلوب ويتحقق التعاون بين الناس فيرتقون في عالم المعنى وتتسع آفاقهم ويصلون إلى الله تعالى عبر صراطٍ مستقيم في مسار واحد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾(الأنعام:١٥٣)

يتخلصون من البغضاء والشحناء ويبتعدون عن الأنانية فلا يحارب بعضهم بعضاً لتحقيق أهدافٍ دُنيَا، بل يلتحمون حول مبدأ واحد هو الكمال المطلق لطهارتهم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾(الحج:٢٩) قضاء التفث بخروجهم عن أنانياتهم وضيق أفقهم واتجاههم إلى الكمال المطلق هو الحق تعالى.

السعي مدرسة لتغيير الواقع

قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

أهداف فرض الحج :

فرض الله تعالى الحج لينبه إلى جنبتين هامتين :

الأولى: جنبة الأحكام الفقهية؛ وهذا الجانب ولله الحمد أُولي من لدُن طلبة العلم والمؤسسات التي تتكفل بإيصال الحجاج إلى الديار المقدسة عناية كبيرة ومع ذلك ينبغي لمن أراد أن يحج أن يتعلم الأحكام الشرعية بإتقان.

الثانية: وهي الأهم في نظرنا، حيث ترتبط بالالتفات بدقة إلى الرموز والمحتويات التي تشتمل عليها المناسك، فكل نسك من هذه المناسك يشتمل على رمز من الرموز التي أُشير إليها في الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام وكذلك، في أبحاث العلماء؛ وكل شعيرة إنما شُرِّعت لهدف من الأهداف، وسأشير إلى أحد هذه المناسك الهامة، وهو السعي بين الصفا والمروة.

عبر من قصة هاجر في المسعى

قال تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا

﴿جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾(البقرة:١٥٨)، سبب التشريع في هذا النسك أنَّ الخليل عليه السلام هاجر فوضع أهله عند البيت، كما أشار الذكر الحكيم إلى ذلك قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾(إبراهيم:٣٧) فوضع أهله في مكانٍ خالٍ من الماء والكلأ ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾.

الرضا والتسليم لأمر الله تعالى

ونجد أنَّ روح التعبد في شخصية زوجة الخليل عليه السلام، كانت مستولية على كل كيانها، كما أنَّ روح الرضا والتسليم مهيمنة على كل وجودها، فقد سلمت لأمر الله تعالى ولم تنازع الخليل عليه السلام في تركها وابنها في ذلك المكان القاحل، والتسليم من الأسرار العظيمة والكبيرة في السير في خطى العبودية لله تعالى، فجنبتا الرضا والتسليم جناحان يطير بهما السائر في طريق الحق والكمال.

المجاهدة لتغيير الواقع

والأمر الأهم أنَّ الراضي بقضاء الله تعالى وقدره لا يقف مكتوف الأيدي أمام الظروف الصعبة التي تمر عليه، بل يحاول جاهدًا أن يغير في وضعه المعاش من الحسن إلى الأحسن أو من السيئ إلى الحسن كما كان بالنسبة للسيدة هاجر عليها السلام، رغم أنها وجدت نفسها في صحراء قاحلة وهي بحاجة الماء لنفسها ولوليدها، فقامت بالبحث عن الماء، بدأً من الصفا -وهو جبل معروف - وانتهاءً بالمروة، وكررت السعي ذهابًا وإيابًا، ولم تظفر بالماء ولم تكلل تلك الحركة الدؤبة والجادة لها عليها السلام بالنجاح، لكن سعيها لم يخب، بل كان لحركتها ربط وثيق وهام، فبعد أن أنهت الشوط السابع من سعيها، كان وليدها عليه السلام -وهو جد نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم - قد حرّك رجليه بحثًا عن الماء، الذي نبع ما بينهما، وليس من الحتم أن يكون للسعي أثرًا مباشرًا، لكنه سوف يكون أثرًا باعتباره من اللوازم البعيدة، وهذا ما حصل للسيدة هاجر عليها السلام، عندما رجعت

لوليدها لتجد أنّ الماء قد انبعث من تحت رجليه، ليصبح هذا الماء سقيا للحجيج وليستفيد منه الناس على مر العصور إلى يومنا هذا، وأضحى ماء زمزم هو العنوان لذلك.

البعد التغييري للسعي

السعي درسٌ يمثل عمقًا مضمونيًّا لكل إنسانٍ سائرٍ نحو الله تعالى؛ فيبقيه مسلمًا لأمره تعالى، راضياً بقضائه، جادًّا في السعي لتغيير وضعه المعاش، ولابد أن يكون التغيير على كل الأصعدة؛ وليس على صعيد واحد، كما بدأ إبراهيم عليه السلام وتعلمت منه السيدة هاجر عليها السلام هذه الحركة الدءوبة في تغيير الواقع، من خلال سعيها عليها السلام بين الجبلين باحثةً عن الماء، ولم تتكلل حركتها بالنجاح في البدء، إلا أنّ الله تعالى لم يخيب سعيها في النهاية، بل جعل كل أنبياء الله ورسله والصالحين من عباده عبر هذا التأريخ الطويل للإنسان يتعلمون من هذه السيدة عليها السلام السعي الجاد.

ماذا نستفيد من سعي هاجر عليها السلام ؟

إن الحركة التي قامت بها هذه الأمة الصالحة، تعلمنا أمرين هامين:

الأول: أنه مهما بدت الظروف صعبة والأمور قاتمة، لا يُرى منها فرج، إلاّ أنه لا يستسلم للظروف، بل على المرء أن يسعى للتغيير.

الثاني: وهو -جدُّ هام- أنّ السعي لابد أن يكون كثيرًا ودؤباً، وهذا ما يعطينا إياه رمز (سبعة)، فالسبعة في اللغة كالسبعين تدل على الكثرة؛ وعلى من أراد التغيير أن يكون جاداً دائمًا وأبدًا مهما بدت الظروف كالحة أمامه، هذا ما حصل للسيدة هاجر عليها السلام، لذا كان سعيها مشكوراً، ذكره القرآن كشعيرة من شعائر الله تعالى؛ فقد كانت راضية بقضاء الله تعالى وقدره غير مستسلمة للظروف الصعبة التي تمر عليها،

فغيرت حالها ورسمت معلماً في التأريخ للإنسانية، إذا نظرنا إليه كان دائمًا يبدأ من خلاله الرجال العظماء والنساء العظيمات؛ مثلما نرى في حركة نوح عليه السلام، فقد كانت الظروف ضده عليه السلام وسخر قومه منه، وردّ عليهم ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾(هود:٣٨)، وبالتالي فقد صنع الفلك ومشى على لجج الماء، وأصبح عليه السلام أباً للتاريخ البشري، وهكذا الخليل إبراهيم عليه السلام وبقية الرسل عليهم السلام، ولعل الظرف الأصعب والأعظم في تأريخ البشرية كان مقترناً بحركة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إلا أنه مع صعوبته، تغلب عليه، بما وهبه الله تعالى من عقل راجح وحكمة وتعامل بخلق كريم، أشار إليه الذكر الحكيم،﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾(القلم:٤).

القرآن الكريم يعلمنا كيف نسير على خطاه صلى الله عليه وآله وسلم؟ وكيف نحقق ما يريده؟ من خلال أدائنا لهذه الشعائر التي نأتي بها في كل عام.

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾(البقرة:١٥٨) وقال الله: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا - راجلين أي ماشين على أرجلهم -وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ ..﴾ من أهم المنافع التعلم الجاد لهذه النسك التي غيرت مسار التأريخ البشري وأوصلته بالله تعالى.

١٨/ ١١/ ١٤٢٢هـ

الأسرار المعرفية في نسك الحج

قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨). صدق الله العلي العظيم.

الحج مدرسة متعددة الحقول المعرفية يتعلم منها الحاج العقائد والأخلاق والفقه وكثيراً من المسائل التي تعود عليه في دنياه وأخراه بالخير والنفع العميمين، ومن أهم ما يتعلمه الحاج في هذه المدرسة العظيمة تذكر الآخرة عبر بعض المناسك والمشاهد التي يقفها الحاج:

الأول: الإحرام تذكير بالآخرة

الإحرام المَعْلَم الأول الذي يُذكِّر المحرم بالآخرة، فالإحرام يُعلِم درساً أخلاقياً في التعامل مع الغير في الدنيا ويُذكِّر بعالم الآخرة إذِ المرء بعد الموت يكفن، والكفن كثوبي الإحرام (إزار ورداء) وهذه تذكرة وعبرة بأنّ المرء لن يحصل من هذه الدنيا إلاّ على هذين الثوبين، وعليه أن يلتفت إلى نفسه في تعامله مع مفردات الحياة الدنيا، فالموت حق لا يمكن الفرار منه، وقد استُعرِض في آيات متعددة من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾(ق:١٩)، لن يستطيع الإنسان أن يُفر من الموت، ولو فَرَّ فإنّ فِراره لن يُبعده عنه، قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ﴾(النساء:٧٨)، ومعنى ذلك أنه لن يستطيع الخلاص من هذا

الحق الذي لا مِريَة فيه، وقد دَربت الشريعة الإنسان في نواحٍ متعددة ليصبح لديه أهبةٌ واستعدادٌ لاستقبال الموت وبهذه الأهبة يستعد للموت، فيهيئ نفسه للأعمال الصالحة وذكر الله تعالى، والتذكر العملي للموت، ويتحقق ذلك بارتداء ثوبي الإحرام، فالمحرم بعد أن يلبسهما يستشعر انتقاله من الحياة الدنيا إلى عالم الآخرة وعالم الغيب.

الثاني: عرفة مشهد القيامة

عرفة معلمٌ ثانٍ يعبر عن الحشر إذ تجتمع الخلائق منذ آدم إلى آخر إنسان يأتي على سطح الكرة الأرضية أي يجمع المليارات من الناس، وهذا الاجتماع للبشرية كلها بشتى أصنافها واختلافاتها في مشاربها وثقافاتها وواقعها الجغرافي يكون على صعيد واحد في يوم القيامة، وعرفة مشهد مصغر من مشاهد القيامة، ومحشر مصغر يتعلم فيه الإنسان درسين بليغين تشير إليهما الروايات هما:

الأول: الاعتراف بالتقصير

عرفة اعتراف بالذنب والتقصير، وهذا ما أبانته الروايات حيث ذكرت أنّ سبب تسمية عرفة هو أنّ إبراهيم عليه السلام قيل له اعترف بذنبك، عن معاوية بن عمار سألت أبا عبد الله (الصادق) عليه السلام: لِمَ سُمّيت عرفات؟ قال: إنّ جبرئيل عليه السلام خرج بإبراهيم صلوات الله عليه يوم عرفة، فلمّا زالت الشمس قال له جبرئيل عليه السلام: «يا إبراهيم، اعترف بذنبك، واعرف مناسكك. فلذلك سُمّيت عرفة»[1].

الثاني: معرفة الله تعالى

إنّ الاعتراف بالذنب والاستغفار يرتبط بأمر آخر تشير إليه الروايات وهو أيضاً سبب تسمية عرفة بعرفة، إذْ أنّ الحاج يعرف ربه ويتعرف على مبدئه في عرفة.

---

(١) في وسائل الشيعة ج ١١ ص ٢٣٧.

هناك ربط وثيق بين معرفة الإنسان لربه واعترافه بذنبه، وهذا الارتباط نشأ لأنّ المعرفة لا يصل إلى حقيقتها العارف ما لم يتعرف على نفسه، اعرف نفسك تعرف ربك، «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[١]، معرفة النفس هي البداية الأولى والجسر لمعرفة الله تعالى ويتأتى للإنسان أن يعرف نفسه إذا عرف أنه مقصر ومحتاج وفقير لله تعالى، إنّ إدراك الإنسان لفقره واحتياجه إلى الغني المطلق يدعوه إلى طلب عفوه ورحمته، واللجوء إليه تعالى، «لا ملجأ ولا منجأ منك إلاّ إليك»[٢]، وبلجوئه ورجوعه إلى الله تعالى يصل إلى ما يريده تعالى منه، الله يريد من المرء أن يَفُر إليه ويلجأ له، قال تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾(الذاريات:٥٠)، والفرار إلى الله واللجوء إليه يحقق للإنسان عمق الارتباط به تعالى.

المعرفة العبودية لله تعالى

تجلي مدرسة أهل البيت عليهم السلام من خلال الأدعية والأعمال الواردة في عرفة عنهم عليهم السلام المعرفة الحقة لله تعالى، وأهم الأدعية الواردة في عرفة دعاء الإمام الحسين عليه السلام ودعاء الإمام زين العابدين عليه السلام في يوم عرفة، وفي كليهما يُظهر الداعي الفقر والفاقة واللجوء إلى الله تعالى في مقاطع متعددة وفقرات عدة يتجلى بوضوح وصول الداعي إلى معرفة الله تعالى والارتباط به تعالى، قال الإمام الحسين عليه السلام: «كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ، أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ حَتّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ، مَتى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إِلى دَليلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ، وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكُونَ الآثار هِيَ الَّتي تُوصِلُ إِلَيْكَ، عَمِيَتْ عَيْنٌ لا تَراكَ عَلَيْها رَقيباً، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصيباً»[٣]، إنّ غاية العرفان أن يصل العارف إلى الله تعالى إلى معنى «كَيْفَ

(١) عوالي اللئالي ج ٤ ص ١٠٢.
(٢) وسائل الشيعة ج ٦ ص ٤٤٧.
(٣) بحار الانوار ج ٩٥ ص ٢٢٦.

يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيْكَ»، هذه معرفة الصديقين أن يعرف المرءُ الحقَّ بالحق تعالى، أما إظهار جانب الفقر والفاقة والاحتياج في دعاء الإمام الحسين عليه السلام فيظهر في قوله عليه السلام: «أَنَا الْفَقيرُ في غِنايَ فَكَيْفَ لا أَكُونُ فَقيراً في فَقْري، إِلهي أَنَا الْجاهِلُ في عِلْمي فَكَيْفَ لا أَكُونُ جَهُولاً في جَهْلي»[1]، الإنسان في حالة غناه فقيرٌ إلى عفو الله تعالى ورحمته، لأنّ غناه اعتباري ليس بحقيقي، ولا يستغني الإنسان بالأمن والصحة والمال والولد والجاه، والرفقة، كل ذلك من نعم الله تعالى عليه، فما لدى الإنسان من نعم وآلاء من عند الله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣).

الحاج في عرفة يتعرف على جانبين هامين هما: الاعتراف بالتقصير والمعرفة لله تعالى، وبهما يعي الارتباط الوثيق بين فقره وفاقته ويكون ذلك جسراً يربطه بالحق تعالى، من أهم المنافع المنفعة المعرفية التي تؤدي بالحاج إلى معرفة الله تعالى ومعرفة نفسه، واستذكار عالم الآخرة عبر موقفه في إحرامه ووقوفه في عرفة.

الجمعة: ٢٥/ ١١/ ١٤٣٠هـ

(١) بحار الانوار ج ٩٥ ص ٢٢٥.

يوم عرفة في بُعده الزمني والعرفاني

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾(الحج:٢٧). صدق الله العلي العظيم.

إنّ كُل مفردة من مفردات الحج تُمثل أسراراً وحِكَماً متعددة، تدعو المؤمن إلى التأمل فيها لاستجلاء معانيها، والوصول إلى عمقها؛ لما في ذلك من مردود إيجابي كبير يعود على مسار الإنسان في حياته الدنيوية والأخروية، وسنشير إلى بعض أبعاد الحج من خلال استعراض بعض نُسُكه.

الوقوف بعرفة :

من مناسك الحج الوقوف بعرفة، وما أدراك ما عرفة؟ ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الحج عرفة»[1]، وهناك إشارات متعددة في الروايات لبيان أهمية الموقف في عرفة، وكي يتضح لنا ذلك علينا أن نتعرف على سبب التسمية، جاء في الروايات أنّ عرفة سُمِّيت بهذا الاسم لأنّ آدم عليه السلام اعترف فيها بذنبه، وورد أيضاً بأنّ التسمية تعود إلى أنّ الإنسان يتعرف على مبدئه -الله تعالى- في ذلك المكان، وهناك أبعاد أخرى سنتطرق إلى بُعدين هامين منها:

(١) عوالي اللئالي ج ٢ ص ٩٠.

الأول: البعد الزمني

فُطِرَ الإنسان على حب الكمال والوصول إلى الله تعالى، إلاَّ أنّ هناك مُعوقات تحول دون وصوله إلى كماله المنشود، منها صدور بعض الذنوب والخطايا منه، وذلك يشكل عائقاً نفسياً ومعنوياً، وإذا التفت الإنسان إلى ما اقترفه من خطايا وقف مكانه دون أن يستطيع التّقدم إلى الأمام في تحقيق رضوان الله تعالى.

من هنا جاءت الروايات لتُحدد أهمية وقت الوقوف بعرفة الذي يبدأ من زوال يوم التاسع إلى غروب الشمس، فهذا التوقيت الزمني ينعكس على مسيرة الإنسان في الوصول إلى هدفه لكونه يعترف فيه بما اقترفه من تقصير رجاء الفوز بمغفرة الله تعالى ورضوانه.

لذا ذكرت الروايات بأنّ عرفة كفيلة بإيصال الإنسان إلى ما يصبو إليه من المغفرة والرضوان بل أنّ بعض الذنوب لا تُغفر إلا في عرفة، قال ﷺ: «مِنَ الذنوبِ ذنوبٌ لا تُغفر إلا بعرفات»[١]. ونُؤكد هنا على أنّ الحاج مهما كثُرت ذنوبُه لا ينبغي له أن يستسلم لليأس ويُصبح أسيراً للقنوط، بل عليه أن يكون على درجة عالية من الرجاء لرحمة الله تعالى ورضوانه، قال النبي ﷺ: «أعظم أهل عرفات جُرماً من انصرف وهو يظن أنه لن يُغفر له»[٢].

مميزات البُعد الزمني:

يُحقق هذا البُعد للإنسان ميزات متعددة:

الأولى: أنّ عليه أن يُحدد وقتاً للوصول إلى أهدافه وما يصبو إليه من آمال وطموحات.

(١) مستدرك وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٣٠.
(٢) مستدرك وسائل الشيعة ج ١٠ ص ٢٩.

الثانية: أن يتيقن بأن من يمتلك القدرة المطلقة والهيمنة التامة التي لا حدود لها -وهو الله تعالى- قادر على غفران ذنوبه وإيصاله إلى ما يرجوه منه تعالى.

الثالثة: إنّ على الإنسان أن يُدرك أنه مقصر ولا يُمكنه تلافي أخطائه إلا من خلال تحري الأوقات المناسبة للاستغفار والتوبة، وقد وردت روايات عن النبي ﷺ وأهل بيته عليهم السلام تبين تلك الأوقات.

الثاني : البعد العرفاني

إنّ أرض عرفة تمتاز بقُدسية خاصة وطابع معنوي جذاب منذ أزمنة تاريخية بعيدة ترتبط بجميع الأنبياء الذين جاءوا إلى هذه البقعة من آدم عليه السلام إلى النبي محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، وقد علّموا أصحابهم وأتباعهم الطريقة المثلى في الإفادة من تواجدهم في هذا المكان المقدس من خلال الدعاء والتضرع إلى الله تعالى، ويُدلل على ذلك ما ورد من أدعية أهل البيت عليهم السلام في عرفة لاسيّما دعاء الإمام الحسين عليه السلام ودعاء الإمام زين العابدين عليه السلام . فهذان الدُعاءان من أبرز أدعية أهل البيت عليهم السلام عمقاً معرفياً وتوجيهاً تربوياً وسلوكاً عرفانياً وأسلوباً مؤثراً يجذب الحاج نحو الله تعالى ويُخرجه من عالم الماديات إلى عالم المعنى.

مميزات البعد العرفاني :

هذا البُعد العرفاني يُحقق ميزات متعددة :

الأولى: إنه يتقاطع ويتصل في نقطة محددة مع معرفة النفس، وقد أشارت الروايات إلى بيان هذا المعنى، منها: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1]، أي أنّ من عرف فقره وتقصيره وعرف الغنى والإفضال بلا حدود من قِبَل الله تعالى، وصل إلى معرفة ربه

(١) بحار الأنوار ج ٢ ص ٣٢.

بأنه الغني المطلق.

الثانية: إنّ خصوصية الجانب العرفاني فيما يشتمل عليه من بُعدٍ معرفي يتكفل بإيصال الإنسان إلى الله تعالى، وما أروع هذا البُعد الذي يجعل الإنسان يرى الله تعالى قادراً على إيصاله إلى ما يُريد، ليس في دار الآخرة – بأن يجعله مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين– بل في دار الدنيا بتحقيق ما يصبو إليه من طموحات.

الثالثة: أنّه بُعد يتقاطع مع وقوف العبد بعرفة خاشعاً منقطعاً متبتلاً عارجاً بوجوده الروحاني والجسماني إلى الله تعالى، من خلال الأدعية ذات المضامين العالية التي امتازت بها مدرسة أهل البيت عليهم السلام وتفوقت على المدارس الأخرى والاتجاهات المغايرة، ففي هذه المدرسة تركيز كبير على أهمية الدعاء، رغم أنّ الصوم من المستحبات الواردة في يوم عرفة، إلاَّ أنّ الأئمة عليهم السلام يُؤكدون على أنّه لا يُستحبُّ الصوم للواقف بعرفة إذا كان الصوم يُضعِفُه عن الدعاء والإقبال على الله تعالى، لأنّ يوم عرفة يوم دعاء ومسألة وانقطاع إلى الله تعالى.

متى تُفقد ميزات البُعد العرفاني؟

إنّ هذه الميزات التي ذكرناها للبُعد العرفاني قد لا تتحقق للإنسان ولا يمكنه الوصول إليها والإفادة منها إذا فوّت على نفسه فرصة الالتحاق بقوافل الحجيج، فقد سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحد العرب الأثرياء بعد أن أنهى النبي صلى الله عليه وآله وسلم المناسك في طريق رجوعه إلى المدينة، فالتفت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائلاً له: يا رسول الله لقد فاتني الحج، ولي من المال كذا وكذا... فمُرني يا رسول الله، ماذا أفعل لأدرك ما فاتني من الحج ؟ فأجابه النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لو أن أبا قبيس لك زنته ذهبة حمراء أنفقته في سبيل الله ما بلغت ما بلغ الحاج[1]، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يُشير هنا إلى الثواب بما هو ثواب؛ بل إلى الأبعاد المعنوية والعمق المعرفي

(١) وسائل الشيعة ج ١١ص ١١٦.

الذي تتضمنه المشاعر المقدسة في الحج، وما تُحققه للإنسان من وقفات مع الله تعالى ومع نفسه، لأنه من المعلوم بأنّه قد يصلي الإنسان ويدرك ثواب الحج، لكنه لا يصل إلى بُعده العرفاني، المحقق لإدراك فقره واحتياجه الذاتي إلى الله تعالى كما وصل إلى ذلك الواقف بعرفة، لذا قال ﷺ: «الحج عرفة»[1]، ولعله مضمون ما أشار إليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾(الحج:٢٧-٢٨). وما أروعها وأعظمها من منافع تتصل بالمسيرة التكاملية للإنسان وترتبط بحياته الدنيوية والأخروية.

(١) عوالي اللئالي ج ٢ ص ٩٠.

إشراقات معرفية من دعاء عرفة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

الدعاء في الحج

الحج مدرسة تربوية هدفها رفع مستوى الإنسان على أصعدة متعددة؛ منها: الصعيد المعرفي والعرفاني عبر نواحٍ متعددة، أهمها ذكر الله تعالى ودعاءه، وقد أُولي الدعاء عناية كبيرة من النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام في كل مشهد ومنسك من مناسك الحج.

أهمية دعاء عرفة

لعل أهم وأعظم الأدعية الواردة في نسك الحج ما جاء عن الإمامين الحسين وزين العابدين عليهما السلام، وقد اشتهر دعاء عرفة للإمام الحسين عليه السلام الذي يشتمل على مضامين في معرفة الحق تعالى، ويحتوي على معارف في السير التكاملي في الوصول إلى الله تعالى، أبان الإمام عليه السلام في هذا الدعاء فقر الإنسان واحتياجه للارتباط بالله تعالى.

مضامين عالية في دعاء عرفة

عند التأمل في بعض مقاطع دعاء عرفة نجد الإمام عليه السلام يبين الطريق الذي يرتقي فيه الحاج بنسكه وحجه سُلم التكامل فيستشعر عظمة الحق، قال عليه السلام: «اللّهُمَّ اجْعَلْنِي أَخْشاكَ كَأَنِّي أَراكَ، وَأَسْعِدْنِي بِتَقْواكَ، وَلا تُشْقِنِي بِمَعْصِيَتِكَ، وَخِرْ لِي فِي قَضائِكَ، وَبارِكْ لِي فِي قَدَرِكَ، حَتَّى لا أُحِبَّ تَعْجِيلَ ما أَخَّرْتَ، وَلا تَأْخِيرَ ما عَجَّلْتَ، اللّهُمَّ اجْعَلْ غِنايَ فِي نَفْسِي، وَاليَقِينَ فِي قَلْبِي، وَالإِخْلاصَ فِي عَمَلِي، وَالنُّورَ فِي بَصَرِي، وَالبَصِيرَةَ فِي دِينِي، وَمَتِّعْنِي بِجَوارِحِي، وَاجْعَلْ سَمْعِي وَبَصَرِي الوارِثَيْنِ مِنِّي»[1] هذا المقطع الرائع يحوي مضامين رفيعة نوجزها في الآتي:

الأول: الخشية من الله

قال عليه السلام: «اللّهُمَّ اجْعَلْنِي أَخْشاكَ كَأَنِّي أَراكَ»، بيّن القرآن الكريم أنّ من يخشى الله من عباده هم العلماء، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(فاطر:٢٨) فالعالم بالله يخشاه لأنه يراه حاضراً وناظراً، ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾(الحديد:٤) وهذه المعية لله تعالى في كل موقف يقفه الإنسان، ويريد الإمام عليه السلام بقوله: «اللّهُمَّ اجْعَلْنِي أَخْشاكَ كَأَنِّي أَراكَ» الرؤية القلبية وتجلي الحق تعالى لعباده، ووصول الناسك بحجه إلى هذا المقام العظيم.

الثاني: التقوى طريق السعادة

قوله عليه السلام: «وَأَسْعِدْنِي بِتَقْواكَ» يبين عليه السلام أنّ طريق الحصول على السعادة بتقوى الله تعالى، فلا طريق سواه يوصل الإنسان إلى شاطئ الأمان وساحل الاطمئنان

(١) إقبال الأعمال لابن طاووس ج٢ ص ٧٩.

والنجاة، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾(النبأ:٣١) هم الفائزون كما عبر القرآن، أما من لا يخشى الله ولا يتقيه فهو وإنْ ظفر بالدنيا إلاّ أنها متاع أيام قلائل يأفل كما تأفل الشمس، ويتلاشى كما يتلاشى السراب فليست الدنيا باقية.

الثالث: الشقاء بالمعصية

ويبين عليه السلام أنّ الشقاء بمعصية الله، والابتعاد عنه تعالى، «وَلا تُشْقِنِي بِمَعْصِيَتِكَ».

الرابع: طلب القضاء الأحسن

الإمام عليه السلام يُعلم الناس أنّ الله هو المتصرف في الكون، والقادر على كل شيء فيه، ولا يتحقق شيء في الكون إلاّ بإذنه وتقديره وقضائه تعالى، وعلى الإنسان أن يتحلى بمعرفة خاصة، تتيح له أن يرضى بقضاء الله وقدره من ناحية، وأن يُفعِّل قدراته من ناحية أخرى، ويدعو الله بأن يختار له الأفضل والأكمل لأنّ الله على كل شيء قدير، فقوله عليه السلام: «وَخِرْ لِي فِي قَضائِكَ» أي اجعل ما تقضيه وتقدره الأحسن والأفضل.

الخامس: طلب البركة

إنّ الدعاء بهذه الكلمات في يوم عرفة يقرب العباد إلى الله تعالى، «وَخِرْ لِي فِي قَضائِكَ وَبارِكْ لِي فِي قَدَرِكَ»، ويحقق للإنسان كمالاً معنوياً، إذْ أنّ البركة في تقديره تعالى هي نماء وزيادة فيما يُقدره، فإنّ التقدير قد يؤدي بحياة الإنسان إلى السوء، أما التقدير المبارك فيصب في صلاح الإنسان ويستمتع به ليصل إلى ما يصبو إليه، «وَبارِكْ لِي فِي قَدَرِكَ».

السادس: الرضا بما قدره الله

ومن البركة في تقديره تعالى وقضائه أن يرضى الإنسان بما قدَّره الله، «حَتَّى لا أُحِبَّ تَعْجِيلَ ما أَخَّرْتَ وَلا تَأْخِيرَ ما عَجَّلْتَ»، فالباري تعالى عالم بالمصالح التي تجري في الكون، فلا يعلم بها إلاّ هو أو من أطلعه على ذلك، والعارف المؤمن السائر في صراط العبودية لا يحب تأخير ما عُجل له، ولا يبغض تأخير ما أجله الله لعلمه بأنّ المقادير تجري بحكمة من لدن الحق تعالى، وهو وإنْ لم يُدرك أين تكمن مصلحته؟ غير أنه يبذل قصارى جهده ويتقي الله متوكلاً عليه، وحينئذ فإنّ المصلحة ستكون له في نهاية المطاف، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(القصص:٨٣).

السابع: غنى النفس

قال عليه السلام: «اللّهُمَّ اجْعَلْ غِنايَ فِي نَفْسِي وَاليَقِينَ فِي قَلْبِي وَالإخْلاصَ فِي عَمَلِي» يطلب عليه السلام أن يستغني، موضحاً بأنّ الكثير من الغناء لا يتحقق بالمظاهر الزائفة وإنما بغنى النفس الذي يكمن في الارتباط بالله تعالى، إنّ كثيراً من الأشقياء تتوافر لهم النعم، إلا أنهم في أشد حالات الفقر والفاقة ولا يستمتعون بشيء منها، لأنّ الله لم يجعل لهم غنىً في أنفسهم، والإمام عليه السلام يركز على هذا المحور الأساس والمهم في شخصية الإنسان وهو الغنى الخاص، المتمثل في الاستغناء بالله تعالى، لكونه مصدر النعم والإفضال والعطاء، «اللّهُمَّ اجْعَلْ غِنايَ فِي نَفْسِي».

الثامن: الوصول إلى الاطمئنان

يريد الإمام عليه السلام أن يصل الداعي إلى اليقين، «وَاليَقِينَ فِي قَلْبِي»، الاطمئنان واليقين درجتان، وهما الغاية من تشريع العبادة، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ

﴿ٱلْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩) العبادة لله تعالى لا شريك له، وهذا مسلك إبراهيم عليه السلام في الحج، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام: ١٦٢-١٦٣)، ثم قال عليه السلام: «وَالْيَقِينَ فِي قَلْبِي وَالإِخْلاصَ فِي عَمَلِي»، يَطلب عليه السلام أن يصل إلى درجة الإخلاص لتكون أعماله لله تعالى، وهذه الدرجة توصل الإنسان إلى الاجتباء والاصطفاء فيكون مُخلَصاً ـ بفتح اللام ـ لله تعالى، فتصبح توجهاته إلهية، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾(الحجر:٩٩) أي من الذين استخلصناهم واجتبيناهم واصطفيناهم.

الاستمتاع بالنعم الإلهية

قال عليه السلام: «اللّهُمَّ اجْعَلْ غِنايَ فِي نَفْسِي وَالْيَقِينَ فِي قَلْبِي وَالإِخْلاصَ فِي عَمَلِي وَالنُّورَ فِي بَصَرِي وَالبَصِيرَةَ فِي دِينِي»، نعم الله تعالى على الإنسان متعددة، ومن نعمه العظيمة البصر ينظر به إلى الأشياء فيبصرها، إلاّ أنه يضعف تدريجياً كلما تقدم العُمر بالإنسان، والإمام عليه السلام يطلب من الله تعالى أن يُبقيه مستمتعاً بهذه النعمة لما لها من عظيم الأثر في تكامل الإنسان على الأصعدة المختلفة، ثم قال عليه السلام: «وَالبَصِيرَةَ فِي دِينِي»، يطلب البصيرة في الدين، لكونها أعظم الأشياء التي تدرك بها حقائق الدين من جهة، ويُعرف المتدين الصالح من جهة أخرى، وهي توأم مع الوسطية والمرونة، لأنها تُعرِّف الإنسان على حقائق الأحكام الشرعية بالنحو الذي يتيح له أن يتفاعل نفسياً وعاطفياً وعقلياً وفكرياً مع هذه الحقائق فيتجه نحو الله تعالى، ويَعرف الصالحين المتدينين لأنه بصير، ويمتزج بهم لكونه مرناً في تعاطيه مع أحكام الله تعالى من ناحية ومع المتدينين من ناحية أخرى، إنّ مرونة الدين كبيرة لأنه شُرِع لسعادة الإنسان، غير أنّ بعض المتدينين لا بصيرة له في دينه

فيتزمت في تدينه، لعدم وعيه الكافي بحقائق الدين، أي ليس له بصيرة في دينه، إذِ الدين كله يُسر، أما من زاد عن حده فقد انحرف به المسار وشط به السُرى وابتعد عما يريده الله تعالى.

إنّ الإمام عليه السلام يركز على البصيرة في الدين، لكونها تُعبر عن الخبرة في التعامل مع المجتمع بما يريده الله دون تزمت، إنها تعاليم يصل إليها الداعي في نسك عرفة.

الجمعة: ١٩/ ١١/ ١٤٢٨هـ

تأملات في دعاء عرفة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(آل عمران:٩٧) صدق الله العلي العظيم.

البعد المعرفي لله تعالى أهم الأبعاد، وقد جاء في محاور متعددة، كمحور جهاد النفس، وتحمل المشقة، ومحور الصبر، ومحور الإنفاق في سبيل الله تعالى، ومحور الالتزام بالقانون الإلهي والتعبد لله تعالى، ومحور الدعاء، وهو مخ العبادة، نعم؛ لقد جاءت نصوص متعددة من الأدعية توضح ما ينبغي للحاج أن يصل إليه من درجات عالية في عرفانه للحق تعالى، ومن أفضل ما جاء من أدعية الحج دعاء الإمام الحسين عليه السلام ودعاء الإمام زين العابدين عليه السلام، ففي دعاء عرفة لإمامنا الحسين عليه السلام مقاطع متعددة، كل مقطع منها يبين ما ينبغي أن يصل إليه الحاج من الرقي العرفاني والاتصال بالمبدأ المتعال، ويحار من يقرأ هذا الدعاء أي مقطع يأخذ ليدلل به على هذا البعد المعرفي، غير أنّ من أروع المقاطع ما جاء في آخر دعاء عرفة، قال الإمام عليه السلام «إِلهِي أَنَا الفَقِيرُ فِي غِنايَ، فَكَيْفَ لا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي، إِلهِي أَنا الجاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لا أَكُونُ جَهُولاً فِي جَهْلِي، إِلهِي إِنَّ اخْتِلافَ تَدْبِيرِكَ، وَسُرْعَةَ طَواءِ مَقادِيرِكَ مَنَعا عِبادَكَ العارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلى عَطاءٍ وَاليَأْسِ مِنْكَ فِي بَلاءٍ، إِلهِي مِنِّي ما يَلِيقُ بِلُؤْمِي وَمِنْكَ ما يَلِيقُ بِكَرَمِكَ، إِلهِي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ لِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُما بَعْدَ وَجُودِ ضَعْفِي، إِلهِي إِنْ ظَهَرَتِ المَحاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ،

وَلَكَ المِنَّةُ عَلَيَّ، وَإِنْ ظَهَرَتِ المَساوِئُ مِنِّي فَبِعَدْلِكَ، وَلَكَ الحُجَّةُ عَلَيَّ، إِلهِي كَيْفَ تَكِلُنِي وَقَدْ تَوكَلْتُ لِي، وَكَيْفَ أُضامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ لِي، أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ الحَفِيُّ بِي، ها أَنا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْرِي إِلَيْكَ، وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِما هُوَ مَحالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حالِي وَهُوَ لا يَخْفَى عَلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ أُتَرْجِمُ بِمَقالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزٌ إِلَيْكَ، أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ»[1] كلمات عظيمة تبين حقيقة ما يصل إليه الحاج بانقطاعه إلى الله تعالى ومعرفته به.

الفقر الذاتي :

بين الإمام عليه السلام ما أفاده القرآن الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ (فاطر:١٥) فقوله عليه السلام : «أَنَا الفَقِيرُ فِي غِنايَ» معناه أنّ الإنسان حتى إذا توافرت لديه روافد الغناء من الصحة والمال وما يحتاجه في حياته غير أنه فقير في غناه، لأنه لن يغنيه شيءٌ عن الله تعالى، إذِ المال والجاه والمنصب والصحة وكل شيء آخر لا يغني عن الله تعالى، الإنسان في صحته قد يُؤخذ أخذ عزيز مقتدر، وكثير من الناس مات في قمة صحته، وابتلي بمرض عضال في أوج عافيته، فخر كما يخر الطير من جو السماء، «أَنَا الفَقِيرُ فِي غِنايَ، فَكَيْفَ لا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي».

الجهل بعظمة الحق تعالى

«إِلهِي أَنا الجاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لا أَكُونُ جَهُولاً فِي جَهْلِي» إنّ العالم لا يحيط بعظمة جلال الحق تعالى، ويجهل إحاطة الحق بالخلق، ومهما وصل في علمه لن يتاح له أن يصل إلى تلك المعرفة لله تعالى، فلا يصل الإنسان إلى درجات عالية إلاّ ويتبين له

(١) بحار الأنوار ج ٩٥ ص ٢٢٥.

جهله، وكلما اشتد عرفاناً لله تعالى أدرك أنه جاهل في معرفته تعالى.

بك يا أعجوبة الكون غدا فكري كليلاً كلما قدمت فكري فيك شبراً فرّ ميلاً

فلا يصل أحد إلى معرفة الحق تعالى إلاّ ويدرك جهله، هذا حال العالم فكيف بمن لا يعرف الله تعالى، فالعالم جاهل بمعرفته تعالى، «فَكَيْفَ لا أَكُونُ جَهُولاً فِي جَهْلِي».

تقلبات الأحوال :

ثم بين الإمام عليه السلام حقيقة هي غاية الصدق وعرفان الحق تعالى وهي «إِنَّ اخْتِلافَ تَدْبِيرِكَ وَسُرْعَةَ طَوَاءِ مَقادِيرِكَ» الله تعالى هو المدبر للكون والمغير لحال الإنسان من حال إلى حال، فلا يدوم صاحب النعيم في نعيمه، ولا صاحب الفقر في فقره، ولا صاحب البؤس في بؤسه ولا صاحب السؤدد والعزة في عزته، كل يتغير حاله إلى حال، وبنحو سريع فلا يظن المرء أنه باقٍ وماكثاً في عزه وسؤدده، بل يتغير حال الإنسان من حال إلى حال، «إِلهِي إِنَّ اخْتِلافَ تَدْبِيرِكَ وَسُرْعَةَ طَوَاءِ مَقادِيرِكَ» الله تعالى يطوي المقادير من تقدير مقدر إلى تقدير آخر، «مَنَعا عِبادَكَ العارِفِينَ بِكَ عَنِ السُّكُونِ إِلى عَطاءٍ» العارف بالله تعالى لا يسكن إلى عطاء، حتى إذا كانت الدنيا بين يديه غير أنه يرى فقره وتقلب الأحوال فنبي الله سليمان عليه السلام وذو القرنين كانا ملكين عظيمين إلاّ أنّ كلاً منهما يرى أنّ المكنة والعزة لله تعالى لا يستطيع أحد أن يكون له ملجئ من دون الله تعالى – يا من لا منجأ ولا ملجأ منه إلاّ إليه – ولن يقيك أحدٌ ويحجبك عن سطوته تعالى، «مَنَعا عِبادَكَ العارِفِينَ» العارف بالله تعالى من يصل إلى هذا المقام فلا يسكن إلى عطاء، فمهما أوتي من عزة ومن غنى فإنه يرى فقره بل يرى أنه مركوس في عين الفقر والفاقة، وإنْ أصابه بؤس أو شدة فلن ييأس من روح الله تعالى بل يرى أنّ الله تعالى قادر على أن يحول بؤسه إلى رخاء ونعيم، «وَاليَأْسِ مِنْكَ فِي بَلاءٍ» حتى إذا اشتد البلاء

وادلهم الخطب فإنّ الله تعالى قادر على تغييره.

شح الإنسان والكرم الإلهي

بين الإمام عليه السلام أنّ الإنسان يعيش الشح في نفسه، واللؤم في ذاته بطبيعة حاله ويحتاج أن يلتصق بمبدأ الغنى المطلق بالله تعالى «مِنِّي ما يَلِيقُ بِلُؤْمِي وَمِنْكَ ما يَلِيقُ بِكَرَمِكَ» الله تعالى هو الغني المطلق الذي لا حدود لغناه والإنسان فقير يعيش اللؤم والشح في ذاته، ويبخل بهما على نفسه تارة وعلى غيره تارة أخرى، «مِنِّي ما يَلِيقُ بِلُؤْمِي وَمِنْكَ ما يَلِيقُ بِكَرَمِكَ».

اللطيف شديد الرحمة بخلقه

«إِلهِي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ لِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي» فالله تعالى هو اللطيف بعباده، قبل وجود الخلق وبعد وجود الخلق، ومع وجود الخلق فقد وصف نفسه بالرأفة وهي الشدة في الرحمة، فهو تعالى ليس برحيم فقط بل شديد في رحمته تعالى «إِلهِي وَصَفْتَ نَفْسَكَ بِاللُّطْفِ وَالرَّأْفَةِ لِي قَبْلَ وُجُودِ ضَعْفِي أَفَتَمْنَعُنِي مِنْهُما بَعْدَ وَجُودِ ضَعْفِي» وهو كذلك بعْد خلقه للإنسان فلا يمنعه من لطفه ورأفته ورحمته.

ظهور المحاسن بالفضل والكرم الإلهي

«إِلهِي إِنْ ظَهَرَتِ المَحاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ» إنّ الله تعالى هو الذي أظهر محاسن الإنسان، وإذا قال الناس هذا كريم ولديه خلق طيب، فإنّ من ألهم الخلق أن يتحدث عن المرء بأخلاقه الطيبة هو الله تعالى ولولا ذلك لما تحدث عنه فجميع النعم ترجع إليه تعالى «إِلهِي إِنْ ظَهَرَتِ المَحاسِنُ مِنِّي فَبِفَضْلِكَ وَلَكَ المِنَّةُ عَلَيَّ» الله تعالى قدّر ذلك وأجراه على أيادي خلقه، «وَإِنْ ظَهَرَتِ المَساوِئُ مِنِّي فَبِعَدْلِكَ وَلَكَ

الحُجَّةُ عَلَيَّ» الإنسان إذا تهاوى في أوحال الرذيلة والعياذ بالله، فالسبب يعود إلى نفسه، لأنه لم يسر في طريق الهدى، ولم يأخذ بطريق الحق تعالى، ولم يجاهد نفسه، فوكله الله تعالى إلى نفسه، ومن وكله إلى نفسه زالت محاسنه وأصبحت مساوئ للخلق، ومهما قدم من حَسَن، فلا يراه الناس إلاّ لئيماً، والسبب يعود إلى أنّ الله تعالى لم يلهم الخلق بالنطق بالثناء عليه، بينما قد يفعل بعض الناس القليل ويمدح كثيراً، والمائز هنا كون العمل لله تعالى، وإذا كان العمل لله تعالى ادخر له في ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ (الشعراء: ٨٨ - ٨٩) أما إذا كان للناس قيل له: خذ جزاءك وثوابك ممن عملت له.

اللجوء إلى الله تعالى

«إِلهِي كَيْفَ تَكِلُنِي» إنّ من مال إلى غير الله تعالى وكله الله تعالى إلى ما مال إليه وذلك أنّ الله تعالى هو المتكفل به «وَقَدْ تَكَفَّلْتَ لِي وَكَيْفَ أُضامُ وَأَنْتَ النَّاصِرُ لِي» والله تعالى هو الناصر للخلق، فلا ينبغي أن يُنتصر بغيره إذِ النصر لا يتأتى إلاّ بالأخذ بأسبابه، ومن أراد أن يكون الله تعالى ناصراً له عليه أن يتوجه إليه تعالى.

حفاوة الله تعالى بالخلق

«أَمْ كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ الحَفِيُّ بِي» إنّ الله تعالى له حفاوة بخلقه أعظم من حفاوة المضيف لضيفه الكريم.

توسل المرء إلى الله تعالى بالفقر والفاقة

«ها أَنا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْـرِي» إنّ الإنسان لا يملك شيئاً لأنّ جميع ما لديه منه تعالى، وبالتالي فغاية ما يملك هو منه ويبرزه إليه، «ها أَنا أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِفَقْـرِي إِلَيْكَ

وَكَيْفَ أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِما هُوَ مَحالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ» إنّ الفقر لا يصل إلى الله تعالى لأنّه تعالى غني مطلق، والفقر في عالم الإمكان والله تعالى واجب الوجود، ولا يحد بجهة من جهات النقص، فهو الواحد القهار، قاهر للحدود الممكنة للخلق فلا يتاح للإنسان أن يتوسل إلى الله تعالى إلاّ «بِما هُوَ مَحالٌ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ».

علم الله تعالى بحال الإنسان

«أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حالِي وَهُوَ لا يَخْفَى عَلَيْكَ» إنّ حديث الإنسان إلى الله تعالى معلوم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾(ق:١٦) «أَمْ كَيْفَ أَشْكُو إِلَيْكَ حالِي وَهُوَ لا يَخْفَى عَلَيْكَ أَمْ كَيْفَ أُتَرْجِمُ بِمَقالِي وَهُوَ مِنْكَ بَرَزٌ إِلَيْكَ» حتى ما يتاح من ألفاظ يدعو بها الله تعالى هي بقدرة وتوفيق منه تعالى، فهو الذي ألهم فكان النطق بالثناء عليه.

الحق لا يخيب الآمال الوافدة

«أَمْ كَيْفَ تُخَيِّبُ آمالِي وَهِيَ قَدْ وَفَدَتْ إِلَيْكَ» إنّ المرء إذا أمّل الله تعالى وكانت آماله وافدة عليه تعالى فأنّ الله تعالى لا يخيب تلك الآمال التي وفدت إليه.

جلال وعظمة الحق تعالى

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «أنت الذي لا تحد فتكون محدوداً، ولم تمثل فتكون موجوداً»[1] الله تعالى لا مثل له، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾(الشورى:١١) والحدود

(١) الصحيفة السجادية ص ٢٤٧: أنت الذي لا تحد فتكون محدودا، ولم تمثل فتكون موجودا، ولم تلد فتكون مولودا، أنت الذي لا ضد معك فيعاندك، ولا عدل لك فيكاثرك، ولا ند لك فيعارضك، أنت الذي ابتدء واخترع، واستحدث وابتدع، وأحسن صنع ما صنع.

هي للممكن الناقص، أما وجود الله تعالى فكمال مطلق لا حد له «أنت الذي لا تحد فتكون محدوداً، ولم تمثل فتكون موجوداً» أي موجوداً ممكناً، الله تعالى ليس كسائر الموجودات بل وجوده مطلق لا يحد، «ولم تلد فتكون مولوداً» فهو تعالى لم يلد، لأنّ الولادة دليل النقص والحاجة والفقر، والذي يتوالد يكثر، ويستغني بكثرته، والله تعالى غني لا يستغني بغيره، وإذا كان لله تعالى وَلَد فيكون له والد يلده ويكون فقيراً ناقصاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، «أنت الذي لا ضد معك» والله تعالى لا يضاده شيء من خلقه فالأضداد في عالم الإمكان والضد هنا يراد به المعاند وليس الضد بالمعنى المنطقي فقط، بل الأعم بما يشمل النقيض، «أنت الذي لا ضد معك فيعاندك» ليس هناك وجود يعاند الحق تعالى، وحتى الجبابرة والمتغطرسين كفرعون الذي قال ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾(النازعات:٢٤) يدرك هذه الحقيقة ولو في آخر لحظة من حياته عندما تطبق عليه المقادير ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(يونس:٩٠) لا يستطيع أحد أن يهرب من الله تعالى «ولا عدل لك فيكاثرك». «ولا ند لك فيعارضك» ليس لأحد الاعتراض على الله تعالى، فإذا أراد تعالى أن يفعل شيئاً عارضه «ولا ند لك فيعارضك، أنت الذي ابتدأ واخترع» والله تعالى مبتدأ الخلق وهو الذي اخترعهم لا من شيء كما قالت الصديقة الزهراء عليها السلام (١).

«أنت الذي ابتدأ واخترع واستحدث وابتدع، وأحسن صنع ما صنع» الله تعالى جعل ما صنعه جميلاً ولا يرى جمال الخلق إلاّ من ينظر بنور الله تعالى - كن جميلاً ترى الوجود جميلاً - حتى المآسي والآلام ينبثق منها كمال الإنسان، فيصل إلى كماله

(١) في بحار الأنوار ج٢٩ ص ٢٢١، في خطبة الزهراء: ابتدع الأشياء لا من شئ كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كونها بقدرته، وذرأها بمشيته، من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها، إلا تثبيتا لحكمته، وتنبيها على طاعته، وإظهارا لقدرته، وتعبدا لبريته، وإعزازا لدعوته.

بتلك المأساة والبؤس، لذا فمن يسير إلى الحج بهذا المسار الذي أبانه الإمامان العظيمان الحسين وزين العابدين عليهما السلام يصل إلى عرفانه تعالى.

الجمعة ٢٩-١١-١٤٢٩هـ

جوائز الحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾(آل عمران:٩٦) صدق الله العلي العظيم.

عظمة بيت الله تعالى

أوضحت المصادر التاريخية أنّ أول بيت عُبد الله تعالى فيه هو الكعبة، وأشارت أيضاً بأنّه أول بيتٍ بنته الملائكة ثم دُفن وامحت آثاره بما طرأ عليه فجدده آدم أبو البشرية عليه السلام، ثم أمحت آثاره فهدى الله إبراهيم عليه السلام لإشادة بناءه.

إنّ هذا البيت العظيم موئل الأفئدة ومنتجع لأسفار الناس ومحقق لمقاصدهم ومآربهم، وفيه أسرار عظيمة وفوائد كثيرة يحسن بالزائر الحاج أن يلتفت إلى كلمات الأئمة من أهل البيت عليهم السلام التي تشير إليها بعد أن يُحقق في نفسه الأرضية لتحصيلها، بالإقرار بالذنوب عند البيت الحرام؛ ورد عن علي عليه السلام إنّ الإقرار بالذنب عند البيت الحرام يوجب غفران الذنوب العظام، قال عليه السلام: «أقرّوا عند الملتزم بما حفظتم من ذنوبكم» عدد ذنوبك التي أنت ذاكر لها «وما لم تحفظوا» ثم قال عليه السلام: «فقولوا» مخاطبين لله تعالى «وما حفظته علينا» يا ربي «حفظتك ونسيناه فاغفر لنا» ثم أردف قائلاً عليه السلام: «فإنّه من أقر بذنوبه في ذلك الموضع وعدده وذكره واستغفر منه كان حقاً على الله عز وجل أن يغفر له»[1] الإقرار بالذنوب يُزلف إلى الله في القرب منه ورفع

(١) وسائل الشيعة ج ١٣ ص ٣٤٧.

الدرجات في عالم المعنى.

أسرار الوقوف في عرفة

وقد أشار ترجمان القرآن والمفسر لكل شرائع الإسلام والمبين لكل أسرار الشريعة عليٌ عليه السلام: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»[١] عندما سُئل عن الوقوف بعرفة، لما لم يكن الوقوف في الحرم؟ - عرفة خارج الحرم- قال عليه السلام: «لأنّ الكعبة بيته، والحرم بابه، فلما قصدوه وافدين أوقفهم بالباب يتضرعون» فالموقف في عرفة موقف ضراعة وابتهال ومسألة كما جاء في الروايات.

أسرار الوقوف في مزدلفة

وقيل للإمام أمير المؤمنين عليه السلام فالمشعر الحرام لما صار في الحرم؟ فأجاب: «لأنه لما أذن لهم بالدخول أوقفهم بالحجاب الثاني، فلما طال تضرعهم أذن لهم بتقريب قربانهم فلما قضوا تفثهم تطهروا بها من الذنوب التي كانت حجاباً بينه وبينهم» أذن لهم بالدخول، فقصدهم للكعبة بعد المشعر الحرام للإتيان بنسك الحج يُمثل قرباً من الله وصعوداً بدرجات العلى، هذا ما يتحدث به أمير المؤمنين عليه السلام: «أذن لهم بالزيارة على الطهارة» نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.

أسرار التعلق بأستار الكعبة

قيل له عليه السلام: فالتعلق بأستار الكعبة لأي معنىً هو؟ قال عليه السلام: «مثل رجل له عند آخر جنايته وذنب فهو يتعلق بثوبه، يتضرع إليه ويخضع له أن يتجافى عن ذنبه»[٢] فعندما يُتعلق بأستار الكعبة كما كان يفعل الأئمة من أهل البيت عليهم السلام ومنهم زين

(١) ميزان الحكمة ج ١ ص ١٣٩.
(٢) وسائل الشيعة ج١١ ص ٢٢٦.

العباد عليهم السلام فقد كانوا يتعلقون ويجأرون إلى الله بالدعاء، والضراعة بالمسألة كما ورد ذلك في مناجاة التائبين والمستغفرين التي يقول فيها الإمام زين العابدين عليه السلام: «إلهي إنْ كان الندم على الذنب توبة، فإنِّي وعزتك من النادمين، وإنْ كان الاستغفار من الخطيئة حطة فإني لك من المستغفرين، لك العتبى حتى ترضى» إلى أن يقول «إلهي بقدرتك عليّ تب عليّ، وبحلمك عني اعف عنِّي وبعلمك بي إرفق بي»[١].

أسرار النحر في منى

وورد عن علي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخطب يوم النحر ويقول: «أيها الناس هذا يوم الثجّ والعجّ» والثجّ: ما يهرق من الدماء فمن صدقت نيته كانت أول قطرة كفارة لكل ذنبٍ اقترفه إذا أراد بذلك أن يتخلى عن حيوانيته، عندئذٍ تكون هذه القطرة تُمثل توبة نصوحة يصل بها العبد إلى رضوان من الله ومغفرة، فهي كفارة لكل ذنب، والعجّ: رفع الصوت بالتكبير والتلبية والدعاء «فعجوا إلى الله عز وجل فو الذي نفس محمد صلى الله عليه وآله وسلم بيده لا ينصرف من هذا الموضع أحدٌ إلاّ مغفوراً له» وكذا الحال في منى يوم النحر بعد الذبح والتقصير يُغفر للجميع.

ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: «إلاّ صاحب كبيرة مصر عليها لا يحدث نفسه بالإقلاع عنها»[٢] وجاء في بعض الروايات «من لم يغفر له في شهر رمضان لم يغفر له إلى قابل إلا أن يشهد عرفة»[٣] فالاستفادة من هذا الموسم العظيم الذي جعله الله مُزدَلفاً إليه يوصل إلى الدرجات العلى، والإتيان بهذه النسك التي جاء بها الأنبياء والرسل وأكدها موضحاً لها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وفسرها علي عليه السلام وآله الهداة، يحقق خيري الدنيا والآخرة.

---

(١) الصحيفة السجادية.
(٢) مستدرك الوسائل ج١٠ ص ١٢٩.
(٣) وسائل الشيعة ج١٠ ٣٠٥.

توحيد إبراهيم الخليل عليه السلام

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾(الأنعام:١٦٢-١٦٣) صدق الله العلي العظيم.

توحيد العبادة :

من أقسام التوحيد: التوحيد في العبادة بمعنى أن يصرف الإنسان جميع ما يصدر منه من عبادات لله تعالى، فكل مفردة عبادية وكل نسك إذا جاء به الإنسان لله ولغيره فهو مشرك بالله تعالى، وعمله غير خالص، بل مردود عليه غير مقبول منه، لذا أفتى العلماء بأنّ المرائي في عباداته كمن صلى وأظهر انتباه الغير بأنه من الخاشعين لله، صلاته باطلة، وهكذا من أُعجب بعمله فتحدث عن نفسه بأنه يأتي بصلاة الليل ويصوم النهار، فإنّ إعجابه بالعمل يُحبطه، ولا يكون لعمله ثواب، إذاً الإعجاب بالعمل والإتيان به لغير الله يوجبان رده وعدم قبوله، وتلك نتيجة للتوحيد في العبادة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾(الفاتحة:٥) أي أنت المعبود لا شريك لك.

الحياة والموت لله رب العالمين :

حديث الخليل عليه السلام : ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ بيان بأنّ جميع العبادات والمناسك الصادرة من العبد لله وحده، بل أنّ حياته لله وحده؛ إذِ الموحد يرى أنّ وجوده من الله، وما لديه من نعم مترتبة على الوجود منه تعالى.

(ومماتي) أي رجوعي وعودي إلى المبدأ الذي أتيت منه، وهو (لله رب العالمين) إنّ قوله عليه السلام: (لله رب العالمين) استدلال على المطلب، أي أنّ الصلاة والنسك والمحيا والممات لله؛ لأنه رب العالمين،، فهو المربي والمنعم على جميع العالمين، ليس على عالم الإنسان فحسب، بل عالم النبات وعالم الحيوان وعالم الهواء وعالم الملكوت وعالم الجبروت وجميع عوالم الوجود، وكل ما في السماوات والأرض فهو ربه، والمهيمن عليه، قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾(النساء:١٧٠)، قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ﴾ معناه أنّ الحياة بكل ما فيها من مأكلٍ ومشربٍ ونوم وجميع التصرفات لله تعالى.

تحدث القرآن بذلك، وشُرح بالروايات، فقد بينت الأحاديث المتواترة بأنّ من صرف صلاته أو نسكه لغير الله فهو مشرك، إنّ الأعمال العبادية من المستحبات والواجبات بل المباحات يمكن أن تكون عبادة، وعلى المؤمن أن يحول جميع مناشطه إلى عبادة.

من خلال الإيمان بالتوحيد العبادي تندفع كثير من الشبهات التي أوردت.

الذبح للضيف والوالد والمعصوم ليس شركاً :

الذبح للوالد والأم والصديق والضيف والإمام المعصوم والأنبياء والرسل لا يكون ذبحاً لغير الله؛ لأنّ هذه مصاديق التكريم أو هي مصرف لما ذُبح كالذبح للفقراء، وليست هذه العناوين التي تطلق، يذبح المؤمن لها طاعة بل تكريماً، وقد ذكر ذلك في الرسائل العملية في باب الصيد والذباحة، إنّ من شرائط التذكية لحلية أكل لحم الحيوان أن يكون الذابح مسلماً وأن يستقبل القبلة بمقاديم الذبيحة ويذكر اسم الله تعالى عليها، ويفري الأوداج الأربعة (العرقان الغليظان والمريء والبلعوم)، بيّن جميع الفقهاء في رسائلهم العملية تلك الشروط مؤكدين على أنّ الذبح لابد أن يكون

لله تعالى، ومع ذلك يكثر في العرف بأنّ فلان ذبح لأمير المؤمنين عليه السلام أو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أو لأبيه أو لضيوفه، ويراد بذلك الإضافة التي تتحقق بأدنى ملابسة، ومعناه أن يكون الذبح لله تكريماً للضيف، وأن يكون لله تعالى تكريماً للصديق، أو تكريماً للمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم أو الصديقة الزهراء عليها السلام، وهلم جرا؛ أي أنّ قول المسلم: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ يراد به ما يشمل الذبح، ومن ذبح لغير الله تعالى كان ذبحه محرماً، ولا يحل أكل ذبيحته، وهكذا الأمر في الصلاة، فمن صلى لأبيه أو أمه كانت صلاته باطلة إلاّ إذا أراد بذلك أنّ الصلاة لله وحده ولأبيه أو أمه الثواب، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ إذن من صلّى لأمه فقد أهدى ثواب صلاته لها، بيد أنّ هناك من يفهم بأنّ الصلاة فيما ذُكر لغير الله لضيق أفقهم، صلاة الحبوة -صلاة جعفر عليه السلام- التي حباها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجعفر بن أبي طالب عليه السلام نسبت إليه كنسبة الدعاء لكميل، الإمام عليه السلام علّم كميل الدعاء، فنسب له، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم علّم جعفر بن أبي طالب عليه السلام صلاة التسبيح لما جاء من الحبشة، فنسبت له، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ألا أحبوك يا جعفر؟ فحباه[1]، هذه الصلاة التي تتكون من ركعات أربع وثلاثمائة تسبيحة، -سبحان الله والحمد لله

(١) وسائل الشيعة (آل البيت) ج ٨ ص ٤٩: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لجعفر: يا جعفر، ألا أمنحك؟ ألا أعطيك؟ ألا أحبوك؟ فقال له جعفر: بلى يا رسول الله، قال: فظن الناس أنه يعطيه ذهبا أو فضة فتشرف الناس لذلك، فقال له: إني أعطيك شيئا إن أنت صنعته في كل يوم كان خيرا لك من الدنيا، وما فيها وإن صنعته بين يومين غفر الله لك ما بينهما أو كل جمعة، أو كل شهر، أو كل سنة غفر لك ما بينهما تصلي أربع ركعات تبتدأ فتقرأ وتقول إذا فرغت: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، تقول ذلك خمس عشرة مرة بعد القراءة، فإذا ركعت قلته عشر مرات، فإذا رفعت رأسك من الركوع قلته عشر مرات، فإذا سجدت قلته عشر مرات فإذا رفعت رأسك من السجود فقل بين السجدتين عشر مرات، فإذا سجدت الثانية فقل عشر مرات فإذا رفعت رأسك من السجدة الثانية قلت عشر مرات وأنت قاعد قبل أن تقوم، فذلك خمس وسبعون تسبيحة في كل ركعة، ثلاث مائة تسبيحة في أربع ركعات، ألف ومائتا تسبيحة وتهليلة وتكبيرة وتحميدة إن شئت صليتها بالنهار، وإن شئت صليتها بالليل.

ولا إله إلاّ الله والله أكبر- الحبوة الشيء الثمين الذي يعطى لشخص، وصلاة جعفر نسبت إليه لأنّه حُبي بها غير أنّ بعض الناس يتوهم بأنّ الصلاة المذكورة شرك، كنّا في الحج في إحدى السنوات نصليها يوم عرفة ونحض الحجاج عليها، وكان إلى جانبنا بعض المسلمين، فاستشكل قائلاً: من جعفر هذا الذي تصلون له؟ والحال لا أحد يصلي لجعفر بن أبي طالب، جعفر عبد من عباد الله لا يعبد من دونه، لكن الصلاة نسبت له عليه السلام، وهي من الصلوات التي علمها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجعفر، وعندما يقول المصلي: إني أصلي صلاة جعفر أو صلاة علي عليه السلام فهو لا يقصد أن يعبد جعفراً أو علياً بل قصده أن يأتى بتلك الصلاة المنسوبة لجعفر أو علي لله تعالى، لقد أظهر لنا المجاور في عرفة سوءً في التعامل وبذاءة في الألفاظ، فقال: أنتم في يوم عرفة ولا توحدون الله وتصلون لجعفر، ويقف المرء حائراً متردداً في كيفية الرد على هؤلاء الناس الذين لا يفكرون بعقلانية ولا يفهمون المراد من المعاني، لأنّ الدخول في جدل حال الحج محرم، قال تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾، وعلى الحاج أن يلتفت إلى ذلك، لكنّ ترك الإشكال دون إجابة لا يجوز أيضاً، من هنا يقع المرء في حيرة مع من يفكر بطريقة ضيقة ويفهم النصوص الشرعية بهذا النحو من الفهم.

خلاصة :

أنّ من عبد غير الله فهو كافر، لكنّ هذه المفردات التي ذكرناها ليست من مصاديق العبادة لغير الله، وعلينا أن نفهم بأنّ الذبح والصلاة والدعاء كلها لله، والمدعو هو تعالى؛ لأنّ غيره لا يملك النفع والضر وكشف الكرب من دون الله، والتوسل بأحد إنما هو من أجل تقواه ولكونه كريم على الله، وليس ليُدعى من دونه تعالى.

القسم الثالث:

آثار ونتائج الحج

الحج والحب الإلهي

في علل ابن سنان أن الرضا عليه السلام كتب إليه: (إنما سميت منى منى لأن جبرئيل عليه السلام قال: هناك يا إبراهيم تمن على ربك ما شئت، فتمنى إبراهيم في نفسه أن يجعل الله مكان ابنه إسماعيل كبشاً يأمره بذبحه فداء له، فاعطي مناه)[1].

أقسام الحب

أوضح الإمام الرضا عليه السلام مطلباً عرفانياً أخلاقياً كبيراً، يتعلق بالحب الإلهي، ذلك أنّ المرء ينبغي أن يتعلق قلبه بالله تعالى، ويكون ارتباطه وثيقاً به تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾(البقرة:١٦٥) ويتضح هذا المعنى بفهم ما أفاده العلماء في تقسيم الحب إلى قسمين:

الأول: عرضي يعبر عنه بحب في نفس الرتبة.

الثاني: طولي تراتبي يأتي في المرتبة الثانية.

الحب التراتبي

الحب الذي في نفس الرتبة هو أن يشتغل قلب الإنسان بأمرين في رتبة واحدة، ويكون كلا الأمرين محركاً للإنسان ودافعاً له للإتيان بالعمل، فإذا أحب شيئاً انطلق لتحقيق محبوبه، وإذا أراد أن يقوم بعمل حركه كلا الأمرين: قضاء الحاجة، وحصول

(١) بحار الأنوار – العلامة المجلسي – ج ١٢ – ص ١٠٨.

القرب بالإتيان بالعمل، فله دافعان ومحركان في رتبة واحدة وعرض واحد، أما إذا كان المحرك له شيء واحد، قد يكون في طوله غيره، لكنه لا يحركه، وقد عبر الفقهاء عنه في مبحث النية بالضميمة التي لا تخل بالمقصود، ويسمى بالحب التراتبي، أي أنّ الحب على قسمين: حب في نفس الرتبة، وحب في مرتبة متأخرة.

منطلقات حب الله تعالى :

المؤمن كغيره من الناس يحب أشياء كثيرة كالمال والأولاد، والزوجة، والأصدقاء، لكنّ لديه فارق أساس وجوهري، إذْ أنّ منطلقات حبه الأساسية لله تعالى، والمحرك الأساس والدافع الأسمى لتحقيق الغايات لديه هو حب الله تعالى، أما حبه لأبويه أو لزوجته أو أبنائه فينبثق من حبه لله تعالى، وذلك هو المعنى العميق لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾(البقرة:١٦٥).

خصائص الحب الإبراهيمي

إنّ الإنسان يمر بمنعطفات في حياته، وقد يتعلق بالمال فيعتني به أو الولد فلا يلتفت إلى غيره خصوصاً إذا جاءه على كبر سنه، وذلك ما حصل للخليل عليه السلام، فقد جاءه إسماعيل على كبر سنه في الفترة الحرجة.

لا يأس من المحبوب

إنّ كثيراً من الناس يصل إلى اليأس قاطعاً بعدم الإنجاب في تلك الفترة، غير أنّ إبراهيم عليه السلام لارتباطه بالله تعالى لم ييأس من روح الله، فرزقه الله تعالى ابنه البار إسماعيل عليه السلام وأصبح له مزيد عناية وشوق وتوق فكان عليه السلام مورداً لاهتمامه.

تجسيد القيم الإلهية

غير أنّ تعالى جعل خليله عليه السلام يجسد القيم ويفصح عن المثل الإلهية، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾(البقرة:١٣٠) أي أنّ الطريق والملة التي سار عليها إبراهيم عليه السلام هي الطريق الأمثل والصراط المستقيم المؤدي إلى الله تعالى،

لا تعلق بغير الله

قد يتعجب بعض من يقرأ السيرة الإبراهيمية كيف نتبع إبراهيم عليه السلام لنصل إلى حقيقة التعلق بالله تعالى رغم كونه عليه السلام يحمل شوقاً كبيراً وحباً وعناية فائقة بابنه حتى يكاد أن يبدو بأنّ شوقه وحبه في رتبة تعلقه بالله تعالى، فأراد الله تعالى أن يكشف النقاب ويزيل الوهم للسائرين في الطريق الإبراهيمي، فأمره تعالى أن يذبح ابنه، فرأى في المنام أنه يذبحه، ورؤية الأنبياء وحي من الله تعالى، فأخبر إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل قبل الذبح فما كان منه إلاّ الإجابة الصادقة، قال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾(الصافات:١٠٢) أي سأمتثل الأمر، ورغم أنّ الأمر صوري ليس بحقيقي لأنّ الله تعالى لا يريد ذبح إسماعيل حقيقة لكونه من السلسلة التي يترتب على وجودها وجود المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، أي أنّ الله تعالى لا يريد ذبح إسماعيل، لكنه يريد أن يبين بأنّ التعلق الحقيقي لقلب إبراهيم عليه السلام بالله تعالى، وأنّ عنايته بابنه لم تسيطر على قلبه كسيطرة حب الله تعالى عليه، والأمر يفصح عن هذا المعنى الدقيق وهو ما حدث بالفعل، فقد عزم إبراهيم عليه السلام على تنفيذ أمر ربه، وعندما جاء إلى منى بعد أن وقف الموقفين تمنى على الله تعالى، أي خطر في قلبه أن يبدل الله تعالى ذبح ابنه بكبش، فحقق الله له هذه الأمنية واستجاب له ما خطر في فكره، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾﴾(الصافات:١٠٣)، فقد وضع السكين على منحر إسماعيل وحركها، يريد ذبحه لكنه رأى السكين لا تتحرك على منحره فتعجب كيف أنّ الله تعالى يأمره من ناحية

والأسباب لا تؤثر من ناحية أخرى، لأنّه تعالى لا يريد ذبح إسماعيل، قال تعالى: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾(الصافات:١٠٧) فجعل الله تعالى الكبش فداءً لإسماعيل عليه السلام ثم أصبح ذلك سنة

عوامل تجسيد الحب لله

إنّ في ذلك درس لأولي النهى الذين يحبون الله تعالى حبّاً حقيقياً، إذْ أنّ معنى الحب الحقيقي لله تعالى أن يصل المحب إلى التجسيد الحقيقي لأوامر الله تعالى، والانصهار في بوتقة حبه جلّ وعلا.

الأول: الصبر على البلاء

يبتلى الإنسان في الدنيا بابتلاءات كثيرة، فيبتلى في بره لأبويه خصوصاً إذا كان أحد الأبوين سيء الخلق، كيف يتعامل الابن معه؟ وكيف يبره؟ إنّ ذلك من الابتلاء العظيم، فهل ينجح من ابتلي بهذا الابتلاء؟ رغم أنه لا يصل في درجته إلى الابتلاء بذبح الابن، وهناك ابتلاءات كثيرة، لعل منها ابتلاء الشاب بأداء صلاة الفجر في الليلة الشاتية، فهل يمتثل أمر الله تعالى أم يبقى في فراشه نائماً؟ إنّ مَن وعى حقيقة الامتثال لأمر الله تعالى، ومعنى السير في طريق عبوديته وأنه المحقق للسعادة في الدارين، سوف يتعلق قلبه بالله تعالى، وإذا تعلق قلبه بالله تعالى، أصبح همه الأكبر في امتثال أوامره واجتناب نواهيه، أما من لم يصل إلى هذا المعنى الدقيق فقد استحوذ الشيطان على قلبه فصده عن ذكر الله تعالى وعن إقام الصلاة، وجعل أوامر الله تعالى في المرتبة الثانية بل الثالثة والعاشرة، فلا ينطلق من خلال الإتيان بأوامر الله تعالى بل يرجح غير الله على الله تعالى، ذلك هو الفارق، والدرس الرئيس الذي نتعلمه من الابتلاء.

الثاني: الحب الإلهي هو الدافع الأساسي

إنّ الحق تعالى ابتلى خليله لإظهار أنّ الحب الإلهي هو الدافع الأساس والمحرك الأكبر له عليه السلام، وأنّ الدوافع الأخرى تندك في تلكم الدافعية، أي هي في طول الحب الإلهي وليست في رتبته وعرضه، إنّ أكثر الناس يتحركون من أهوائهم ويرجحون المنطلقات التي في ذواتهم على أوامر الله تعالى، فإذا ابتلي الإنسان بابتلاءات كثيرة في نفسه، وولده، وأمواله بإخراج حقوق الله تعالى، عندئذ يظهر معدنه، فهل يقدم أمر الله تعالى على الهوى النفسي أم يطيع هواه؟ فيدور في شرنقة النوازع الذاتية بحيث لا يكون الحب الإلهي مسيطراً على وجوده، إنّ هذا الدرس من أعظم الدروس التي نتعلمها في المدرسة الإبراهيمية للحج، فلم يؤثر إبراهيم عليه السلام حبه لابنه على حب الله تعالى، ولم يرجح التعلق بالابن على أمر الله تعالى بل امتثل أمر الله تعالى ومارس ذلك فعلاً دون تردد، لكن الله تعالى بحكمته منع الآلة من أن تؤثر.

التقاطع بين الحب الإلهي والأهواء

إذا سار المكلف في الصراط المستقيم وأتى بكل ما يريده الله تعالى، قد تتحقق له بعض الأماني، ويصل إلى بعض المقاصد لكنّ ذلك ليس من خلال الأهواء والمطامع الذاتية لنفسه، بل بقضاء وتقدير إلهي، أي أنّ الله تعالى يهيئ له الأسباب من حيث لم يخطر على باله، فتأتيه الأمور طواعية وتتحقق له المقاصد لارتباطه العميق بالله تعالى، أي أنّ حب الله تعالى قد يتقاطع مع الوصول إلى المقاصد إذا اقتضت حكمته تعالى ذلك.

الابتلاء سلم الارتقاء

الله تعالى يبتلي العبد وفي الابتلاء أسرار عميقة توصل السائر إلى الطريق الإلهي والتكامل الذاتي والنفسي وتتحقق له المقاصد، وقد جمع الإمام الرضا عليه السلام كل هذه

المطالب التي أومأنا إليها شارحين بعض حيثياتها بقوله عليه السلام: «إنما سميت منى منى لأن جبرئيل عليه السلام قال: هناك يا إبراهيم تمن على ربك ما شئت، فتمنى إبراهيم في نفسه أن يجعل الله مكان ابنه إسماعيل كبشاً يأمره بذبحه فداء له، فاعطي مناه»[1] أي أنه عليه السلام همه أن يمتثل أمر الله تعالى، وذلك هو المقدم عنده غير أنّ له عليه السلام أمنية ومقصد، رغم أنه لم يتردد طرفة عين في ذبح ابنه، ونتعلم من ذلك أن لا نتردد في امتثالنا لأوامر الله تعالى واجتنابنا لنواهيه، وجعل الحب الإلهي يسيطر على كل وجودنا، على جوارحنا وجوانحنا فنتذوق طعم حبه لنصل إلى قربه تعالى.

الجمعة ١١ - ١١ - ١٤٣٣هـ

(١) بحار الأنوار ج ١٢ ص ١٠٨.

البعد التهذيبي في الحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (البقرة:١٩٧) صدق الله العلي العظيم.

طرق تهذيب النفس

بينا أنّ من أهم الأبعاد لفريضة الحج البعد المعرفي لله تعالى وقد جاء هذا البعد في آي القرآن الكريم والروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة من أهل البيت عليهم السلام بحيثيات مختلفة، إنّ معرفة الله تعالى تحصل بطرق مختلفة.

أولاً: السيطرة على الغرائز الجنسية

من الطرق المؤدية للمعرفة جهاد النفس فهو بعد يوصل إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ (العنكبوت:٦٩) وهذا بعد بين واضح في الحج فالقرآن الكريم والروايات أبانا ما يلزم الحاج من جهاد لنفسه ليصل إلى مرتبة السيطرة على جوارحه، والآية الآنفة بينت هذه الحيثية ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾ فالحاج يجب أن يسيطر على الغريزة الجنسية ليتم حجه، ونفي الرفث إبانة من القرآن الكريم لسيطرة الحاج على غريزته الجنسية، ذلك أنّ الكثير من الانحراف يعود إلى هذه الغريزة فقوة تأثيرها تميل الإنسان عن الحق إلى الباطل.

ثانياً: السيطرة على اللسان

قال تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ إنّ من النواحي المهمة في شخصية الإنسان إثبات الأنا لشخصه خصوصاً إذا كان يمتلك مهارة في الكلام ويريد التغلب على من يحاجه بإظهار التفوق لشخصيته، والحج مران لشخصيته فلا يماري ولا يجادل في هذه الفريضة ﴿وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ ولا يريد الغلبة على خصمه بالأقسام المغلظة – لا والله، وبلى والله – كما جاء في الروايات، بل يسير على ضوء المقاييس والمعايير الطبيعية، يبين الحق دون جدال باعتدال.

ثالثاً: الشعور بالرقابة

قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨) إنّ إحساس الحاج بمسؤوليته أمام الله تعالى وعلمه بإحاطته بما يصدر عنه، ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ يحضه على فعل الخير والوصول إلى الدرجة العالية من الكمال الإلهي ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ولا يتاح ذلك إلاّ لصاحب العقل ومن يعلم بعواقب الأمور وتقلبات الحياة الدنيا فلا يركن إليها بل يلتجأ إلى الله تعالى معتمداً عليه ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ هذا بعد تهذيبي للحج تطهر به النفس، وتسير في مسار الطائفين القائمين مسار الخليل عليه السلام ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ (الحج:٢٦).

إنّ جهاد الحاج لنفسه جاء في الروايات بتعبيرات متعددة ففي خطبة الغدير، بين صلى الله عليه وآله وسلم ليُعلم من يأتي من بعده ما ينبغي للحاج أن يستفيده من هذه الفريضة العظيمة بمعرفة عمقها:

أولاً: إدراك مضمون الحج

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «معاشر الناس، حجوا البيت بكمال الدين والتفقه، ولا

تنصرفوا عن المشاهد إلاّ بتوبة وإقلاع»[1] فمن أراد الحج لا ينبغي أن يكون همه أداء الفريضة دون الوعي لمضمونها الكبير وما تشتمل عليه من معاني، والنبي ﷺ نبّه بأنّ هذا الأمر يحتاج إلى إمعان نظر في معاني فريضة الحج العظيمة.

ثانياً: الوعي بما افترضه الله

قوله ﷺ: «معاشر الناس، حجوا البيت بكمال الدين» إشارة منه ﷺ إلى أنّ بعض الناس يؤمن ببعض الدين ويكفر ببعضه الآخر، أو يقصر في أدائه لما افترضه الله تعالى عليه، وحينئذ إذا أراد أن يتلافى ذلك فيحتاج إلى جهدٍ كبير ومشقة ليكون في غاية من الكمال ويحرز أعلى درجات التمسك بما افترضه الله تعالى عليه، والتفقه الذي ورد في الرواية يراد به الوعي الدقيق لفرائض الدين، وليس العلم بالأحكام الشرعية فحسب، بل يشمل الفهم للحيثيات العقدية التي ينبغي للمسلم أن يعتقد بها، ويشمل أيضاً الوعي للحيثيات الأخلاقية التي تمثل صراطاً مستقيماً في تعامله مع أخيه الإنسان ومع الله تعالى، ومع المجتمع والكون.

ثالثاً: التوبة في مواطن الحج

ثم قال ﷺ: «ولا تنصرفوا عن المشاهد إلاّ بتوبة وإقلاع» أي أنه في أثناء أداء النسك وبعد الانتهاء منه ينبغي للحاج أن يجدد التوبة إذْ لعله قصّر في بعض الأمور فمنعه ذلك عن الوصول إلى المقام الشامخ والكبير.

إنّ الحصول على ما يبتغيه الحاج لن يكون إلاّ بتوبة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾(الشورى:٢٥) خصوصاً في عرفة لأنّ الله تعالى أمر خليله إبراهيم عليه السلام بالتوبة والمعرفة فتاب الله تعالى عليه.

---

(١) مستدرك الوسائل ج٨ ص ٤٥.

الحج المبرور

أبان النبي ﷺ في حديث آخر معنى الحج المبرور الذي ليس له جزاء إلاّ الجنة، وذلك بأنْ يصل الإنسان إلى نزاهة وطهر في ذاته، فعندما سُئل ﷺ عن بر الحج، قال ﷺ: «إطعام الطعام وطيب الكلام»[١] وهذان أمران مهمان:

الأول: البذل والعطاء

إنّ اتصاف الحاج بالكرم والتخلص من رذيلة الشح فلاح له ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(التغابن:١٦) إنّ أعمال الخير خصوصاً إعطاء المال على حبه تعالى، والإسهام في سد الجوع لأنّ الإنسان إذا جاع سُلبت منه إنسانيته، والنبي ﷺ أكّد على الكرم بنحو عام واحترام شخصية الإنسان بإعطائه ما يحتاج من طعام، وبين أنّ ذلك مصداق للحج المبرور.

الثاني: طيب الكلام

ثم قال ﷺ: «وطيب الكلام» فمن أراد حجاً مبروراً لابد أن يعي ما ينطق به من كلمات، لأنّ الكلمات السيئة سهام للشيطان، تؤثر على الناس وتضر بمن صدرت منه قال تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾(فاطر:١٠) إنّ طيب الكلام يزكي الإنسان ويجعله ممتثلاً لقوله تعالى ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾(البقرة:٨٣) ويتاح به طهارة النفس وتهذيب السلوك، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أحرمت فعليك بتقوى الله وذكر الله»[٢] أي

---

(١) مستدرك الحاكم ج١ ص ٤٨٣.

(٢) وسائل الشيعة ج ١٢ ص ٤٦٤: قال أبو عبد الله عليه السلام: إذا أحرمت فعليك بتقوى الله وذكر الله وقلة الكلام إلا بخير، فإن تمام الحج والعمرة أن يحفظ المرء لسانه إلا من خير كما قال الله عز وجل فإن الله يقول: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾.

لا يصدر منك الحرام، وذكر الله تعالى كثيراً، إنّ بعض الناس يحرم ويلبي إلاّ أنه لا يُرى عليه آثار الإحرام، من خشوع، وذكر لله تعالى، وسكينة ووقار، والإمام عليه السلام يذكر بأهمية الإقلال من الكلام في الأمور المباحة «وقلة الكلام إلاّ بخير» ثم قال عليه السلام: «فإنّ من تمام الحج والعمرة أن يحفظ المرء لسانه إلا من خير» مستشهداً بقوله تعالى ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ فالرفث هو الجماع، والفسوق الكذب، والسباب والجدال قول الرجل، (لا والله، وبلى والله) ليتغلب على خصمه بامتهانه القَسَم بالله تعالى المستلزم التصغير لعظمة الله تعالى، مما يتنافى مع الحج المقترن باستشعار عظمته تعالى.

الجمعة ١٥-١١-١٤٢٩هـ

أثر الحج في تزكية النفس وطهارتها

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾(الحج:٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

أهمية البعد المعرفي في روايات أهل البيت عليهم السلام

تبين فيما تقدم أنّ من أهم الأبعاد لهذه الفريضة العظيمة البعد المعرفي لله تعالى، ويرتبط بمجالات متعددة أحدها جهاد النفس، والتزكية والتطهير للقلب، ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ (البقرة:١٩٧) وقد عُنيت الروايات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل البيت عليهم السلام بهذا البعد منذ بدء الحج إلى الانتهاء منه، وبينت ما ينبغي أن يكون عليه الحاج منذ أن ينوي الحج فيجرد قلبه لله تعالى، ويخليه من الشوائب إلى أن ينتهي منه بالدخول في أمن الله تعالى وكلاءته.

طهارة المال الذي يحج به

إنّ طهارة الوسيلة المؤدية إلى الحج - الزاد والنفقة- فقد يتاح أن يحج المرء بمال غير طاهر أو فيه شبهة فلا يصل إلى الهدف من الحج قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من حج بمال حرام فقال لبيك اللهم لبيك، قال الله له: لا لبيك ولا سعديك، حجك مردود

عليك»[١] والنبي ﷺ يؤكد على طهارة الوسيلة التي يترتب عليها الحج، وطهارة المال الذي يحج به وقد جاء في بعض الروايات: لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه[٢] فإنفاق المال الحرام في طريق مشروع لا يقرب إلى الله تعالى والنبي ﷺ يؤكد أنّ المال إذا لم يحصل من طريق مشروع حتى إذا أُنفق في سبيل الله تعالى فلن يكون مقرباً إليه تعالى بل يرد على ذلك الإنسان الذي اكتسبه من الحرام.

إخلاص الحج لله تعالى

جاء في الروايات ضرورة إخلاص الحج لله تعالى، وأن يكون الحج له وحده لا شريك له ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾(البينة:٥) العبادة إذا كانت لله تعالى، كان لها الأثر الكبير الذي يعود على النفس بالطمأنينة وعلى القلب بالانشراح ويجعل الإنسان يسير في المسار الإلهي، قال الإمام الصادق عليه السلام: «الحج حجان: حج لله، وحج للناس، فمن حج لله كان ثوابه على الله الجنة، ومن حج للناس كان ثوابه على الناس يوم القيامة»[٣] والإمام الصادق عليه السلام يبين مطلباً هاماً، هو أنه لا يُكتفى بطهارة المال ولا بإنفاقه في طريق مشروع، بل لابد أن تكون النية للقيام بهذا العمل العبادي خالصة لوجهه الكريم: قال الإمام الصادق عليه السلام: «يقول الله عز وجل: أنا خير شريك، فمن عمل لي ولغيري، فهو لمن عمله غيري»[٤] فالذي يعمل لله تعالى يحصل على ما يبتغيه وينال ما أراده،

---

(١) ميزان الحكمة ج١ ص ٥٣٨.

(٢) أمالي الطوسي ص ٥٩٣: عن رسول الله ﷺ: لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن جسده فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، عن ماله مما اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبنا أهل البيت.

(٣) وسائل الشيعة ج١١ ص ١٠٩.

(٤) وفي وسائل الشيعة ج ١ ص ٧٢.

وقول الإمام الصادق عليه السلام: «حجان: حج لله وحج للناس» بيان للحج الذي يوصل إلى الله تعالى؟ ويحصل به الثواب والجنة وهو الحج لله تعالى، أما الحج للناس فثوابه على الناس يوم القيامة، ويقال للحاج للناس خُذ ثوابك ممن حججت له.

حقيقة رموز معاني الحج

إذا التفت الحاج إلى هذه المطالب التي أوضحناها - البعد التزكوي - والإخلاص في العبادة لله تعالى وكسب المال من طريقٍ مشروع، يتاح له حينئذ أن يصل إلى معاني الحج، والرموز التي يشتمل عليها ويفهم المحتوى والمضمون لهذه الفريضة الإلهية العظيمة، وقد أوضح الإمام الصادق عليه السلام بعض تلك الرموز والمعاني التي تشتمل عليها المناسك.

التغلب على الشهوات والرغبات

قال عليه السلام في بيان ما يرمز إليه رمي الجمار: «وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمرات» إنها التزكية، الإقبال والوصول إلى الله تعالى، والحصول على الكمال الذي يريده الحق سبحانه، نعم؛ فكل مفردة من النسك لها معنىً ظاهر ولها معنىً عميق هو محتوى ومضمون، فالذي يرمي الجمار يتخلص من رذائل الأخلاق كي لا تؤثر عليه الشهوة، ويسير في الصراط المستقيم «وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمي الجمار»[1].

(١) ميزان الحكمة ج١ ص ٥٣٨ عن الإمام الصادق عليه السلام: إذا أردت الحج فجرد قلبك لله تعالى من كل شاغل، وحجاب كل حاجب، وفوض أمورك كلها إلى خالقك، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك، وسلم لقضائه وحكمه وقدره، ودع الدنيا والراحة والخلق، وأخرج من حقوق تلزمك من جهة المخلوقين، ولا تعتمد على زادك وراحلتك وأصحابك وقوتك وشبابك ومالك، مخافة أن يصيروا لك عدوا ووبالا، فإن من ادعى رضا الله واعتمد على شئ صيره عليه عدوا ووبالا، ليعلم أنه ليس له قوة ولا

حلق جميع العيوب

أما حلق الرأس فهو رمز للخلاص من العيوب قال الإمام عليه السلام: «واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق رأسك» فالوصول إلى الطهارة يترتب عليه المعرفة للحق تعالى، إذا التفت الحاج إلى هذين الرمزين وسائر رموز الحج حصل على معرفة الله تعالى.

الدخول في أمان الله تعالى

أما الدخول في الحرم فله معنى جميل أبانه الإمام عليه السلام فقال: «وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم» فالدخول في أمان الله والاستمساك بعروته الوثقى والتجلل بستره على كل وجود الحاج، يحقق العفو

حيلة ولا لأحد إلا بعصمة الله وتوفيقه. واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع، وأحسن الصحبة، وراع أوقات فرائض الله وسنن نبيه صلى الله عليه وآله، وما يجب عليك من الأدب والاحتمال والصبر والشكر والشفقة والسخاء وإيثار الزاد على دوام الأوقات. ثم اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع. وأحرم من كل شئ يمنعك من ذكر الله ويحجبك عن طاعته. ولب بمعنى إجابة صافية زاكية لله عز وجل في دعوتك له متمسكا بعروته الوثقى. وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت. وهرول هرولة من هواك، وتبريا من جميع حولك وقوتك. فاخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك إلى منى، ولا تتمن ما لا يحل لك ولا تستحقه. واعترف بالخطايا بعرفات، وجدد عهدك عند الله بوحدانيته. وتقرب إلى الله ذا ثقة بمزدلفة. واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك إلى الجبل. واذبح حنجرتي الهوى والطمع عند الذبيحة. وارم الشهوات والخساسة والدناءة والافعال الذميمة عند رمي الجمرات. واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق رأسك. وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخولك الحرم. وزر البيت متحققا لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه. واستلم الحجر رضا بقسمته وخضوعا لعزته. وودع ما سواه بطواف الوداع. وصف روحك وسرك للقاء الله يوم تلقاه بوقوفك على الصفاء. وكن ذا مروة من الله تقيا أوصافك عند المروة. واستقم على شرط حجك هذا ووفاء عهدك الذي عاهدت به مع ربك وأوجبته إلى يوم القيامة.

والرحمة والإبتعاد عما تريده النفس إلى ما يريده الحق.

اكتشاف عظمة الله تعالى عند زيارة بيته

إذا وصل الحاج إلى هذا المقام وحقق هذه المرتبة وصل إلى الله تعالى فكانت زيارته للبيت موصلة للهدف ومحققة للغاية قال الإمام عليه السلام: «وزر البيت متحققاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه» ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾(الحج:٣٢) كل هذه المقدمات للوصل إلى هذه الغاية، «وزر البيت متحققاً لتعظيم صاحبه» فمن يرى عظمة الحق تعالى لا يرى عظمة لسواه، ومن يرى عظمته يستصغر عظمة ما عداه ولا يرى العظمة إلاّ له، وإذا وصل إلى هذا المقام تحقق له معرفة جلاله وسلطانه ودعاه بلسان صدقٍ وقلبٍ خاشع.

معرفة جلال الله تعالى

إن معرفة جلال الله هي التنزيه لله تعالى فلا نقص فيه، وهو غنى مطلق، وجلاله يقترن بالهيبة والسلطنة والجبروت، يحقق للداعي الإجابه وأدعية الحج ترتبط بالوصول إلى هذا المقام المعرفي، وحينئذٍ يرى الحاج جلاله سبحانه فيبتهل إليه داعٍ فيجيبه لأنه دعاه مفتقراً إليه عالماً بأنه الغنى ولم يدعوه بقلب ساهٍ لاهٍ، ولقلقة لسانٍ.

الجمعة ٢٢-١١-١٤٢٩هـ

الحج والأخلاق

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾(البقرة:١٩٧) صدق الله العلي العظيم.

الأهداف الأخلاقية للعبادات

للعبادات في الشريعة الإسلامية جنبة أخلاقية، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾(العنكبوت:٤٥) والصوم يورث التقوى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾(البقرة:١٨٣) أي أنّ الهدف من تشريعه هو إيصال الصائم إلى تقوى الله تعالى، أما الحج فقد بُيِّن فيه المبادئ والركائز التي تقوم عليها الأخلاق، وقبل أن نستعرض ذلك نشير إلى الثمرة المترتبة على الجانب الأخلاقي.

الثمرة المترتبة على الجانب الأخلاقي

إنّ الإشكاليات التي يعيشها الإنسان مع أخيه الإنسان أو مع الله تعالى أو مع مفردات الكون الأخرى، السبب الرئيس لها هو انعدام الجانب الأخلاقي له، ذلك أنّ الأخلاق ليست هي تسخير قوى الإنسان لجلب الآخرين إليه لتحقيق مصالحه،

لأنّ ذلك ليس من الأخلاق الأصيلة في المنظور القرآني، إنّ الأخلاق الأصيلة تقوم على مبادئ طرحها القرآن الكريم تؤدي بالإنسان والإنسانية جمعاء إلى خيري الدنيا والآخرة، والآية التي استعرضناها مع آيات أخرى في القرآن الكريم بينت أهمية الحج أخلاقياً وأفصحت عن مبادئ الأخلاق المرتكزة على قيم، والتي إذا توافرت للإنسان استطاع أن يعصم نفسه من الزلل وأن يرتقي إلى آفاق عالية في سلم التكامل الإنساني، ولننظر إلى مفردات الآية لنتعرف على ذلك.

التقوى ربح دائم

قال تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ وبعد ذلك قال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ المبدأ الأول: هو السيطرة على الغرائز، والثاني أنّ على الإنسان أن يربح بنحو مستمر ودائم ولا يتحقق إلاّ بتقوى الله تعالى، وأنّ كل ما عدا ذلك فهو زائل لا ربح فيه، أما المبدأ الثالث فهو علم الله تعالى بأفعال الإنسان، قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ وقد بُيّن في هذا المقطع أنّ الإنسان فطر على حب الخير، غير أنّ عليه أن يعلم أنّ أفضل الخير الذي ينبغي أن يتزود به هو تقوى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ورغم أنّ الإنسان جُبل على حب المال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾ (العاديات:٨) ويظن أنّ الكمال به فحسب، إلاّ أنّ ذلك لنسيانه بأنّ أعظم الكمال لا يتحقق إلاّ بتقوى الله تعالى وأنّ عليه أن يسخر قواه وطاقاته لكسبه بما يعود بالنفع عليه في عالمي الدنيا والآخرة، وأن يربط ذلك بتقوى الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

العقل يدعو لترك المرجوح

أما المبدأ الرابع، فيرجع إلى عقل الإنسان، فهو داعٍ له إلى ترجيح الراجح وترك

المرجوح، يحضه على أخذ ما هو الأفضل واغتنام ما هو الأحسن، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ التقوى هي الزاد الأوفر، يحض العقل عليها، فهو يدعو إلى ترجيح الراجح وليس هناك أرجح من كسب الخير الدائم الذي لا نفاد له ولا زوال.

مكاسب رضا الله تعالى

إنّ الإنسان إذا كسب رضا الله تعالى حاز على خيري الدنيا والآخرة، الحياة الطيبة في الدنيا بسيره على الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾(النحل:٩٧) وهو وعد منه تعالى، أما خير الآخرة فباكتساب جنات الله تعالى، وهو ما يسعى إليه العاقل، قال الإمام الصادق عليه السلام في تبيان العقل السليم: «العقل ما عُبد به الرحمن واكتسب به الجنان»[1] أي أنّ عقل الإنسان يوجهه إلى عبادة الله وكسب رضاه تعالى الأخروي الذي ليس بعده سخط ولا تعب، بل حياة حقيقية، قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾(العنكبوت:٦٤) فالحياة التي لا شائبة فيها من الكدر في الآخرة، ويحصل ذلك بتقوى الله تعالى، غير أنّ غرائز الإنسان يصعب السيطرة عليها، وإذا استطاع وسيطر عليها تقدم خطوة إلى الأمام، وعندئذ سوف يتحكم في خواطره وأفكاره، وهي خطوة أعظم يستطيع بها أن يسخر عقله وجميع قواه وقدراته في سبيل الله تعالى.

العلاقة بين الحج والصوم

إنّ الحج كالصوم لذا كان الارتباط وثيقاً بينهما في مدرسة أهل البيت عليهم السلام يظهر من خلال الأدعية التي ربطت بين الحج والصوم، ولا نريد الربط في الدعاء فحسب، بل الربط التكاملي الذي أشارت إليه الأحاديث، قال الإمام الصادق عليه السلام: «من لم

(١) الكافي ج١ ص ١١.

يغفر له في شهر رمضان لم يغفر له إلى قابل إلاّ أن يشهد عرفة»[1] ويرجع ذلك إلى ربط تربية الإنسان لنفسه بجعل العقل يأخذ زمام المبادرة ويسيطر على الغرائز ليرتقي إلى السيطرة على الجوانح، وذلك منهج القرآن التربوي في إيصال الإنسان إلى الكمال، إذْ لا يستطيع أن يصل إلى القمة دفعة، نعم؛ قلة من الناس يمكنهم ذلك غير أنّ الأكثرية لا يستطيعون أن يصلوا إلى مرامهم إلاّ بنحو تدريجي، يتحقق عبر التربية الذاتية بسيطرة المرء على جوارحه أولاً لفترة زمنية محدودة ومن ثم يرجع إلى وضعه الطبيعي، فيتذوق بعض ما حققه من إنجاز، ويدعوه ذلك إلى التوق لمراتب العلو، فإذا سيطر على غرائزه في شهر رمضان والحج، فبإمكانه أن يسيطر عليها بقية أيام السنة، وتلك قاعدة أفادها الفلاسفة، تقول: «إنّ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد» أي أنّ من تمكن من السيطرة على غرائزه بعض الوقت سيتمكن من ذلك كل الوقت، وسوف يرتقي في وصوله إلى الله تعالى.

السيطرة على الغرائز

إنّ الله تعالى أكّد على السيطرة على بعض الغرائز في الحج، ومن أهمها الغريزة الجنسية، إذْ أنّ السيطرة عليها من الصعوبة بمكان، إذْ لا يراد بالسيطرة عليها أن لا يمارس الإنسان الزنا فحسب، بل أن لا ينظر إلى الحرام، وهذا هو المنظور في الحج، فالحاج لا يستمتع بالحلال جنسياً فضلاً عن الحرام، وتلك قمة السيطرة على الغريزة الجنسية، فلا رفث.

كبح جماح النفس عن كل محرم

ثم «ولا فسوق» والفسوق يشمل كل نوع من الحرام، وإنْ حمله الفقهاء على الكذب غير أنّ للآية شمول لكل حرام، ولا شك أنّ الكذب من كبائر الذنوب، وهو

(١) مستدرك الوسائل ج ١٠ ص ٣٠٦.

أم لكثير منها، كما جاء في الروايات، غير أنّ الحاج لا يقترف حراماً ولا يرتكب محظوراً لمنافاة ذلك مع قربه من الله تعالى، وسيره في طريقه تعالى، وقد أشير إلى هذا المعنى في بعض الروايات «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»[1] وهو معنى دقيق على الحاج أن يلتفت إليه، أما إفراد الغريزة الجنسية وحدها فذلك لأهمية السيطرة عليها، إذْ أنّ السيطرة على غيرها أسهل بكثير، والحاج عليه أن يكبح زمام الغرائز بنحو عام وأن لا يتيح لنفسه اقتراف أي حرام.

نكران الذات

إنّ الله تعالى فطر الإنسان على حب الكمال، غير أنه يخطأ في تشخيص ذلك، ويظن أنّ من الكمال التعالي على الغير، وإبراز الذات بل يصل إلى قهر الغير بمصادرة حقوقه، والمشاكل التي تعيشها البشرية منذ آدم إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها ترجع إلى هذه المسألة، ويشار إليها في الروايات بالكبرياء والعجب، ومن أبرز مصاديقهما إبراز الذات بالتعالي على الغير، وهو من المحظورات من الناحية الأخلاقية والتكاملية غير أنّه أُكِّد عليه في الحج بنحو يرجع إلى نكران الذات، ومحق الإنية، فلا يسوغ إبراز الشخصية وإظهار الذات بالجدال، وهو فقهياً: القسم بالله -لا والله وبلى والله- من أجل دحض حجة الغير وإظهار أنّ الحق له ومعه، إنّ ذلك وإنْ كان هو الواقع غير أنّ من فعله ثلاث مرات وجبت عليه الكفارة، لأنّ من محظورات الإحرام القسم بالله محقاً فضلاً عما إذا كان مبطلاً، وتلك حكمة توصل الحاج إذا التفت إليها إلى مغزى الحج بفهم أنّ العظمة والكبرياء لله وحده تعالى، وليس لأحد أن يتغطرس وأن يثبت وجوده في قباله تعالى، ومن سار في المسار الإلهي عليه أن يستفيد من نعم الله تعالى دون تعالٍ، الحج تدريب يوصل الحاج إلى الكمال بتوجهه إلى الله تعالى، ونكران ذاته، أما إذا كان المرء في غير الحج جاز له أن يبين أنّ الحق معه، وأن يقسم مائة مرة دون إشكال،

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ١٤١.

لكنه في الحج يتعلم أن لا يقسم بالله تعالى محقاً تعظيماً منه له تعالى، وقد تهيأت أرضية ذلك باستيلاء عظمة الحق على وجوده، وعندئذ لن يخرق قانوناً إلهياً، ولن يظلم نفسه، بل يسير في الصراط المستقيم بانسياب.

إننا عندما ننظر إلى الطغاة والجبابرة الذين أُسقطوا من عروشهم، نرى أنّ السبب الرئيس في سقوطهم هو التعالي والكبرياء بلا حدود، يتصرفون في الإنسان كشيء لا قيمة له في قبالهم، لا يراعون قانوناً، فضلاً عن وجود وازع ذاتي يردعهم عما يفعلون، إنّ العبادات خصوصاً الحج تشكل أقوى رادع، ومن فقه معانيها التي أشرنا إليها لن يحتاج إلى قانون في الابتعاد عن الظلم، إذْ يكفي الرادع الذاتي ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾(العلق:١٤) إنّ القانون فيه ثغرات، أما العلم بإحاطة الله تعالى واستحضار ذلك فلا يدع العالم العامل أن يقترف محذوراً لاعتقاده أنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء، وأنّه وإنِ استطاع أن يتخفى عن غيره تعالى إلاّ أنّه لن يتمكن من ذلك لأنّ الله تعالى يعلم السر وأخفى، لذا فإنّ المبادئ التي ذكرت في الآية ترتبط بالجانب الأخلاقي، وهو جانب تكاملي يصعد به الإنسان، ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ بل تواضع لله تعالى.

المصالح الاجتماعية للحج

ويترتب على هذا الجانب فوائد جمة من أهمها أنّ من وعاه استطاع أن يغض الطرف عن حقه للمصالح الاجتماعية، فهناك مصالح اجتماعية تحتاج أن يغض المرء الطرف وإنْ كان محقاً، وعندئذ يفتح الله تعالى له أبواب الخير، ومن هذا القبيل صلح النبي ﷺ مع قريش الذي فسره بعض الصحابة بأنه إعطاء الدنية في الدين، لكنه تواضع من رسول الله ﷺ يتيح به الفرصة للطرف المقابل أن يتعرف على قيم ومبادئ الإسلام وحقانيته ليتبعه، وهذا درس باقٍ في التعامل مع الناس، فإذا غضّ المحق الطرف عن حقه متغافلاً مع وعيه بأنّ الحق له ومعه، وتنازل للصالح العام فقد أدرك ثمرة قوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ ويستفاد من الآية في تربية الأسرة

وحل الاختلافات الاجتماعية بتنازل البعض عن مصلحته الشخصية رغم كون الحق له في سبيل مصالح اجتماعية كبرى، ولا يتاح ذلك إلاّ بهذه التربية الأخلاقية -نكران الذات- بأن لا يرى المرء وجوداً لنفسه في قبال الله تعالى، فيتنازل عن حقه في سبيل الله تعالى.

المصالح الاقتصادية

قد يتوهم بعض الناس أنّ ذلك مثالية أخلاقية، غير مناسبة مع الواقع الاجتماعي، بل تجعل المرء صوفياً منعزلاً عن واقعه، إلاّ أنّه تصور غير سديد بل أنّ ذلك إيثار لمصلحة المجتمع وتغليباً لها على المصلحة الفردية، والمرء رغم كونه وسط المجتمع إلاّ أنه رحمة له، ويظهر ذلك من آي القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(البقرة:١٩٨) فرغم كون الحاج يحلق في أوج المعارف الإلهية غير أنّ بإمكانه أن يمارس التجارة، وأن يتعامل مع الآخرين بانسيابية تامة ليس عليه جناح أن يبتغي فضلاً من ربه، وذلك تأكيد على الجانب الاجتماعي، وأنّ على المرء في وسط الناس التقدم في كل مجال لكنّ عليه أن ينتبه إلى وجود الله تعالى ومحوريته وأنها الأساس الذي تُبنى عليه العلاقات، قال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ﴾(البقرة:١٩٨) إنّ الذكر حال تأدية المناسك هداية وتوفيق من الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ ﴾(البقرة:١٩٨) وذلك تألق لم يكن لولا فضل الله ورحمته، فهو بتوفيق منه تعالى، وعلى الإنسان أن يكون مع الناس بهذا النحو -معهم بالله تعالى- قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾(البقرة:٢٠٠) الناس صنفان أحدهما يوجه كل قواه ويسخر كل قدراته في المجال المادي الذي لا ربط له بالله تعالى، وينسى الله تعالى، والآخر يتعامل مع الدنيا ويبتغي المزيد من فضل الله تعالى غير أنه يربط جميع ما لديه

بالله تعالى، قال تعالى: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾﴾(البقرة:٢٠٠-٢٠١) أي أنّ على المرء أن يحقق تقدماً في عالم المادة في الدنيا إلاّ أنّ عليه أن يربط ما يحصل عليه بالله تعالى، قال تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾(البقرة:٢٠١-٢٠٢).

هذا الجانب الأخلاقي يوصل الحاج إلى التألق في الدنيا والآخرة لأنه ربط أعماله بالله تعالى.

الجمعة ٢٣/ ١١/ ١٤٣٢هـ

الحج ومبادئ الأخلاق

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ (البقرة:١٩٧) صدق الله العلي العظيم.

دور الأخلاق في تقدم الأمم

الحج من أهم العبادات في الإسلام، وقد بيّن القرآن الكريم بأنّ له منافع كثيرة غير أنّ من أهم المنافع المترتبة عليه إرساء القيم وترسيخ مبادئ الأخلاق، ذلك بأنّ الأمم بأخلاقها، فإن هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا.

ولعل السر في تقدم اليابان هو الأخلاق كما يظهر مما كتبه ول ديورانت في قصة الحضارة، وغيره من المؤرخين والكتاب، وقد ظهر ذلك في أحداث زلزال وتسونامي توهوكو باليابان بتاريخ ١١ مارس ٢٠١١م، إذْ اتضح أنّ هذه الأمة تعنى عناية فائقة بالأخلاق خصوصاً الأخلاق الاجتماعية.

محاور الأخلاق

أرست الديانات السماوية دعائم الأخلاق في العبادات والمعاملات، وقد ركّز الدين الإسلامي على الأخلاق في كل عبادة، وظهر ذلك في الحج، قال تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾(البقرة:١٩٧)، وفي الآية محاور ثلاثة:

الأول: السيطرة على الغرائز

إنّ من أعظم الغرائز الغريزة الجنسية، حتى قال بعض علماء النفس أنها المحرك الأكبر لتوجهات الإنسان، فهذه الغريزة تؤثر على مناحي الإنسان وسلوكه واتجاهاته المتعددة والمختلفة، والهدف من التشريعات بنحو عام هو إيصال المكلف إلى تقوى الله تعالى والالتزام بالقانون غير أننا نلحظ تفريعات تؤكد على بعض الجوانب، منها ما جاء في هذه الآية المباركة ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ الرفث في اللغة هو الجنس، وقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ نفي لمن تلبس بالحج أو العمرة أن يمارس أي ممارسة جنسية بالحلال فضلاً عن الحرام، فلا يسوغ للمحرم أي نحو من أنحاء الجنس لا بالضم ولا بالتقبيل ولا باللمس ولا بالنظر، إنّ مقاربة الجنس بالحرام تشريع موجود سواءً تلبس المرء بالإحرام أو لم يتلبس به، غير أنّ التعبير بقوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ لبيان حرمة الجنس الحلال، أي أنّ الحلال يتحول إلى حرام في الحج، فلا يجوز للمحرم أن يمارس الجنس الحلال، والغاية من هذا التشريع جد هامة وكبيرة تتضح من خلال فهم مبدأ علمي أكّده العلماء هو: «أنّ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد» وهذه قاعدة علمية توضح بأنّ المرء إذا استطاع أن يفعل شيئاً في فترة زمنية فهو قادر على فعله في الفترات الأخرى، وعندئذٍ فمعنى قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ بأنّ من يستطيع أن يتجنب الجنس الحلال سيستطيع أن يتجنب الجنس الحرام من باب أولى، ومن استطاع أن يتجنب ما أباحه الله تعالى يستطيع أن يتجنب ما حرمه، وإذا استطاع الحاج أن يتجنب الجنس الحلال في فترة الحج، لأنه يدع تروك الإحرام ممارسة وتطبيقاً عملياً فلم يمارس الجنس الحلال كفرض واجب فإنّ النتيجة هي قدرته على ذلك في غير الحج، أي أنه يستطيع أن يسيطر على الغريزة الجنسية وهي أعظم دافع ومحرك للإنسان، ويستطيع أن يسيطر على بقية غرائزه كبطنه وسمعه وجوارحه وجوانحه بنحو عام، لأنّ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد، ولهذا المحور أهمية فائقة وكبيرة تترتب عليها.

الثاني: ولا فسوق

حمل العلماء الفسوق على الكذب، ولا شك بأنّ الكذب من أقبح الذنوب، وقد جاء في بعض الروايات بأنّ الخبائث جعلت في وعاء وجعل مفتاحه الكذب والشراب، إنّ قوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ لنفي أي نوع من أنواع الفسوق، أي لا تتلبس أيها الحاج بأي ذنب من الذنوب، فكل ذنب يتعين على المحرم أن يدعه تاركاً له، ومعنى ذلك أنّ عليه أن يسير على ضوء القانون، فيتعين عليه الانضباط القانوني، وهنا نعطي ملمحاً عاماً يجسد الغاية من الآية المباركة، يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ أنّ على المحرم أن ينضبط في تطبيق القانون وأن يسير على ضوء الأحكام الفقهية وذلك هو التقى، أما اقتراف الحرام فهو الفسوق، قال العلماء: إنّ العدالة هي الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، ولا فسوق يساوق العدالة وأنّ على المحرم أن يراعي الضوابط الشرعية.

إنّ الحياة مملوءة بالتعب والعناء قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾(البلد:٤) أي مشقة وعناء لابد أن يتحملها الإنسان لكونه يعيش فترة امتحان، وإذا لم يتحمل ذلك أنزل نفسه من رتبته التي هي التكليف الإلهي والتي يراد بها تشريفه وإيصاله إلى مقام الكمال، إذِ التكليف الإلهي معناه الكرامة، قال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾(الإسراء:٧٠) والتكليف هو الأمانة التي أبت الجبال أن يحملنها وأشفقن منها، وعلى الحاج أن يلتفت إلى هذا المعنى الدقيق في قوله تعالى: ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾.

إنّ السير على وفق القانون مشقة كبيرة للإنسان، وقلة من الناس يستطيعون أن ينجحوا في الانضباط قانونياً، وإذا استطاع الإنسان أن ينضبط قانوناً فترة الحج استطاع ذلك في غيره، فـ(لا فسوق) إعطاء معلم وإبانة بأنّ الإنسان يستطيع الانضباط لفترة ومن ثم يستطيع أن ينضبط بنحو كلي.

الثالث: ولا جدال

وهو أهم المحاور في معناه العمقي وليس في معناه الظاهري، سوف نشرح معناه الظاهري ثم نبين معناه العمقي.

الظاهر هو أنّ «لا جدال في الحج» يراد به القسم بالله تعالى لإثبات حق أو لنفي باطل، فالمجادل هو الذي يريد أن يثبت حقاً أو ينفي باطلاً بنحو عام، غير أنّ ذلك حرام على الحاج أي لا يجوز له أن يقسم بالله تعالى، فيقول: «لا والله، وتالله، وبلى والله» بل عليه أن يعظم المبدأ المتعال، أي يعظم الحق تعالى، هذا هو معنى ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ من الناحية الفقهية، لكننا نريد أن نعي معناه في مضمونه العمقي، إنّ فيه دلالة كبيرة على إثبات الذات والأنا في قبال الله تعالى ذلك أنّ الإنسان بطبيعته يرى نفسه إذا منحه الله تعالى علماً أو مالاً أو موهبة أو جاهاً بأنه أعظم وأفضل من غيره، فيتمحور حول نفسه، والحق تعالى يريد للمكلف أن ينصهر في بوتقة العبودية لله تعالى، فلا يرى إلاّ الله تعالى، وبمعنى آخر لا يتمحور حول الأنا، ولا يرى ذاته في قبال الله تعالى، بل يرى الله تعالى، وهذا المعنى في غاية الدقة، ومن يرى الله تعالى بهذا المعنى لديه استعداد أن يتنازل عن حقوقه بل عن وجوده وعن جميع ما يملك لله تعالى، وإذا وعينا هذا المعنى بأن لا نقسم بالله تعالى محقين، تعظيماً لله تعالى، إذْ ليس هناك شيء من الأموال أو غيرها في قبال الله تعالى، والتعظيم هنا للحق تعالى، فمن أقسم بالله تعالى ثلاث مرات فعليه كفارة، لأنّ على المكلف أن يقدس الحق تعالى، وأن يكون لديه استعداد بأن يتنازل عن حقه بأزاء تعظيم قدسية الحق تعالى، وذلك معنى من معطيات الآية.

إنّ من انمحت إنيته لا يقول أنا في قبال الله، وإنما قوله قال الله تعالى، وهذا المعنى هو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾(الأنعام:٩١) (قل الله) أي لا ترى إلاّ الله تعالى وهو المعنى الدقيق للتوحيد، ولكلمة «لا إله إلاّ الله» بأن يمحور المرء نفسه حول الله تعالى، فلا يرى لوجوده وجوداً في قباله تعالى وإنما يرى

الوجود والعظمة والقدسية والكبرياء لله تعالى، وعندما يعي الحاج هذا المعنى يصبح حجه مبروراً، ومن حج ولم يرفث ولم يفسق فقد وعى ذلك، قال النبي ﷺ: «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»[1] وقال ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة» ذلك هو معنى الحج.

أمهات الفضائل الأخلاقية

الانضباط هو المعنى الدقيق للحج، ومن حج على حسب الموازين وفهم كيف يستوعب المعاني القيمية الثلاثة؟ فقد وعى أمهات الفضائل الأخلاقية؛

أما المحور الأول: وهو الجنس، فإنّ مشاكل الإنسان والحضارة، بل أنّ الانحطاط والسقوط لبعض الحضارات سببه الإشكاليات في عالم الجنس وفي عالم الغرائز والشهوات بنحو عام.

أما المحور الثاني: وهو الفسوق، فإنّ مشاكل الأمم في الانضباط قانوناً، والتقيد القانوني لافتة كبيرة في عالم الأخلاق.

أما المحور الثالث: فهو حقيقة العرفان النظري والعملي، وإذا جسد الإنسان مبادئ الأخلاق، وسار على وفق القانون ارتقى معنوياً ووصل إلى المعنى الدقيق للمعرفة، وهو العرفان النظري والعملي، فيرى الله تعالى حاضراً ناظراً، والحج حقيقته قيم، ومن حج وفقه هذه المعاني كان حجه مبروراً.

نسأل الله تعالى أن يجعل حجنا مبروراً، وصلى الله وسلم وزاد وبارك على سيدنا ونبينا محمد وآله أجمعين الطيبين الطاهرين.

الجمعة ٤- ١١- ١٤٣٣هـ

(١) مستدرك الوسائل ج ٨ ص ٤١.

مكتسبات الحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

خصصت الشريعة الإسلامية أياماً مباركة، تُعبر عن الفرح والسرور، كعيدي الفطر والأضحى، ويأتي هذان العيدان بعد مرور الإنسان بدورة يستطيع من خلالها أن يحصل على مكتسبات عظيمة ومؤثرة، فعيد الفطر جُعل للمسلمين عيداً، كما نقرأ ذلك في دعاء صلاة عيدَيْ الفطر والأضحى[1]، إذ أنّ المسلمين أدوا صيامَ شهرٍ عظيم، عاد عليهم بمكتسبات كبيرة وعظيمة في نواحٍ متعددة، نفسية واجتماعية واقتصادية وثقافية وفكرية، وهكذا الأمر في عيد الأضحى، فقد جعله الله عيداً للمسلمين بعْد أنِ اجتازت الأمة الإسلامية - بثلة من أفرادها الذين أدوا فريضة الحج العظيمة - دورةً مؤثرةً ليس على المسلمين فقط، وإنما على الإنسانية جمعاء، وهذا العيد يمثل عودة للإنسان إلى طبيعته وفطرته بعد إنجازه الحج، الذي حقق له مكتسبات متعددة أهمها:

(١) في وسائل الشيعة ٧ج ص ٤٦٨ : عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «تقول بين كل تكبيرتين في صلاة العيدين: اللهم أهل الكبرياء، والعظمة، وأهل الجود والجبروت، وأهل العفو والرحمة، وأهل التقوى والمغفرة، أسألك في هذا اليوم الذي جعلته للمسلمين عيداً، ولمحمد صلى الله عليه وآله ذخراً ومزيداً، أن تصلي على محمد وآل محمد كأفضل ما صليت على عبد من عبادك، وصل على ملائكتك ورسلك، واغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، اللهم إني أسئلك خير ما سألك عبادك المرسلون، وأعوذ بك من شر ما عاذ بك منه عبادك المرسلون».

الأول: الصبر

الحج يربي في الإنسان الصبر الذي يحتاجه لأداء هذه الفريضة العظيمة، فكل من ذهب إلى الحج رأى كيف أنّ الصبر العامل المؤثر والكبير في اجتياز الإنسان لهذه العبادة بنجاح، ولولا الصبر لم يستطع الإنسان أن يطوف في الزحام الكبير، ولولاه لم يستطع أن يسعى، فإنّ حركة المسعى قد تتوقف مما يؤدي بالإنسان أن ينتظر وقتاً طويلاً، يتجاوز الساعتين كي يتمكن من الإتيان بالسعي وحده. إذن الصبر عامل مؤثر في تدريب الإنسان وصقل معنوياته بشكل عملي في أداءه لمناسك الحج، ومن خلاله يصل إلى المكتسب الثاني.

الثاني: الثقة في النفس

يولِّد الصبر ثقة الإنسان بنفسه، فهو لا يستطيع أن يقوم بأي عملٍ من الأعمال الكبيرة ما لم يثق بنفسه، فالثقة بالنفس عامل فائق الأهمية يكتسبه الإنسان من الحج، باعتبار أنّ الإنسان اقترف ذنوباً وموبقات وخطايا، تهز أركان الثقة بالنفس، وجاء يوم عرفة كي يُرجع للإنسان ثقته بنفسه من خلال تساقط تلك الخطايا التي ارتكبها، ويصبح كيوم ولدته أمه أو يقال له: استأنف العمل من جديد، أو يغُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيضمن الجنة أو يُحفظ في ماله وولده ويبارك له في رزقه، فهذه مكتسبات عظيمة، وقد جاء في أحاديث أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم عندما يُسألون ما هو أعظم الذنوب للإنسان الذي يقف في عرفة؟ يجيبون بأنّ ظنَّ الإنسان بأنّ الله تبارك وتعالى لن يغفر ذنوبه، هو أعظم ذنب يرتكبه الواقف في عرفة[1]، فهنيئاً لمن وُفِّق

(١) وسائل الشيعة ١١ج ص ٩٦: عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سأله رجل في المسجد الحرام: من أعظم الناس وزراً؟ فقال: «من يقف بهذين الموقفين: عرفة والمزدلفة، وسعى بين هذين الجبلين، ثم طاف بهذا البيت، وصلى خلف مقام إبراهيم عليه السلام، ثم قال في نفسه وظن أن الله لم يغفر له، فهو من أعظم الناس وزراً».

للوقوف في عرفة ودعا الله تعالى فإنّ دعاء الإنسان في يوم عرفة مستجاب وغير مردود، وهذا ما يعود على الإنسان بثقة وطمأنينة بنفسه. وذكر الله له تأثير كبير إلا أنّ الذكر في هذه الأيام العظيمة له من التأثير ما لا يعلم به إلاّ الله وحده، وإذا رجع الإنسان مغفوراً ذنبه، ليس عليه خطايا، خرج عن ربقة الذنوب وأغلال الخطايا فتمُثل نفسه الحرية والاستقلال وتزداد الثقة بالنفس، فيعمل أي عمل من خلال ثقته في نفسه، مما يعود عليه بالنجاح، وهذا مكسب عظيم ومؤثر.

الثالث: الانفتاح على الآخرين

والمكتسب الثالث وهو من المكتسبات العظيمة والمؤثرة، الاختلاط الكبير الذي يمثل اختلاطاً فعلياً وعملياً بالناس ومباشر في الحياة اليومية؛ فالنوم والأكل معهم والتحدث إليهم، والأخذ والعطاء صباح مساء، ليل نهار، مما يعرفنا على أخلاقهم ويعرفهم على أخلاقنا، وهذا سوف يؤثر في ازدياد الإخوان والأصدقاء، وهو الذي ورد في الروايات أنه من النعم الإلهية، اكتساب الأخ في الله[1] ولا يكون إلّا من خلال المعاشرة والمخالطة العملية ولا تتاح بشكل كبير إلاّ في أيام الحج.

الرابع: العلم

من المكتسبات العظيمة والمؤثرة في أيام الحج العلم الحاصل بالاستماع إلى الدروس الفقهية والثقافية التي تعود على الحاج بالأثر الكبير، فلا يتاح للكثير من الناس التفقه في

(١) مستدرك البحار ١ ج ص ٧١: قال الإمام الباقر عليه السلام: «من استفاد أخاً في الله على إيمان بالله ووفاء باخائه طلباً مرضاة الله، فقد استفاد شعاعاً من نور الله، وأماناً من عذاب الله، وحجّة يفلج بها يوم القيامة وعزّاً باقياً، وذكراً نامياً، لأنّ المؤمن من الله عزّ وجلّ لا موصول ولا مفصول. قيل له: ما معنى لا موصول ولا مفصول؟ قال: لا موصول به أنّه هو ولا مفصول منه أنّه من غيره. وقال: إنّ المؤمن أخو المؤمن لا يشتمه ولا يحرمه ولا يسيء به الظن».

الدين بتعلم مسائل الطهارة، الصلاة والحج وأحكام الحيض والاستحاضة والنفاس وما إلى ذلك من الأحكام الشرعية – إلا في موسم الحج، فإنه تتسنى له الفرصة للتعرف على كثير من الأحكام الفقهية التي يجهلها، ثم يقوم بتطبيقها عملياً بعد معرفتها، وكم من الرجال الذين لا يعرفون الوضوء بشكل صحيح ولا الصلاة استفادوا كثيراً من الحج، كما أنّ الكثير من النساء اللاتي لا يعرفن أحكام الحيض والاستحاضة والنفاس وما إلى ذلك من الأحكام استطاعوا التعرف عليها، ومن ثم رجعوا من الحج وقد حصلوا على زادٍ فقهي كبير أثّر في مسار حياتهم، وهذا مكتسب جميل يعود على الإنسان في كل حياته.

الخامس: تربية روح التسامح

من المكتسبات العظيمة والمؤثرة في الحج تربية روح التسامح، فهناك من الناس من ينزعج بأقل إثارة بسيطة، وينطلق من عامل رد الفعل، لكنه من خلال التدريب العملي في الحج سوف يتسامح بشكل كبير، إنّ الإنسان الذي لم يُربِ نفسه على روح التسامح والمودة تراه في الحج حتى إذا ساء إليه الآخرون في حال طوافه حول البيت، يتسامح ويعفو، ولو كان في غير الحج لردّ رداً عنيفاً لكنه في الحج يكرر بعض الألفاظ حُجّ أو اذكر الله وما أشبه ذلك من الألفاظ، ثم يتجاوز عمّا حصل له، ويدلل هذا على روح التسامح الكبيرة التي يتمتع بها الحاج، فإذا حصل الإنسان على هذه المكتسبات العظيمة والمؤثرة يستحق أن يخرج بعد هذه الدورة بعيدٍ لأنه عاد إلى فطرته وإنسانيته وقيم السماء ومُثُل الرسل والأنبياء.

عام ١٤٢١هـ

الحج عبادة ووحدة

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾(آل عمران:١٠٤) صدق الله العلي العظيم.

عناصر مشتركة لوحدة الأمة

استعرض القرآن الكريم في عدة من آياته مطلباً هاماً رتبه على شيء واحد هو عنوان الأمة، وهو من العناوين الواضحة، الأمة تتشكل من أفراد، والأفراد لهم ثقافات مختلفة، ورؤى متعددة، واتجاهات شتى غير أنّ عنوان الأمة يجمعهم وهو قاسم مشترك بينهم، وفي الآية أمور توحدهم:

أولاً: الدعوة إلى الخير.

ثانياً: الأمر بالمعروف ـ المعروف هو المتعارف الذي لا قبح فيه، بل فيه حسن.

ثالثاً: النهي عن المنكر.

وإذا اتفقت الأمة على القواسم المشتركة الثلاثة (الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) تحقق لها الفوز والفلاح، أي أنّ فوزها يرتبط بتوافر هذه الأمور.

عناصر ضعف الأمة

بيّن القرآن الكريم من جهة أخرى في طائفة من الآيات أنّ ضعف الأمة يكمن في الاختلاف والتناحر والبغضاء وتفرقة الكلمة، وأنّ واحداً من هذه العوامل كفيل بأن يفت في عضدها، قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡ﴾(الأنفال:٤٦)، أي أنّ النزاع يؤدي إلى الفشل والوهن.

منطلقات الرقي للأمة

ركّز القرآن الكريم على منطلقات من شأنها الرقي بالأمة أهمها أمران :

الأول: الدعوة إلى الوحدة

إذا تحققت الوحدة فهي كفيلة بجعل الأمة سائرة نحو التطور، أما إذا اختلفت وتناحرت وحدث نزاع بين فئاتها، فالنتيجة هي الوهن والفشل، ولم يكتف القرآن الكريم بهذا فحسب بل جعل وحدة الأمة ممارسة في العبادة كالصلاة جماعة، ورتب على ذلك ثواباً تعجز عن إدراكه العقول، جاء في الروايات الواردة في ثواب صلاة الجماعة أن العدد إذا كان أكثر من عشرة لا تستطيع الملائكة أن تحصي ثواب صلاة الجماعة، رغم أنها وجودات مجردة، غير أنها عاجزة عن إحصاء الثواب، ترجعه إلى الله تعالى، وذلك منطلق عملي للتوحيد.

الثاني: عبادة الحج

الحج وما أدراك ما الحج، هو مؤتمر عام، يجمع كل المسلمين ليوحدهم فهو أعظم تأثيراً من صلاة الجماعة، لكونه يجمع قوميات مختلفة، وشعوباً متعددة، وأفكاراً شتى، تُبعد بعض المسلمين عن بعضهم الآخر.

مظاهر تلاحم الأمة في الحج

اقتضت حكمة الله تعالى جعل الحج واجباً ليصهر تلكم الاختلافات المتعددة والرؤى والاتجاهات المختلفة في بوتقة واحدة، بأعمال موحدة يقوم بها المسلمون من شتى بقاع الأرض فهم وإنْ اختلفوا في قومياتهم وأعراقهم وألسنتهم غير أنهم أبناء لآدم عليه السلام، قال صلى الله عليه وآله وسلم: «كلكم لآدم وآدم من تراب»[1]، وليس هناك عرق يتفوق على عرق آخر، لذا جعلهم الله تعالى على صعيد واحد ليذكرهم بأنّ اختلافهم في الدنيا يرجع إلى ميزات غير طبيعية، أما الطبيعية فهي تدعوهم إلى الانسجام والتلاحم والوحدة والتعاضد ليتكاتف بعضهم مع بعضهم الآخر، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾(الحجرات:١٣)، الهدف أن يتعرف بعضهم على بعضهم ليتعامل وإياه، ولينسجم معه ويتطور من خلاله، إذْ أنّ كل فريق يختلف عن الآخر إذا تعاون وإياه ارتقيا.

معيار التفاضل بين أفراد الأمة

الميزة التي تجعل بعضهم أفضل من بعضهم الآخر هي التقوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾(الحجرات:١٣)، والتفاضل بالقرب من الله تعالى، والبعد عن الذنوب، ليس الأقرب إلى الله تعالى هو صاحب العرق الآخر، لأنّ الاعتبارات الأخرى لا شأن لها في القرب منه تعالى، نعم؛ جعل الإسلام ميزتين يتحقق بهما التفاضل:

الأولى: ترك المحرمات والقرب منه تعالى.

الثانية: العلم

إذا تحققت هاتان الميزتان للأمة أصبحت أمة رائدة ذلك أنّ تقوى الله تعالى والعلم

---

(١) بحار الأنوار ج ٧٣ ص ٣٥٠.

يدعوان إلى التعاون بين أفرادها وفئاتها، فتصبح أقوى أمة على وجه الأرض.

قدرات الأمة الإسلامية

إن الله تعالى هيأ للأمة الإسلامية قدرات فائقة لتكون أمة شاهدة، على أمم الأرض، تدعو إلى السلام والوئام، انطلاقاً من وحدتها الداخلية لتقتدي بها الأمم وتسير في مسارها، غير أنّ أعداء الإسلام لا يروقهم ذلك ولا يعجبهم الاتحاد بين المسلمين، ويرون أنّ كل اقتراب بين المسلمين يُشكل خطراً عليهم، ويؤدي إلى ضعفهم، وتفوق واقتدار الأمة الإسلامية، من هنا نرى أنه ومنذ زمن رسول الله ﷺ كانت الدسائس والمؤامرات تحاك ضد هذه الأمة، والنبي ﷺ يضع الدواء الناجع لدرء الأخطار والفتن، فعندما قدم إلى المدينة أول خطوة قام بها هي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، والمصالحة بين الأوس والخزرج بعد تلك الحروب الطاحنة، إنه ﷺ ألغى الكثير من الفوارق التي تدعو إلى التشرذم وابتعاد المسلم عن أخيه المسلم، وعندما قام بعض اليهود بإثارة النعرات بين الأوس والخزرج وذكّرهم بما كانوا عليه من حروب طاحنة دارت بين القبيلتين، قال النبي ﷺ: دعوها إنها منتنة[1]، أي أنّ استعراض ما حدث في الماضي يعود بهم إلى ما كانوا عليه من تباغض وحرب، ويؤدي إلى الفتنة والتشرذم وذهاب المنجزات التي حققها الإسلام، وقد نجح ﷺ في ذلك إلاّ أنه بعد وفاته ﷺ جاء حكام يرون أنّ مصالحهم لا تنسجم مع رؤى الإسلام، وهمهم هو تحقيق مصالحهم دون اهتمام بوحدة المسلمين، أي أن الهم الأكبر لهم المصالح الشخصية، أما مصالح الأمة فهي في آخر المطاف ونهاية الاهتمام، لذا كانت مصلحة أعداء الإسلام وبعض حكام المسلمين تقتضي إثارة الشحناء والبغضاء وتفريق المسلمين على أساس العِرق أو الطائفة والمذهب، وكان هؤلاء لا يدخرون وسعاً في إذكاء الفتنة ناسين قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(البقرة:١٩١).

(١) المصدر: الإمامة تلك الحقيقة القرآنية ص ١١٠.

مأساة الأمة الإسلامية

وقد حدثت في الماضي أحداث يندى لها الجبين، ويشيب لها الرضيع، حيث استعرت الحرب في بغداد بين أصحاب المذاهب السنية، فكان بعضهم يقتل بعضهم الآخر، حتى سالت الدماء بينهم، وذلك لا يصب في مصلحة الإسلام، غير أنّ مصلحة أولئك اقتضت إثارة الفتنة ليقطفوا ثماراً دون أن يحس بهم المسلمون، وكان أصحاب الفتنة يدبرون الأمور في غير مصلحة الإسلام، بل في غير مصلحة المذاهب، ومن أخطر دهاء أعداء الإسلام في عصرنا الراهن الضرب على هذا الوتر الحساس- الاختلاف بين مذاهب المسلمين- نعم؛ هناك اختلاف بين مذاهب الأمة الإسلامية، واجتهادات لكل مذهب وأتباع يقدسون مذهبهم ويأخذون بآرائه، ولا ضير في ذلك لأنّ الشريعة الإسلامية ترى أن التعدد والاختلاف إثراء للفكر، وقد كان ذلك في زمن الأئمة عليهم السلام حيث إنّ بعض من تتلمذ على يد الإمام الصادق عليه السلام كأبي حنيفة صاحب المذهب المعروف، رغم اختلافه مع الإمام عليه السلام، غير أن الإمام عليه السلام ما كان يدعو إلى الاحتراب معه بل إلى الاحترام لأنّ محاسبة الخلق عند الله تعالى.

تعاضد الأمة الإسلامية

إن من المهم أن يتحد المسلمون في جوانب لها تأثيرها الكبير، كالجانب الاقتصادي والثقافي، وأنْ يتعاضد المسلمون في كل الشؤون التي ترجع عليهم بالمصلحة، وتلك هي دعوة الإسلام، إذْ أنّ من أعظم انجازات الإسلام بشهادة أعدائه أنه لم يأمر بالوحدة فحسب، بل جسّدها عملياً قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾(آل عمران:١٠٣)، ولم يكتفِ بذلك بل جعل الوحدة تتحقق في مظاهر أعظمها الحج، فالمسلمون يحجون إلى بيت الله الحرام بشتى انتماءاتهم واختلاف أعراقهم ولغاتهم وثقافاتهم، وكل واحد منهم يذهب إلى البيت العتيق ليطوف حوله، ويؤدي المناسك كغيره من المسلمين سواسية كأسنان المشط دون فارق، والهدف صهر

الاختلافات بل إزالتها كي لا يكون لأعداء الأمة القدرة على التأثير، إنّ الأعداء لديهم قدرات شيطانية يؤثرون بها على بعض الأمة، غير أنّ الإسلام جعل الحج لإزالة ذلك التأثير، كما أنّ بعض ضيقي الأفق من المسلمين قد يستخدم سلاح التكفير، ويرى أنّ تلك الفئة كافرة، وتلك مشركة، والحال أنّ الجميع يحج إلى البيت ويطوف به، فهل يعقل أن يطوف الكافر بالبيت الحرام؟! إنّ أول شيء نستطيع القضاء به على ضيق الأفق لدى بعض المسلمين المتزمتين أصحاب فتاوى التكفير هو الحج، والتأكيد على المفاهيم العامة لوحدة المسلمين، ككلمة التوحيد (لا إله إلاّ الله) والشهادتين والتوجه إلى القبلة والإيمان بالرسالة، قال تعالى مبيناً بعض المفاهيم العامة: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾(البقرة:٢٨٥)، أما المسائل الجزئية فهي وإنْ اختلف فيها فمصيرها إلى الزوال، والفوارق التي يؤمن بها فريق ولا يؤمن بها الفريق الآخر لا تؤثر على صعيد التلاقي بين المسلم وأخيه المسلم، وذلك أعظم ما يضير الأعداء ويضرهم، لذا كانت الدسائس الأولى من لدن اليهود، ولا زال الناس على ما هم عليه إلى يومهم هذا، هناك دول لا تريد مصلحة المسلمين، تثير النعرات بينهم ليحارب بعضُهم بعضَهم الآخر، وعلينا كأمة إسلامية واحدة أن لا نعير اهتماماً لما يثيره الأعداء.

منهج أهل البيت للحفاظ على الأمة

إنّ منهج أهل البيت عليهم السلام قائم على عدم تصديق ما يقوله الأعداء، وأنّ على المسلم أن لا يلتفت كي لا يؤثر ما قيل على العقل الجمعي الذي قد يتشكل بثقافة مغلوطة، غير أنّ الزمان كفيل بتصحيحها، خصوصاً مع غض الطرف عما يقال وعدم إعارة الاهتمام له، فإنّ ذلك كفيل بجعل الناس تسير في الاتجاه الذي يريده الله تعالى، إنّ على المسلمين أن لا يلتفتوا إلى الترهات، فإذا سمع المسلم كلاماً جارحاً من أتباع المذاهب

الأخرى، عليه أن لا يرتب أثراً عليه، وعلى الطرف المقابل إذا سمع من بعض من ينتمي إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام ما لا يعجبه أن لا يصدق بل يحمله على الاشتباه، إذ قد يكون القائل غُرّر به، فلا يدري ما يقول، إنّ أتباع أهل البيت عليهم السلام ليسوا كلهم علماء، بل فيهم جهال لا يفهمون مذهب أهل البيت عليهم السلام، وقد وجه الإمام الصادق عليه السلام المؤمنين بقوله: «وكونوا زيناً لنا ولا تكونوا شيناً علينا»[1]، لذا فإنّ المذهب ينبغي أن لا يؤخذ إلاّ من الأئمة عليهم السلام بفهم العلماء الرساليين الذين يمثلون المذهب بحق، وعلينا أن لا نصدق ما يقال، ذلك أنّ المسلم سنياً كان أو شيعياً عليه أن يتريث قبل أن يحكم.

الحج مؤتمر الأمة الإسلامية

الحج مؤتمر يدعو إلى التلاحم والتعارف والتواد بين المسلمين، وهو كفيل بإزالة مخططات الأعداء مهما بلغت، ولعل ما ورد في القرآن الكريم من ذكر منافع الحج، يشير إلى ذلك، إن أهم المنافع للحج المحافظة على وحدة المسلمين مهما تباعدت الآراء، ومهما خطط الأعداء لضرب المذاهب ببعضها أو الفئات بأفرادها، الحج كفيل بإزالة كل تلكم الرواسب وجميع مخططات الأعداء.

الجمعة:١٦/ ١١/ ١٤٣٢هـ

(١) وسائل الشيعة ج١ ص ٧٦.

الحج منار الوحدة الإسلامية

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾(الحج:٢٧-٢٨)، صدق الله العلي العظيم.

الحج عبادة عظيمة افترضها الله تعالى على المكلفين المستطيعين، وبيّن تعالى ما يترتب عليها من منافع متعددة وكثيرة، والآية تبين المنافع بشكل عام، وليس من ناحية خاصة ترجع إلى ذات الشخص المؤدي لهذه العبادة، فهذه العبادة تأخذ مضموناً أكثر شمولية يتحقق بذكر الله تعالى وشكره، قال إمامنا الصادق عليه السلام: «إنما فرضت الصلاة وأُمر بالحج لإقامة ذكر الله»[1]، وإذا لم يكن في قلب المصلي والحاج هيبة ولا عظمة لله تعالى فما قيمة ذكره؟ أي أنّ فائدة الحج ترجع إلى إعطاء طابع لذكر الله تعالى يؤدي للخشية واستشعار العظمة، أما إذا كان الذكر مجرد ألفاظ لا يدركها الذاكر ولا يعي معناها ولا يستشعر عظمة الباري تعالى فلن تحصل الفائدة الحقيقية لهذا الذكر، ولابد للعبادة أن تنعكس بآثارها على العابد.

دور الحج في توحيد المسلمين:

فوائد الحج متعددة وكثيرة، وأبعاده لا حصر لها، وسنستعرض البعد التوحيدي للأمة.

---

(١) عوالي اللئالي ١ج ص ٣٢٤.

الحكمة من الاختلاف بين الخلق :

الحديث عن البعد التوحيدي للأمة يستدعي إيضاح حكمة وجود الاختلاف بين البشر، إنّ الله تعالى خلق الخلق متفاوتين في ألوانهم وأشكالهم وعقولهم وأجسامهم ومناطقهم وقدراتهم ومواهبهم وما إلى ذلك من أمور، وجعل الاختلاف والتفاوت بين خلقه آية دالة على عظمته، ولم يُرد تعالى بالتفاوت أن يصبح عاملاً للتنافر والابتعاد بل أراد به إيصال المخلوق إلى إدراك عظمته، وإدراك الهدف والغاية من الخلق ليتحقق للعبد الغنى والتكامل بفهمه أنّ التفاوت بين الخلق عامل إثراء وإغناء للخلق، لأنّ الخلق يحتاج بعضه إلى بعضه الآخر ولا يستغني أفراده عن بعضهم، وإذا تنافروا مبتعدين أصبح الاختلاف طابعاً للخلاف، مفرقاً لهم دون توحيد، عندئذ سوف يسبب عوائق وعقبات تحول دون الوصول إلى الكمال المنشود في مسار الحياة.

الاستثمار الحقيقي للاختلاف

الله تعالى هو الغني المطلق ويريد لخلقه أن يستغنوا بغناه، بالسير على وفق نظام عبوديته، وإذا اختار الإنسان لنفسه مِنهاجاً آخر فلن يصل إلى إدراك عظمة الله، ولن يستشعر الهيبة منه، وسيؤدي ذلك إلى الافتقار والتنافر والتضاد. إن الله تعالى أبان في القرآن الكريم بأنّ الطهارة والتزكية طريقان يوصلان العابد الطائف حول البيت إلى إدراك المعاني الكبيرة للاختلاف، وجعلها تصب في صالحه، من خلال تهيئة عوامل الاختلاف لتؤدي إلى التوحيد، وجعل عوامل التضاد مؤدية إلى الوحدة، وحينئذ سيؤدي الاختلاف إلى الإغناء والإقناء، أي: إلى الغنى والجمال.

النبي إبراهيم مؤسس الفكر التوحيدي

إنّ القرآن الكريم وصف الدور المناط بالنبي إبراهيم عليه السلام تجاه البيت الحرام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ

﴿بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾(الحج:٢٦)، أي: أن الله تعالى أمر الخليل عليه السلام أن يُطهر البيت، لكل طائف حوله؛ أو راكع؛ أو قائم. وهذه سمة يشترك فيها حتى غير المسلمين، لأنّ الله تعالى أمره فقال: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾(الحج: ٢٧)، والنداء دعوة للإنسانية جمعاء لنبذ الفرقة والاختلاف، واحتواء عوامل التفرقة وتحويلها إلى عوامل توحيد.

دور الإنسان في رسم مسار الوحدة

إنّ التوحيد الذي دعا إليه القرآن الكريم الإنسانية جمعاء والمسلمين بالخصوص يتقدم على الوحدة، أي أن القران الكريم رسم مسار التوحيد الذي يوصل إلى الوحدة، ولا يراد بالتوحيد هنا، التوحيد العقدي، بأن يتفق الجميع في كل الخصوصيات فهذا قد لا يتحصل، لذا أبان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بدء رسالته الإطار العام للتوحيد بقوله: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»[1] فمن تشهد الشهادتين حُقن ماله وحفظ عرضه ودمه، فالمراد بالتوحيد هو التوحيد العام بالدخول في لا إله إلا الله محمد صلى الله عليه وآله وسلم عبد الله ورسوله، ولا يطلب الإسلام أكثر من ذلك من المسلمين للدخول تحت عنوان الطائفين والقائمين والركع السجود، الذي جاء في الآية، و هذا الإطار العام يُهيئ الأرضية لكل مسلم بأن يدخل في البرنامج العام، الذي بدأه بشكله التفصيلي الخليل عليه السلام .

معنى التطهير

إنّ إبراهيم عليه السلام عندما أُمر بإقامة البيت أراد الله تعالى منه أن يُطهره، كما أكدت

(١) ميزان الحكمة ٤ ص ٣٢٢٨ : عن طارق المحاربي: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بسوق ذي المجاز، فمر وعليه جبة له حمراء وهو ينادي بأعلى صوته: «يا أيها الناس ! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا» ورجل يتبعه بالحجارة وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه وهو يقول: يا أيها الناس! لا تطيعوه فإنه كذاب. قلت: من هذا ؟ قالوا: غلام من بني عبد المطلب، قلت: فمن هذا يتبعه يرميه ؟ قالوا: هذا عمه عبد العزى – وهو أبو لهب –

على ذلك الآية السابقة، والتطهير له معنيان؛ **الأول**: الطهارة من القذارة المادية، **والثاني**: الطهارة من القذارة المعنوية، وهو أنسب وأقرب لأجواء الآية. لأن الإنسان إذا أسود قلبه تجاه أخيه الإنسان، وحمل عليه الحقد والضغينة، وانطلق من خلال الأُطر الضيقة، فهو بأمس الحاجة إلى التطهير، لأنه تبنى سلوكاً يخالف التوحيد الإبراهيمي والنبي صلى الله عليه وآله وسلم لا يريد للمسلم؛ ولا لغيره أن يكون كذلك بل يريد له أن ينطلق من المعنى الكبير الواسع للتوحيد، ليتاح له أن يصهر اختلافاته مع أخيه الإنسان لبرامج عمل توحيدي، يعود على نفسه و على الآخرين بالنفع والخير العميمين، وهذا الترابط جاء في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾(الحج:٣٤) ومعنى ذلك أنّ اختلافات الأمم يمكن أن تنصهر فيما يوحدها ويحقق الخير والرفاه لها جميعاً، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾(الحج:٣٤-٣٥) ثم بين في آيات أخرى أنّ الهدف من المنافع هو الوصول إلى الله تعالى، واستشعار عظمته، كما جاء في رواية إمامنا الصادق عليه السلام[1].

دور الحج في صهر عوامل الاختلاف

الاختلاف سنة، جعلها الله تعالى للوصول إلى الإغناء -عدم الفقر- والإقناء -الجمال- لكن المهم هو استثمار الأسلوب الأمثل لعوامل الاختلاف وتحويلها إلى عوامل اتفاق، كي تصل الإنسانية جمعاء إلى الخير والرفاه بوصولها إلى الله، فهو الغاية والهدف للجميع، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾(الشورى:٥٣) إذا على الإنسانية جمعاء ألا تجعل الاختلاف يؤدي إلى التشرذم بل إلى الوحدة، وعلى المسلمين بالخصوص أن يلتفتوا إلى وحدتهم بإحترم كل طائفة للطائفة الأخرى والانطلاق من

(١) في عوالي اللئالي ١ج ص ٣٢٤: «إنما فرضت الصلاة وأُمر بالحج لإقامة ذكر الله».

هذه الآيات التي تتحدث عن هذه الفريضة لتوحد المسلمين في إطارها، فالحج برنامج عملي يشترك فيه كل مسلم مهما اختلف في عباداته؛ أوفي معاملاته؛ و أسلوب تفكيره.

إنه مؤتمر سنوي يصهر الاختلافات في محورٍ توحيديٍ عام يؤدي إلى الوحدة، وهي من أعظم المنافع قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَـٰتٍ﴾(الحج:٢٨) فأيام محددة توصل الإنسانية جمعاء والمسلمين بالخصوص إلى إدراك معنى الذكر المؤدي إلى التوحيد والوحدة.

الجمعة ١٤/ ١١ /١٤٢٦هـ

فريضة الحج مظهر الوحدة الإسلامية

قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

الحج تلك العبادة المهمة التي تترتب عليها فوائد جمة لا عدّ لها ولا حصر، ذلك أنّ الله تبارك وتعالى يريد للمسلمين أن يتقدموا في جميع المجالات من خلال ارتباطهم به بأداء هذا النسك العظيم، لذا نلحظ القرآن الكريم يبين منافع الحج دون تحديد لها بالمستوى الاقتصادي أو العبادي أو الاجتماعي والمعنوي الروحاني في ربط الإنسان المسلم بمبدئه.

وحدة الأمة من منافع الحج

إنّ قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ يعني أنّ هناك أكثر من منفعة تترتب على هذه العبادة، وسوف نقتصر على منفعة عظيمة تعود على أمتنا الإسلامية جمعاء هي وحدة الأمة، وهي من أهم الركائز التي دعا إليها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(الأنفال:٤٦) وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾(آل عمران:١٠٥) يحض القرآن الكريم الأمة على الاعتصام بحبله الوثيق، ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾(آل عمران:١٠٣) وآياته تصدح آناء

الليل وأطراف النهار مذكرة للمسلم بأهمية الوحدة الإسلامية.

وحدة الأمة في ثوابت الإسلام

من المستحيل أن نوحد الناس على أمور عقدية متفقة باعتبار اختلاف الأفكار والاتجاهات والثقافات والقدرات، فلا يستطيع أحد أن يوحد الأمة في منطلقها العقدي، وإنما يستطيع أن يقرب بينها بشتى انتماءاتها، التقريب ممكن، أما التوحيد فمهمة صعبة المنال بل تقرب من الاستحالة، بيد أنّ هناك توحيداً آخر يراد للأمة الإسلامية أن تحققه لنفسها، هو توحيد الأمة من الناحية الاجتماعية بأن تجعل قدراتها موحدة، تصب في صالح كل فئة من فئاتها وترجع إلى كل طائفة من طوائفها باعتبار اشتراك جميع الفئات والطوائف في كلمة التوحيد، «لا إله إلاّ الله» والانتماء إلى الرسالة الخالدة، «محمدٌ رسولُ الله»، إنّ الانطلاق من مبدأ التوحيد والإيمان بالرسالة الخالدة ركيزتان مهمتان بالإضافة إلى بقية الركائز ذات الأهمية الفائقة، كاتجاه جميع المسلمين نحو الكعبة، ووجود كتاب لم يحرف، حفظه الله تعالى واحتفظت به الأمة الإسلامية بكل فئاتها، مؤمنة بأنه المعجزة الخالدة لرسولنا الكريم، هذه عوامل توحيد، ونؤكد هنا أولاً وبالذات على الانتماء إلى الحق تعالى من خلال كلمة التوحيد والارتباط به عبر رسوله الكريم ﷺ، قال بعض علماءنا: بني الإسلام على دعامتين: كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، يشير بالكلمة الأولى إلى المبدأ العقدي العام الذي يستوعب أفراد جميع الأمة الإسلامية، والثانية يراد بها الواقع الاجتماعي والسلوكي الذي ينبغي للمسلمين جميعاً أن يأخذوا به كبرامج عمل تؤدي بهم إلى الخير وتوصلهم إلى السؤدد والنجاة من أيدي القوى التي تريد لهم الشر، آيات القرآن تأمر المسلمين جميعاً بأن يتحدوا ولا شك بأنّ هذه الأوامر تبقى أولاً في الجانب النظري، لكنه تعالى يريد للإنسان أن يرتقي درجات أعلى ويخطو خطوات أكثر باتجاه مبدأ الوحدة للأمة الإسلامية، ولا يتحقق ذلك إلاّ من خلال برامج عملية وسلوك يؤديه الإنسان المسلم، ونلحظ ذلك في أدائنا

لنسك الحج وقيامنا بشعائره، فالكل يقفون على صعيد واحد، ويؤدون شعائر موحدة، وأعمال يتفق عليها المسلمون جميعاً.

عوامل الاختلاف والافتراق

إنّ هذه الشعائر والمناسك هي برامج عملية تربط المسلم بأخيه المسلم لوجود عوامل متعددة، كل منها يدعوه إلى الافتراق، أهمها:

الأول: اختلاف المسلمين في العرق، الذي يؤثر تأثيراً كبيراً، وهذا ما نجده في الواقع، وقد حدث ذلك لدى أمم متعددة دارت بينها حروب طاحنة، السبب الرئيس في تأجيج تلك الحروب هو الاختلاف العرقي.

الثاني: الاختلاف في اللون واللباس.

الثالث: الاختلاف الجغرافي، كالقارة والبلدة والمنطقة والقرية ونحو ذلك.

الرابع: الاختلاف في اللغة.

الخامس: الاختلاف الفكري والثقافي.

النظرة الإلهية لعوامل الاختلاف

كل هذه الانتماءات - التي تشد بعض الناس إليها، وتؤطرهم بها، فيطوفون حولها- يرفضها الله تعالى، ويريد للمسلمين أن يتركوا تلك الانتماءات المؤطرة بتلك الأطر الضيقة، ويخرجوا من الانتماء الضيق -العرق أو اللون أو اللغة أو الفكر- وينتمون إلى الله تعالى من خلال فريضة الحج، التي تبدأ بالتلبية للحق تعالى، ومعناها الإجابة للمنهاج الذي شرعه والسير على صراطه المستقيم، وبرمجة أهداف نسك الحج في سلوك المسلم بأن يتحد في الانتماء الجماعي إلى هذه الأمة الواحدة التي أبان الله تعالى فضلها، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(آل عمران :١١٠) إنّ هذه الأمة من معالمها الوسطية، ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ

﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾(البقرة:١٤٣) ولا تتحقق وسطية مع الاختلافات المتعددة والكثيرة، فلن يستطيع الإنسان أن يكون وسطاً وهو يرى تلك الاختلافات الكثيرة التي تؤطره، ولعل من أكثر الاختلافات تأثيراً الاختلاف العقدي في الدائرة الواسعة وهي الإسلام أو ما نسميه بدائرة التوحيد إذْ نرى الإنسان العادي والعالم الكبير والمتألق في عرفانه والمثقف والمسلم الذي لا يمتلك إلاّ معلومات جدُّ بسيطة، كل هذه الأنماط تدعو إلى الاختلاف، بيد أنّ الحق تعالى يريد للجميع أن ينصهر في وحدة الجميع وأن يحقق ما يرجع على الجميع بالخير والصلاح والسؤدد.

نظرة أهل البيت عليهم السلام لاختلاف الأمة

إننا نجد في كلمات أئمة أهل البيت عليهم السلام تنبيهات للمسلم بغض النظر عن انتمائه العقدي أو الاجتماعي والسياسي والمعلومات التي لديه من الناحية الفكرية، وقد أبانت الزهراء عليها السلام هذا بقولها: «فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك»[1]، أي أنّ من آمن بالله فقد طهر نفسه من الشرك، ثم قالت عليها السلام: «والحج تشييداً للدين» الإيمان يشكل مبدأ للتفاوت بين المؤمن وأخيه المؤمن، ويدعو الإنسان أن يتأطر بإيمانه من خلال ما لديه من معرفة تختلف في تفاصيلها الدقيقة عن المعرفة التي لدى الإنسان

(١) بحار الأنوار ج ٢٩ ص ٢٢٣: في خطبة الزهراء : «فجعل الله الايمان تطهيرا لكم من الشرك، والصلاة تنزيها لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس، ونماء في الرزق، والصيام تثبيتا للاخلاص، والحج تشييدا للدين، والعدل تنسيقا للقلوب، وطاعتنا نظاما للملة، وإمامتنا أمانا من الفرقة، والجهاد عزا للاسلام، والصبر معونة على استيجاب الاجر، والامر بالمعروف مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منماة للعدد، والقصاص حقنا للدماء، والوفاء بالنذر تعريضا للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييرا للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيها عن الرجس، واجتناب القذف حجابا عن اللعنة، وترك السرقة إيجابا للعفة، وحرم الله الشرك إخلاصا له بالربوبية، فـ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فإنه ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾».

الآخر، الصديقة الزهراء عليها السلام توضح بأنّ الحج يتكفل بإشادة الدين الذي يقع الاختلاف في تفاصيله الدقيقة، قالت عليها السلام: «والحج تشييداً للدين» الدين هو الانتماء من الناحية العقدية، أما الذي يختلف فيه العالم عن غيره والمثقف مع غيره والمفكر مع الغير لكنّ الجامع المشترك بين الجميع -الذي يشاد به الدين- أداء نسك الحج، من هنا كان الحج جهاداً في سبيل الله لكل إنسان لا يستطيع أن يجاهد في سبيله تعالى، عليه أن يجاهد بأدائه للحج، إذْ به يتاح إظهار المسلمين قوة موحدة أمام أعين الأمم الأخرى، ومهما أراد أعداء الأمة لها من تشرذم لن يتمكنوا من ذلك بعد وجود هذا المؤتمر الكبير -الحج- لأنه يستطيع أن يصهر كل أنماط الاختلاف بين المسلم وأخيه المسلم، ويجعل المسلم يبتغي الثواب من عند ربه في أداء النصح وتقديم المشورة والنصرة لأخيه المسلم، وهذا معنى الإشادة للدين في كلام الصديقة الزهراء عليها السلام، وهو أيضاً معنى الجهاد الذي يشير إليه قول أمير المؤمنين عليه السلام: «الحج جهاد كل ضعيف»[1] من هنا ندرك معنى قول الإمام الصادق عليه السلام: «ولو فعلوا -تعطيل الحج- كان ينبغي للإمام أن يجبرهم على الحج، إن شاؤوا وإن أبوا، فإن هذا البيت إنما وضع للحج»[2] أي أنه كفيل بتوحيد الطاقات الاجتماعية التي لا تتحقق بسواه من الشعائر.

الجمعة: ١٧/ ١١/ ١٤٢٧هـ

(١) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١٢.
(٢) وسائل الشيعة ج ١١ ص ١١٩.

الأمن في الحج

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(آل عمران:٩٧). صدق الله العلي العظيم.

الأمن في الشريعة

يتضمن التشريع الإلهي مبادئ متعددة، وفي القرآن الكريم إشارات ولطائف إلى تلكم المبادئ، الحج من العبادات ذات المضامين المتعددة كل نسك من مناسكه فيه إيماءات ولطائف تشرح المبادئ التي يريد الحق تعالى أن يفصح عنها.

مبدأ الأمن

الأمن مبدأ جدُّ هام، بل هو من أعظم المبادئ التي يحتاجها الإنسان، إذْ به يتمكن أن يعيش الدعة والاستقرار ويتمكن أن يطور قدراته وأن يرفع مستواه، فهو أساس كل تقدم يطمح الإنسان إليه، وإذا افتقد الأمن لم يستطع الإنسان أن يتقدم على أي صعيد من الأصعدة، لذا عني الإسلام بالأمن في التشريعات المتعددة، فلا تجد تشريعاً من تشريعاته إلاّ ويحتوي على إيماءة أو إشارة إلى الأمن من قريب أو من بعيد، إنّ بعض الإيماءات بمقربة جدُّ قريبة وبعضها تشير إلى الأمن من مكان بعيد، الحج من أعظم التشريعات الإلهية لاحتوائه على إيماءات متعددة للأمن، منها الآية التي استهللنا الحديث بها، فهي تشير إلى الأمن وأهميته.

الأمن في السلام

السلام تشريع مستحب، ومعناه الدعاء بالسلامة من الأذى، فمن يسلم على شخص فهو يدعو له بالسلامة من الأذى، لذا كان السلام من المستحبات المؤكدة في الشريعة الإسلامية، ورغم أنه مستحب غير أنّ البادئ به يضاعف أجره بنحو لا يحصل عليه من رده، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾(النساء:٨٦)، إنّ من يرد السلام، رغم كون فعله واجباً غير أنه لا ينال الأجر الذي يناله البادئ به، هناك أمور متعددة تشير إلى أهمية مبدأ السلام والأمن في التشريعات الإلهية، نشير إلى بعض منها كالسلام.

الأمن في الصلاة

الاعتداء على الغير بسلب حقه أو التعدي على حرماته من أعظم المنكر، ومن تركه أسهم في الأمن ويتحقق ذلك بالصلاة فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

الأمن في الحج

الحج ركن من أركان الإسلام جاء في الروايات المعتبرة بأنّ الإسلام بُني على خمس دعائم منها الحج، وقد جعله الله تعالى في بقعة محدودة، وجعلها حرماً، وحدّ الفقهاء حدوداً للحرم في مناسكهم لسنا بصدد ذكرها، ومن دخل حدود الحرم التي منها المشعر الحرام فهو آمن على نفسه وماله لا يجوز التعدي عليه أي أنّ من مناسك الحج الأمن المكاني.

الأمن التشريعي والتكويني

الأمن له جنبتان تكوينية وتشريعية، وكلامنا في تبيان الجنبة التشريعية، غير أنّ الله تعالى مزج بين التكوين والتشريع في هذه البقعة الخاصة، فالتشريع تكليف أوجبه

الله تعالى على من دخلها بأن لا يتعدى ولا يتعدى عليه، حتى على المسيء لا يجوز له معاقبته في الحرم، نعم؛ إذا خرج من حدوده جازت محاسبته، إنّ الأمن التكويني يحتاج إلى شرح وبيان مفصل ألمحنا له إلماحة، وقد تعرض له المفسرون كالسيد الطباطبائي في ميزانه ورأى أنّ الآية ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(آل عمران:٩٧) خاصة بالتشريع إلاّ أنّه يظهر من آيات القرآن المزج بين التشريع والتكوين، قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾(القصص:٥٧)، قريش ومن تبعها تعللت بأنّ اتّباع رسول الله يفقدها الأمن، وردّ الله تعالى عليها، فقال: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾(القصص:٥٧)، أي أنه تعالى وفّر الأمن بنحو عام وأضاف إليه الأمن الغذائي ليأمن الإنسان في رزقه وماله ونفسه.

وبيّن الحق تعالى الأمن في آيات أخر، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ٦٧﴾(العنكبوت:٦٧)، الآية تبين أنّ البقعة لها أثر هو الاستقرار والأمن، بمجرد أن يدخل المرء الحرم يصبح آمناً على نفسه وماله، ليتاح له أن يصل إلى المعاني الكبيرة للإنسانية ويدرك بعض الفوائد منها أنّ الإنسان جبل على الخير والشر، قال تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾(البلد:١٠)، وتركيبه كذلك أساسه الفطرة ليمتحن باتّباع سبيل الهدى وطرق الخير باختياره لحكمة تقتضيها مصلحته كي يصل إلى سعادته وكماله.

الأمن مبدأ اختياري

تنطلق الحكمة من مبدأ حرية الإنسان أي أنّ الأمن ليس بالقسر والجبر، وإنما بالاختيار، وبذلك يتعلم الإنسان أنّ أي مصلحة لن تعود عليه إذا افتقد الأمن بل قد يصبح حيواناً مفترساً، إذا رأى الآخر عدواً فينسلخ عن إنسانيته ويحاول بكل ما أوتي

من قدرة الإساءة إليه، نعم؛ إذا كان يعيش الأمن في محيطه الأسري أو القبلي أو في محيط مدينته قد يتوسع فيعيشه في محيطه العقدي، فكل من اعتقد باعتقاداته عاش الأمن وإياه، أما إذا لم يعش الأمن مع أخيه الإنسان فإنه لن يعيشه بكافة أشكاله.

الأمن مبدأ أنساني عام

ركّز الحق تعالى مبدأً إنسانياً عاماً وعلّم الإنسان كيف يحترم أخاه الإنسان أولاً وكيف يحترم الحيوان ثانياً فلا يتعدى عليه، بل يراعي حقوقاً للنبات، ويتجلى هذا المبدأ العام في أمور ثلاثة:

الأول: عدم التعدي على الغير

التعدي على الغير بظلمه أو الإساءة إليه من أعظم الذنوب والمعاصي، حرمه الله تعالى وجعل له سبيلاً من خلاله يصل المرء إلى الأمن، قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(آل عمران:٩٧)، لا يجوز التعدي على من دخل الحرم محلاً أو محرماً، ولا يراد بالأمن أي يقصر على من دخل الكعبة فحسب.

الثاني: الالتزام بالحقوق العامة

الأمن للحيوان لغير المحرم دال على سعة الأمن وحرمة التعدي على أي حيوان من الحيوانات وعدم اختصاص الأمن بالإنسان فقط، بل تشمل دائرته الحيوان والنبات أي أنّ الله تعالى جعل للحيوان حقوقاً وللنبات كذلك، ويجب على الإنسان أن يحترمها حال إحرامه ليتعلم مراعاة حقوق الحيوان والنبات، وذلك مبدأ تعليمي يمارسه الناسك ويتعلمه عند أدائه نسك الحج والعمرة.

الثالث: عدم حمل السلاح

المبدأ الثالث جد هام هو حرمة حمل السلاح للمحرم إذا كان يعيش الأمن، فلا يجوز له حمل السلاح لأنه إرهاب للغير، أي أنّ من تروك الإحرام حمل السلاح، نعم لرجال الأمن حمله لحفظ الأمن واجب ولا يشملهم هذا الحكم لأنّ بعض الناس قد ينسلخ عن فطرته، ولابد حينئذ من وجود أمن، وحمل السلاح لرجال الأمن يسهم في إرسائه، أما حرمة حمل السلاح فخاصة لمن أراد أن يؤدي النسك.

هناك أمور جدُّ هامة، الأول -الأمن بين الإنسان وأخيه الإنسان- فهو في غاية الأهمية، ويتعلمه المرء بدخوله الحرم، وليس ذلك مختصاً بالإنسان، بل يشمل الحيوان بمعنى وجود حقوق للحيوان على الإنسان حال إحرامه، وهذا مبدأ تعليمي لغرس مبادئ السلم في ذهن المحرم، فمن دخل الحرم عليه أن يراعي هذه المبادئ، وإذا جسّد ذلك حال إحرامه فلم يتعدَّ على الحيوان فسوف يراعي حقوق الإنسان بالأولوية، وسوف يلتزم بالحقوق للآخرين وذلك هو الأمر الثاني، أما الثالث فهو جدُّ هام وهو عدم إرهاب الإنسان والحيوان بحمل السلاح، أثناء الإحرام، وقلنا بإنه لا يشمل رجل الأمن إذْ نصّ الفقهاء على حرمة حمل السلاح حال إرادة أداء النسك، بالإضافة إلى وجود مبدأ تعليمي بحرمة قلع شجر الحرم، واستثناء بعض النباتات كالأذخر، وذلك تعليم يتعلق بالبيئة.

الأمن التكويني في الحرم

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾(آل عمران:٩٧) يشير إلى المبادئ التي ترسي دعائم الأمن للإنسان، ويستطيع بها أن يؤدي مناسك الحج، أي أنّ من شعائره الاستقرار والأمن في التشريع والتكوين، ومعنى الأمن التكويني أنّ الله تعالى جعل الحرم آمناً بتهيئته ظروف الأمن فيه، ويحتاج هذا المبدأ إلى شرح، لأنّ تهيئة ظروف الأمن في الحرم

تختلف عن غيره من الأمكنة الأخرى في العالم، فلم يتحقق ذلك طوال التاريخ في بقعة أخرى، بينما تحقق هذا المبدأ منذ إبراهيم عليه السلام ولا زال مستمراً.

الغلظة والعنف تتنافى مع الأمن

من طبيعة العرب الغلظة والعنف، وهما مشاهدان بوضوح، لذا لديهم وحشية في الحروب التي عاشها الإنسان العربي، ولا زال ذلك محسوساً في وضعنا المعاصر، نعم؛ لانفتاحه على الحضارات الأخرى، عكس الأزمنة السابقة التي حدثت فيها مصائب وعنف يشيب لها الرضيع، كقتل المرء أسرة كاملة من أجل أخذ بعض الطعام، إنّ ذلك تجرد عن الرحمة والشفقة، والله تعالى أراد أن يشمل الأمن الحيوان والنبات ليعيش الإنسان استقراراً ودفئاً في علاقته مع أخيه الإنسان، لا يتأتى ذلك إلاّ بهذا التعليم، وفي تلك البقعة وهي منفعة من أعظم المنافع المترتبة على أداء النسك في هذه البقعة المحرمة.

الجمعة: ١٧/ ١٠/ ١٤٣٢ هـ

الحج في أبعاده الاقتصادية والاجتماعية

قال الله تبارك وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾(الحج:٢٧-٢٨) صدق الله العلي العظيم.

الحج عبادة عظيمة لها منافع متعددة، وقد بحث العلماء عن كثير من فوائده، ولازالت بعض أبعاده الأخرى بحاجة إلى تأمل لاستظهارها من الروايات، لقد أراد الأئمة من أهل البيت عليهم السلام أن يوصلوا الناس إلى فهم غور الشريعة من خلال هذه العبادة وأداء مناسكها.

البعد الاقتصادي للحج

من الأبعاد التي اشتمل عليها الحج الغنى للإنسان، فهو يوجب للمرء أن يستغني، ولا يخفى أنّ الجانب الاقتصادي له أهمية كبيرة في حياة الناس، والإنسان يكدح كثيراً من أجل رفع مستواه الاقتصادي، وقد أكدت الروايات عن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أنّ من الفوائد المترتبة على الحج الغنى، وكي نتعرف على تأثير الحج في الغنى نُذَّكِر ببعض الأمور الهامة، إنّ بعض الناس يتصور أنّ الغنى المادي يرتبط بالكد والجهد فقط، وينسى الجانب المعنوي المرتبط بالتوفيق الإلهي والعلاقات الممتازة مع الناس.

إنّ الحج يحقق للإنسان النمو الاقتصادي ويرفع من مستواه المعيشي في هاتين الناحيتين، فلا يتقدم الإنسان معيشياً بكده وجهده فقط، بل يحتاج إلى توفيق إلهي

لتيسير الأمور، ولذا؛ نجد بعض الناس يكدح كثيراً ويتعب دون هوادة، لكنه لا يحقق ما يصبو إليه، ولا يصل إلى ما يبتغيه في الاستغناء المادي، وبالمقارنة مع غيره ممن بذل جهداً أقل، وحصل على ما يطمح إليه واستغنى مادياً، نجد أنّ السبب يكمن في أنّ الرقي الاقتصادي لا يرتبط بالكدح وبذل الجهد فحسب، بل يرتبط بتدخل العناية الإلهية أيضاً.

إنّ الله تعالى يبارك للحاج في ماله، فيستفيد منه وينميه، ويتحقق له ذلك من خلال الارتباط بكثير من الحجيج الذين ذهب وإياهم وتعرف عليهم، فهناك دور فاعل للعلاقات الاجتماعية في التقدم المطرد اقتصادياً.

إذاً من الآثار التي تترتب على الحج الغنى المادي، وهناك الغنى المعنوي أيضاً لكننا نريد أن نؤكد على الجوانب الحسية الظاهرة والتي ذكرت في الروايات، وذكرنا بعضاً منها فيما سبق، ونكتفي بالإشارة إليها هنا، قال الإمام الباقر عليه السلام: «ثلاث مع ثوابهن في الآخرة»[1] وذكر منها الحج بأنه يوجب الغنى، وفي رواية ثانية: «حجوا تستغنوا، وتُكفَونَ مؤونات عيالاتكم»[2] وفي ثالثة: «من أدمن الحج والعمرة استغنى»[3].

البعد الصحي للحج

إنّ من الآثار الطيبة المترتبة على الحج الصحة في البدن، وهي من الأهمية بمكان

---

(١) في بحار الأنوار ٩٦ج ص ١٥: عن إمامنا الباقر عليه السلام: «ثلاثة مع ثوابهنّ في الآخرة: الحج ينفي الفقر، والصدقة تدفع البلية، والبِرُّ يزيد في العُمر».

(٢) في وسائل الشيعة١١ج ص ٩: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال علي بن الحسين عليه السلام: «حجوا واعتمروا تصح أبدانكم، وتتسع أرزاقكم، وتكفون مؤونات عيالاتكم، وقال: الحاج مغفور له، و موجوب له الجنة، ومستأنف له العمل، ومحفوظ في أهله وماله».

(٣) في ميزان الحكمة ج ١ ص ٥٣٥ عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما رأيت شيئا أسرع غنى ولا أنفى للفقر من إدمان حج هذا البيت »و في مستدرك الوسائل ج ٨ ص٤٤ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «حجوا البيت، فما ورده أهل بيت إلا استغنوا ولا تخلفوا عنه إلا افتقروا».

يفوق الأثر الأول، ذلك أنّ كثيراً من الناس يسعى لتحصيل الصحة في بدنه، وينفق أمواله الكثيرة من أجل صحته، ونحن نقرأ الصحف ونشاهد في شاشات التلفاز أثرياء العالم والمتمولين الذين ينفقون الملايين من أجل العلاج والتداوي لأمراضهم في المستشفيات الراقية، كـ(مايو كلينيك)[1] وغيره من المستشفيات الرائدة في العالم، إذاً الصحة في البدن لها أهمية كبيرة، والروايات أشارت أنّ هذا الأثر يتحقق ويترتب على الحج كالغنى، قد يسأل الإنسان عن كيفية ترتب الصحة في البدن على الحج.

دور الإعلام وتجارب الآخرين في الوعي الصحي :

وللإجابة على هذا السؤال لابد من الإشارة إلى مجموعة من الحيثيات التي يظهر منها كيف يتمكن الإنسان من الوصول إلى مستوى صحي جميل في بدنه؟

هناك علاقة تبادلية بين الصحة البدنية والصحة النفسية، فالصحة النفسية ترتبط بالعلاقات الاجتماعية، وكلما توسع نطاق العلاقات الاجتماعية وبني على أسس صحيحة وسليمة كالارتباط بالله تعالى، أصبحت صحة الإنسان النفسية في مستوى عالٍ، وانعكس تأثيرها على بدن الإنسان.

إنّ كثيراً من أمراض الإنسان الجسمية والبدنية تعود إلى حالته النفسية التي يعيشها، والحج يحقق للإنسان علاقات اجتماعية رائدة تبتني على الأخوة والارتباط بالله تعالى، وينعكس هذا الجانب المعنوي على الجانب المادي في صحة الإنسان، بالإضافة إلى أمور محسوسة ومرئية، إذْ يتاح للحاج فرصة كبيرة يتسع أفقه لاستطاعته الوصول إلى مستوى أعلى في فهم ما يحتاج إليه صحياً من خلال علاقاته بالآخرين وما يطلع عليه من تجاربهم وخبراتهم المتعددة التي لا تتيح الظروف له الالتقاء بهم والتحدث معهم

(١) مايو كلينك (بالإنجليزية: Mayo Clinic) هي مجموعة طبية وبحثية، مقرها الرئيسي في روتشيستر بولاية مينيسوتا الأمريكية.

والاستماع إليهم، أما في الحج فالفرصة كبيرة للاستماع إلى كثير من البرامج التوعوية الصحية وغيرها والاستفادة من تجارب الحجيج الذين يلتقي بهم ويستمع إليهم، وهي تجارب قيّمة ومردودها الإيجابي ينعكس على الصحة البدنية، وهذا أمرٌ في غاية الأهمية، ولعل الروايات التي تشير إلى هذا الأثر تحتاج إلى تبيين:

إنّ الحاج يتاح له ما لا يتاح لغيره؛ في الاطلاع والاستماع لمرئيات وتجارب لآخرين، ويرفع هذا من مستوى الوعي الصحي لديه، وينعكس عليه إيجاباً خصوصاً على صحته، وهذا أثر أهم من الغنى المادي لأن الإنسان ينفق أمواله من أجل صحته.

البعد الاجتماعي للحج :

إنّ من الآثار الطيبة التي تترتب على الحج بناء العلاقات الاجتماعية السليمة مع مختلف ضروب المجتمع على أساس الارتباط بالله تعالى دون تفرقة، فيتاح للحاج من خلال أداء لهذه الفريضة أن يلتقي بمختلف من أسلم وجهه لله وهو محسن، وجاء إلى هذه الأماكن المقدسة ممن يشترك معهم في الإسلام، فيرى أنّ هناك حقوقاً عليه أن يؤديها تجاه إخوانه من المسلمين، كما يجب عليهم أن يؤدوا حقوقاً له، والتعرف على هذه الحقوق المتبادلة بين الحاج وإخوانه الآخرين، لا يتأتى في الحالة الطبيعية لدى الناس، بينما يتم التعرف على هذه الحقوق بأكمل صورة، وترتفع الأطر الضيقة التي تشكل حاجزاً سميكاً لا يتاح للمرء الرؤية الواعية فيها، فيتجاوز الأطر الضيقة التي تَحُد وتقيد من الانطلاق والانفتاح على الآخر كالأسرة والقبيلة والبلد الذي يسكنه والطائفة التي ينتمي إليها وما إلى ذلك من الأطر، إنه يتاح للحاج الوافد على الله تعالى أن يزيل الحجب والقيود أو يخفف منها فيستوعب الرؤية الواقعية التي أشار إليها الحق تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾(الحجرات:١٣) ويبدأ بالتعامل على أسس قرآنية أصّلها الإسلام الحنيف، أهمها عدم الفرق بين الإنسان وأخيه الإنسان إلا بتقوى الله تعالى، إنّ هذه

النعمة الكبرى تتأكد في الحج، فلا يرى الحاج ما يؤثر في مساره العملي والسلوكي، بل يبني علاقات اجتماعية على تقوى الله تعالى بأسس سليمة منفتحة على مختلف أفراد وجماعات وفئات المسلمين الذين يشترك معهم في أداء هذه المناسك، ولعل الأثر الاجتماعي يحدث تأثيراً في منحيين:

الأول: الجانب الحسي والمادي.

الثاني: الجانب المعنوي للإنسان.

إنّ بناء العلاقات الاجتماعية على أسس سليمة وروابط مستقيمة لا تحدها الأطر الضيقة ينتج هذين المنحيين، بينما نجد في الاتجاهات الحديثة الاعتماد على التعامل الحر في المجال الاقتصادي فقط، غير أنّ الحاج بعد أداء الفريضة يتاح له أن يعتمد الحرية في تعامله وتبادله مع أخيه الإنسان ليس من الناحية الاقتصادية فحسب، بل في كل النواحي الأخرى التي يُعد الجانب الاقتصادي من ضمنها، قال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَـٰفِعَ لَهُمْ﴾ (الحج:٢٨) المنافع جمع منفعة، والآية لا تحد الحج بمنفعة خاصة في المجال المعنوي فقط أو المادي فحسب، بل تتعدد المنافع لتشمل مختلف الأبعاد التي يتعامل فيها الإنسان، فيجد مجموعة من المصالح تحققت لديه ببركات هذه العبادة العظيمة.

الجمعة ٢٨/ ١١ / ١٤٢٦ هـ

وصلى الله وسلم وزاد وبارك على سيدنا ونبينا محمد وآله أجمعين الطيبين الطاهرين.

المصادر

	المصدر	المؤلف	الطبعة	المطبعة	الناشر
١	القرآن الكريم	---	--	--	---
٢	إقبال الأعمال	ابن طاووس	الأولى	مكتب الإعلام الإسلامي	مكتب الإعلام الإسلامي
٣	وسائل الشيعة	الحر العاملي	الثانية	مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث	مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث
٤	عوالي اللئالئ	ابن أبي جمهور الأحسائي	الأولى	سيد الشهداء – قم	
٥	مستدرك الوسائل	الميرزا النوري	الأولى	مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث	مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث
٦	ينابيع المودة لذوي القربى	القندوزي	الأولى	دار الأسوة	دار الأسوة
٧	شرح نهج البلاغة	محمد عبده	الأولى	النهضة – قم	دار الذخائر – قم – ايران
٨	الأخلاق الحسينية	جعفر البياتي	الأولى	مهر	أنوار الهدى
٩	مجمع الزوائد	الهيثمي	١٤٠٨		دار الكتب العلمية
١٠	جامع أحاديث الشيعة	السيد البروجردي		المطبعة العلمية – قم	
١١	إحياء علوم الدين	الغزالي		دار المعرفة – بيروت	
١٢	كنز العمال	المتقي الهندي	١٤٠٩		

١٣	بحار الأنوار	العلامة المجلسي	الثانية		مؤسسة الوفاء – بيروت – لبنان
١٤	المستدرك	الحاكم النيسابوري			
١٥	ميزان الحكمة	الريشهري	الأولى	دار الحديث	دار الحديث
١٦	أمالي الطوسي	الشيخ الطوسي	الأولى	دار الثقافة	دار الثقافة
١٧	الصحيفة السجادية	الإمام زين العابدين	الأولى	نمونه – قم	مؤسسة الإمام المهدي
١٨	موسوعة كلمات الإمام الحسين	لجنة الحديث في معهد باقر العلوم	الثالثة	دار المعروف	دار المعروف
١٩	عيون أخبار الرضا	الشيخ الصدوق	١٤٠٤	مؤسسة الأعلمي	
٢٠	التفسير الصافي	الفيض الكاشاني	الثانية	مؤسسة الهادي – قم المقدسة	مكتبة الصدر – طهران
٢١	تحف العقول	ابن شعبة الحراني	الثانية		مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة
٢٢	تفسير نور الثقلين	الشيخ الحويزي	الرابعة	مؤسسة إسماعيليان	مؤسسة إسماعيليان
٢٣	أمالي الشيخ المفيد	الشيخ المفيد	الثانية	دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع	
٢٤	الكافي	الشيخ الكليني	الخامسة	حيدري	دار الكتب الإسلامية – طهران
٢٥	الإمامة تلك الحقيقة القرآنية	الدكتور زهير بيطار	الأولى	دار السيرة – بيروت	
٢٦	صحيح البخاري	البخاري	١٤٠١	دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع	

المحتوى التفصيلي

المقدمة ٥
القسم الأول: آداب ومقدمات الحج ٧
الفصل الأول: آداب الحج ٧
١. أبعاد الحج في الآخرة ٩
أهمية الحج في الإسلام ٩
الحكمة من الحج ١٠
آثار الحج في عالم الآخرة ١٠
الإنفاق في الحج وخدمة الحاج ١٢
٢. الحج منطلق الإيمان وتهذيب السلوك ١٣
التقوى مَعْلَمُ الحج ١٣
الأئمة عليهم السلام وطلائع الأمة في الحج ١٤
الأول: الإمام الحسن عليه السلام ١٤
الثاني: الإمام زين العابدين عليه السلام ١٤
الدور التوجيهي للأئمة ع في الحج ١٥
ذكر الله تعالى في الحج ١٥
الحج خير الدنيا والآخرة ١٦
الحج في فكر الأئمة عليهم السلام ١٦
٣. آداب الحج المبرور ١٩

الأول: الإخلاص ١٩
الثاني: التوبة ٢٠
الثالث: معرفة عظمة العبادة التي يأتي بها ٢٠
الرابع: الاهتمام والاشتغال بالحج ٢١
الخامس: أن يكون زاده حلالاً ٢٢
السادس: الإنفاق في الحج ٢٣
السابع: الأخلاق الكريمة في سفر الحج ٢٣
٤. أسرار الحج ٢٥
غريزة المعرفة ٢٥
عجز العقل البشري عن التعرف على أسرار العبادات ٢٦
أسرار الأمر بالحج ٢٧
٥. مظاهر عبودية الله في الحج ٢٩
الطريق الصحيح للعبودية ٢٩
معالم العبودية في الحج ٣٠
الأول: الوحدة ٣٠
الثاني: التذكرة ٣٠
الثالث: التضحية ٣٢
٦. آثار الحج ومرتبته بين العبادات ٣٥
الأولى: أفضل العبادات ٣٦
الأول: الموازنة بين الحج والصدقة ٣٦
الثاني: الموازنة بين الحج والعتق في سبيل الله تعالى ٣٧
الثانية: الآثار الوضعية المترتبة على الحج ٣٧
منها: الوصول إلى جوار الله تعالى ٣٨

ومنها: السعة في الرزق ٣٨
الثالثة: الحج وولاية أهل البيت عليهم السلام ٣٩
٧. الآثار المعنوية للحج ٤١
آثار الحج ٤١
الأول: تصاغر الشيطان ٤١
الثاني: تكفير الذنوب ٤١
الثالث: تعاظم الأجر ٤٢
الرابع: الوفادة على الله تعالى ٤٢
الخامس: شفاعة الحاج ٤٣
السادس: فتح أبواب الخير للحاج ٤٣
السابع: القُرب من الجنة ٤٤
الثامن: الأمان من ضغطة القبر ٤٤
التاسع: الوصول إلى مقام رفيع ٤٥
العاشر: المراتب المعنوية في عرفة ٤٥
٨. طرق الوصول للبعد المعرفي ٤٧
الغاية من الحج ٤٧
الكدح للوصول إلى البعد المعرفي ٤٨
الكفر العملي في ترك الحج ٤٨
تقسيم الكفر ٤٨
ميزة مكان الحج ٤٩
ارتباط الحج بالصوم ٥٠
الدعاء للتوفيق إلى الحج ٥١
الفصل الثاني: جوانب الحج الفقهية ٥٣

٩. البعد الفقهي في فريضة الحج ٥٥
دلالة الآية على وجوب الحج ٥٥
الحكمة الإلهية في وجوب الحج ٥٦
عاقبة ترك الحج ٥٧
حكم التسويف بالحج ٥٨
شرائط الاستطاعة ٥٨
المستطيع ٥٩
كفاية الوقت ٥٩
١٠. البُعد الفقهي للاستطاعة الشرعية ٦١
الاستطاعة من أهم شروط وجوب الحج ٦١
الأول: السعة في الوقت..... ٦٢
الثاني: الصحة في البدن ٦٢
الثالث: الأمن في الطريق ٦٢
الرابع: القدرة المالية ٦٢
عواقب تسويف الحجّ ٦٣
مسائل هامة في الحج ٦٣
الأولى: أيّهما يُقدّم الزواج أو الحج ٦٤
الثانية: هل يجب الحج على الطالب؟ ٦٤
الثالثة: أيّهما يُقدّم الخمس أو الحج؟..... ٦٤
الرابعة: هل تأخير الرواتب يُسقط وجوب الحج؟ ٦٥
الخامسة: الحج ومنع الحقّ الشرعي ٦٥
١١. الإنفاق في الحج ٦٧
خصائص الإنفاق في الحج..... ٦٧

الحد الأدنى لأجر الإنفاق في الحج ٦٨
تميز الإنفاق في الحج ٦٨
التضاعف التدريجي للإنفاق في الحج ٦٩
طريقة بذل المال في الحج ٦٩
الاقتراض للحج المستحب ٧٠
أثر الاقتراض للحج ٧٠
١٢. سر الاستطاعة في الحج ٧١
حكم الاستطاعة ٧١
تحصيل الاستطاعة بالقرض ٧١
الحكمة من اشتراط الاستطاعة ٧٢
الاستطاعة الأخلاقية ٧٣
التعلق بالله والارتباط به ٧٣
الدعاء للتوفيق للعبادة ٧٣
السعادة مرهونة بالسعي لله تعالى ٧٦
الفصل الثالث: معالم الحج ٧٧
١٣. خصائص بيت الله تعالى ٧٩
الأولى: الأمن الاجتماعي ٧٩
عوامل الأمن ٨٠
الثانية: البركة ٨٢
الثالثة: الهداية ٨٣
الرابعة: آيات البيت ٨٣
الخامسة: اجتماع الأمن كله في بيت الله ٨٣
١٤. حِكَم الحج المعنوية ٨٥

أولاً: الكعبة أول بيت ٨٥
ثانياً: البركة ٨٦
ثالثاً: الهداية ٨٦
رابعاً: الآيات البينات ٨٩
خامساً: مقام إبراهيم ٨٩
سادساً: الأمن ٩٠
١٥. الاستقامة والأمن الاجتماعي في نسك الحج ٩٣
الغاية من تشريع الحج ٩٣
الأولى: الانضباط في السلوك ٩٣
الثانية: الحج دافع نحو الاستقامة ٩٤
نفع الآخرين من خلال الحج ٩٤
الحج والأمن الاجتماعي ٩٥
الإنسان والأمن الاجتماعي ٩٥
البيت الحرام بركة وهداية ٩٦
الأول: الأمن والبركة ٩٦
الثاني: الهداية العامة ٩٦
القرآن والأمن الاجتماعي ٩٦
الجهاد وأمن المجتمع ٩٧
الفهم السليم للحج ٩٨
القسم الثاني: أسرار أعمال الحج ٩٩
الفصل الأول: السفر إلى الحج ٩٩
١٦. الاستعداد المعنوي للحج ١٠١
حقيقة الإحرام ١٠١

التهيؤ للحج ١٠٢
الأول: تجريد القلب لله تعالى ١٠٢
الثاني: تفويض الأمور لله تعالى ١٠٢
الثالث: التسليم لقضاء الله ١٠٣
الرابع: أداء الحقوق ١٠٣
الخامس: الاتكال على الله تعالى ١٠٣
السادس: الاعتصام بالله ١٠٤
١٧. التوحيد العملي للحج ١٠٥
نداء الحج الإبراهيمي ١٠٥
إيصال النداء الإبراهيمي ١٠٦
حقيقة إجابة الخلائق ١٠٦
مغزى تلبية النداء الإبراهيمي ١٠٦
النداء الإبراهيمي إقرار توحيدي ١٠٧
التوحيد النظري والعملي ١٠٧
التلبية هي الطاعة المطلقة ١٠٧
التلبية تسليم للمطلق ١٠٧
الغاية من الحج ١٠٨
كيفية الطاعة العملية ١٠٨
مظاهر الطاعة العملية ١٠٨
محدودية العقل البشري ١٠٩
الاعتراض على الأحكام ١٠٩
التشريع قائم على المصلحة والمفسدة ١١٠
المؤمن بين التوحيد النظري والعملي ١١٠

١٨. التلبية في آفاقها المعرفية ١١١
التلبية والتوحيد الخالص ١١١
فلسفة التلبية في أغوار معانيها ١١١
الأول: الإجابة المستمرة لله تعالى ١١٢
الثاني: نفي الشرك بأنواعه ١١٢
الثالث: انحصار الحمد في الله تعالى ١١٣
الرابع: كل النعم منه تعالى ١١٤
الخامس: الملك الحقيقي لله تعالى ١١٤
المفهوم التطبيقي لذكر الله عند أهل البيت ١١٤
١٩. مضامين التلبية ١١٧
أسرار التشريع ١١٧
التلبية تحقق رضوان الله تعالى ١١٧
مضامين التلبية ١١٨
الأول: الاستعانة والاعتماد على الحق تعالى ١١٨
الثاني: التوحيد والانقياد لله تعالى ١١٨
الثالث: الثناء المطلق لله تعالى ١١٩
الرابعة: الله مفيض النعم لجوده وكرمه ١١٩
الخامسة: ملكية الله المطلقة ١٢٠
٢٠. أسرار التلبية بين عالمي التكوين والتشريع ١٢١
ارتباط عالم التشريع بعالم التكوين ١٢١
أسرار الحج ١٢٢
حقيقة التلبية عند الإمام الصادق عليه السلام ١٢٢
الأول: البعد التكويني. ١٢٣

الثاني: البعد التشريعي ١٢٤
التلبية بين التشريع والتكوين ١٢٤
الآثار العملية والسلوكية للتلبية ١٢٥
الفصل الثاني: ما بعد الميقات ١٢٧
٢١. الطواف يبرز عبودية العقل لله ١٢٩
الغاية من إيجاد الخلق ١٢٩
المصالح من تشريع الطواف ١٣٠
الحج مظهِر عبودية العقل ١٣٠
٢٢. الأبعاد المعنوية للطواف ١٣٣
الكعبة محور التوحيد: ١٣٣
الأبعاد العرفانية للطواف: ١٣٤
البُعد الأول: التشبه بالملائكة الكروبيين ١٣٤
الأولى: التشبّه بالملائكة في العبودية لله تعالى ١٣٥
الثانية: التشبه بالملائكة في التعلق بالله تعالى ١٣٥
الثالثة: التشبه بالملائكة في التجرد عن المادة ١٣٦
البُعد الثاني: الحصول على الثواب ١٣٦
البُعد الثالث: التسابق في تحقيق رضوان الله تعالى ١٣٦
٢٣. أهداف الطواف حول البيت ١٣٩
معنى الطواف حول البيت: ١٣٩
المعنى الرمزي للطواف: ١٤٠
أهداف الطواف: ١٤٠
منها: التكامل والارتقاء ١٤١
ومنها: توحيد الطاقات والقدرات الإنسانية ١٤١

٢٤. السعي مدرسة لتغيير الواقع ١٤٣
أهداف فرض الحج: ١٤٣
عبر من قصة هاجر في المسعى ١٤٣
الرضا والتسليم لأمر الله تعالى ١٤٤
المجاهدة لتغيير الواقع ١٤٤
البعد التغييري للسعي ١٤٥
ماذا نستفيد من سعي هاجر عليها السلام؟ ١٤٥
٢٥. الأسرار المعرفية في نسك الحج ١٤٧
الأول: الإحرام تذكير بالآخرة ١٤٧
الثاني: عرفة مشهد القيامة ١٤٨
الأول: الاعتراف بالتقصير ١٤٨
الثاني: معرفة الله تعالى ١٤٨
المعرفة العبودية لله تعالى ١٤٩
٢٦. يوم عرفة في بُعده الزمني والعرفاني ١٥١
الوقوف بعرفة: ١٥١
الأول: البعد الزمني ١٥٢
مميزات البُعد الزمني : ١٥٢
الثاني : البعد العرفاني ١٥٣
مميزات البعد العرفاني: ١٥٣
متى تُفقد ميزات البُعد العرفاني؟ ١٥٤
٢٧. إشراقات معرفية من دعاء عرفة ١٥٧
الدعاء في الحج ١٥٧
أهمية دعاء عرفة ١٥٧

مضامين عالية في دعاء عرفة ١٥٨
الأول: الخشية من الله ١٥٨
الثاني: التقوى طريق السعادة ١٥٨
الثالث: الشقاء بالمعصية ١٥٩
الرابع: طلب القضاء الأحسن ١٥٩
الخامس: طلب البركة ١٥٩
السادس: الرضا بما قدره الله ١٦٠
السابع: غنى النفس ١٦٠
الثامن: الوصول إلى الاطمئنان ١٦٠
الاستمتاع بالنعم الإلهية ١٦١
٢٨. تأملات في دعاء عرفة ١٦٣
الفقر الذاتي: ١٦٤
الجهل بعظمة الحق تعالى ١٦٤
تقلبات الأحوال: ١٦٥
شح الإنسان والكرم الإلهي ١٦٦
اللطيف شديد الرحمة بخلقه ١٦٦
ظهور المحاسن بالفضل والكرم الإلهي ١٦٦
اللجوء إلى الله تعالى ١٦٧
حفاوة الله تعالى بالخلق ١٦٧
توسل المرء إلى الله تعالى بالفقر والفاقة ١٦٧
علم الله تعالى بحال الإنسان ١٦٨
الحق لا يخيب الآمال الوافدة ١٦٨
جلال وعظمة الحق تعالى ١٦٨

٢٩. جوائز الحج ١٧١
عظمة بيت الله تعالى ١٧١
أسرار الوقوف في عرفة ١٧٢
أسرار الوقوف في مزدلفة ١٧٢
أسرار التعلق بأستار الكعبة ١٧٢
أسرار النحر في منى ١٧٣
٣٠. توحيد إبراهيم الخليل عليه السلام ١٧٥
توحيد العبادة ١٧٥
الحياة والموت لله رب العالمين ١٧٥
الذبح للضيف والوالد والمعصوم ليس شركاً ١٧٦
خلاصة ١٧٨
القسم الثالث: أثار ونتائج الحج ١٧٩
٣١. الحج والحب الالهي ١٨١
أقسام الحب ١٨١
الحب التراتبي ١٨١
منطلقات حب الله تعالى ١٨٢
خصائص الحب الإبراهيمي ١٨٢
لا يأس من المحبوب ١٨٢
تجسيد القيم الإلهية ١٨٣
لا تعلق بغير الله ١٨٣
عوامل تجسيد الحب لله ١٨٤
الأول: الصبر على البلاء ١٨٤
الثاني: الحب الإلهي هو الدافع الأساسي ١٨٥

التقاطع بين الحب الإلهي والأهواء ١٨٥
الابتلاء سلم الارتقاء ١٨٥
٣٢. البعد التهذيبي في الحج ١٨٧
طرق تهذيب النفس ١٨٧
أولاً: السيطرة على الغرائز الجنسية ١٨٧
ثانياً: السيطرة على اللسان ١٨٨
ثالثاً: الشعور بالرقابة ١٨٨
أولاً: إدراك مضمون الحج ١٨٨
ثانياً: الوعي بما افترضه الله ١٨٩
ثالثاً: التوبة في مواطن الحج ١٨٩
الحج المبرور ١٩٠
الأول: البذل والعطاء ١٩٠
الثاني: طيب الكلام ١٩٠
٣٣.أثر الحج في تزكية النفس وطهارتها ١٩٣
أهمية البعد المعرفي في روايات أهل البيت عليهم السلام ١٩٣
طهارة المال الذي يحج به ١٩٣
إخلاص الحج لله تعالى ١٩٤
حقيقة رموز معاني الحج ١٩٥
التغلب على الشهوات والرغبات ١٩٥
حلق جميع العيوب ١٩٦
الدخول في أمان الله تعالى ١٩٦
اكتشاف عظمة الله تعالى عند زيارة بيته ١٩٧
معرفة جلال الله تعالى ١٩٧

٣٤. الحج والأخلاق ١٩٩
الأهداف الأخلاقية للعبادات ١٩٩
الثمرة المترتبة على الجانب الأخلاقي ١٩٩
التقوى ربح دائم ٢٠٠
العقل يدعو لترك المرجوح ٢٠٠
مكاسب رضا الله تعالى ٢٠١
العلاقة بين الحج والصوم ٢٠١
السيطرة على الغرائز ٢٠٢
كبح جماح النفس عن كل محرم ٢٠٢
نكران الذات ٢٠٣
المصالح الاجتماعية للحج ٢٠٤
المصالح الاقتصادية ٢٠٥
٣٥. الحج ومبادئ الأخلاق ٢٠٧
دور الأخلاق في تقدم الأمم ٢٠٧
محاور الأخلاق ٢٠٧
الأول: السيطرة على الغرائز ٢٠٨
الثاني: ولا فسوق ٢٠٩
الثالث: ولا جدال ٢١٠
أمهات الفضائل الأخلاقية ٢١١
٣٦. مكتسبات الحج ٢١٣
الأول: الصبر ٢١٤
الثاني: الثقة في النفس..... ٢١٤
الثالث: الانفتاح على الآخرين ٢١٥

الرابع: العلم ٢١٥
الخامس: تربية روح التسامح ٢١٦
٣٧. الحج عبادة ووحدة ٢١٧
عناصر مشتركة لوحدة الأمة ٢١٧
عناصر ضعف الأمة ٢١٨
منطلقات الرقي للأمة ٢١٨
الأول: الدعوة إلى الوحدة ٢١٨
الثاني: عبادة الحج ٢١٨
مظاهر تلاحم الأمة في الحج ٢١٩
معيار التفاضل بين أفراد الأمة ٢١٩
قدرات الأمة الإسلامية ٢٢٠
مأساة الأمة الإسلامية ٢٢١
تعاضد الأمة الإسلامية ٢٢١
منهج أهل البيت للحفاظ على الأمة ٢٢٢
الحج مؤتمر الأمة الإسلامية ٢٢٣
٣٨. الحج منار الوحدة الاسلامية ٢٢٥
دور الحج في توحيد المسلمين: ٢٢٥
الحكمة من الاختلاف بين الخلق: ٢٢٦
الاستثمار الحقيقي للاختلاف ٢٢٦
النبي إبراهيم مؤسس الفكر التوحيدي ٢٢٦
دور الإنسان في رسم مسار الوحدة ٢٢٧
معنى التطهير ٢٢٧
دور الحج في صهر عوامل الاختلاف ٢٢٨

٣٩. فريضة الحج مظهر الوحدة الإسلامية ٢٣١
وحدة الأمة من منافع الحج ٢٣١
وحدة الأمة في ثوابت الإسلام ٢٣٢
عوامل الاختلاف والافتراق ٢٣٣
النظرة الإلهية لعوامل الاختلاف ٢٣٣
نظرة أهل البيت عليهم السلام لاختلاف الأمة ٢٣٤
٤٠. الأمن في الحج ٢٣٧
الأمن في الشريعة ٢٣٧
مبدأ الأمن ٢٣٧
الأمن في السلام ٢٣٨
الأمن في الصلاة ٢٣٨
الأمن في الحج ٢٣٨
الأمن التشريعي والتكويني ٢٣٨
الأمن مبدأ اختياري ٢٣٩
الأمن مبدأ أنساني عام ٢٤٠
الأول: عدم التعدي على الغير ٢٤٠
الثاني: الالتزام بالحقوق العامة ٢٤٠
الثالث: عدم حمل السلاح ٢٤١
الأمن التكويني في الحرم ٢٤١
الغلظة والعنف تتنافى مع الأمن ٢٤٢
٤١ - الحج في أبعاده الاقتصادية والاجتماعية ٢٤٣
البعد الاقتصادي للحج ٢٤٣
البعد الصحي للحج ٢٤٤
دور الإعلام وتجارب الآخرين في الوعي الصحي ٢٤٥

البعد الاجتماعي للحج ٢٤٦
المصادر ٢٤٩
المحتوى التفصيلي ٢٥١
الفهرس الاجمالي ٢٦٩

الفهرس الاجمالي

المقدمة ٥

القسم الأول: آداب ومقدمات الحج

الفصل الأول: آداب الحج

١. أبعاد الحج في الآخرة ٩
٢. الحج منطلق الإيمان وتهذيب السلوك ١٣
٣. آداب الحج المبرور ١٩
٤. أسرار الحج ٢٥
٥. مظاهر عبودية الله في الحج ٢٨
٦. آثار الحج ومرتبته بين العبادات ٣٥
٧. الآثار المعنوية للحج ٤١
٨. طرق الوصول للبعد المعرفي ٤٧

الفصل الثاني: جوانب الحج الفقهية

٩. البعد الفقهي في فريضة الحج ٥٥
١٠. البُعد الفقهي للاستطاعة الشرعية ٦١
١١. الإنفاق في الحج ٦٧
١٢. سر الاستطاعة في الحج ٧١

الفصل الثالث: معالم الحج

١٣. خصائص بيت الله تبارك وتعالى ٧٩

١٤. حِكَم الحج المعنوية ٨٥
١٥. الاستقامة والأمن الاجتماعي في نسك الحج ٩٣

القسم الثاني: أسرار أعمال الحج

الفصل الأول: السفر إلى الحج

١٦. الاستعداد المعنوي للحج ١٠١
١٧. التوحيد العملي للحج ١٠٥
١٨. التلبية في آفاقها المعرفية ١١١
١٩. مضامين التلبية ١١٧
٢٠. أسرار التلبية بين عالمي التكوين والتشريع ١٢١

الفصل الثاني: ما بعد الميقات

٢١. الطواف يبرز عبودية العقل لله ١٢٩
٢٢. الأبعاد المعنوية للطواف ١٣٣
٢٣. أهداف الطواف حول البيت ١٣٩
٢٤. السعي مدرسة لتغيير الواقع ١٤٣
٢٥. الأسرار المعرفية في نسك الحج ١٤٧
٢٦. يوم عرفة في بُعده الزمني والعرفاني ١٥١
٢٧. إشراقات معرفية من دعاء عرفة ١٥٧
٢٨. تأملات في دعاء عرفة ١٦٣
٢٩. جوائز الحج ١٧١
٣٠. توحيد إبراهيم الخليل عليه السلام ١٧٥

القسم الثالث: آثار ونتائج الحج

٣١. الحج والحب الالهي ١٨١
٣٢. البعد التهذيبي في الحج ١٨٧

٣٣.أثر الحج في تزكية النفس وطهارتها ١٩٣
٣٤. الحج والآخلاق..... ١٩٩
٣٥. الحج ومبادئ الأخلاق..... ٢٠٧
٣٦. مكتسبات الحج ٢١٣
٣٧. الحج عبادة ووحدة..... ٢١٧
٣٨. الحج منار الوحدة الاسلامية ٢٢٥
٣٩. فريضة الحج مظهر الوحدة الإسلامية..... ٢٣١
٤٠. الأمن في الحج ٢٣٧
٤١. الحج في أبعاده الاقتصادية والاجتماعية ٢٤٣
المصادر ٢٤٩
الفهرس التفصيلي..... ٢٥١
الفهرس الاجمالي ٢٦٩